مِن نورِ القرآن

من نور القرآن

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي دام ظله

الجزء الأول

سورة الفاتحة – سورة آل عمران

هوية الكتاب

اسم الكتاب:..... من نور القرآن

تأليف : ..... سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الموضوع : ..... التفسير

الجزء :..... الاول

عدد الصفحات :..... ٣٨٥

الطبعة : ..... الرابعة

التاريخ :..... ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة وتعريف

الحمد لله الذي خلق الإنسان علّمه البيان وصلّى الله على سيد خلقه المبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

نور القرآن

وصف القرآن الكريم نفسه بأنه (نور) في آيات عديدة كقوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١٥) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤) وقال تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن:٨) وقال تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى:٥٢) وغيرها من الآيات.

وهكذا وُصِف في الأحاديث الشريفة كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) (القرآن هو النور المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم)[1].

ومن كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام) في صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (حتى أكرمه الله عزوجل بالروح الأمين والنور المبين والكتاب المستبين)[2] وقال الإمام الحسن (عليه السلام) (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور، فليجلُ جالٍ

---

(١) كنز العمال: ٥١٧/١/ ح٢٣٠٩.

(٢) التوحيد: ٧٢/ ح٢٦ ، عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١٢٤/١/ ح١٥.

بصره، فان التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور)[١].

ومن دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) عند ختم القرآن (وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه... ونور هدى لا يُطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضِلُّ من أمَّ قصد سُنّته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته)[٢].

والنور هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره بما يلقي على الأشياء من الضوء فيجعلها قابلة للإبصار، فالقرآن نور لأنه المصباح الذي يستضيئ به طالبو الكمال والسائرون على طريق الهداية والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة وهذه هي وظيفة القرآن والغرض من نزوله ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

وقد تسأل بأن القرآن اذا كان بيِّناً في نفسه مبيِّناً لغيره فما الحاجة الى التفسير الذي يعني كشف معنى اللفظ واظهاره وبيان مراد المتكلم ومدلولات كلامه. ويُجاب بأن القرآن كما وصف بيِّن ظاهر لذا يستفيد منه كل من يقرأه بحسب مؤهلاته ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧) وان الحاجة الى التفسير بلحاظ قصورنا عن ادراك معانيه لما ران على قلوبنا وعقولنا من رين الجهل والشك والسطحية في التفكير والنظر فالتفسير يزيل هذه الحجب ويقرّبنا الى القرآن الذي

---

(١) نزهة الناظر: ٧٣/ ح١٨، كشف الغمة: ١٩٩/٢، ورواها الشيخ الكليني في الكافي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام)، انظر: الكافي: ٦٠٠/٢/ ح٥.

(٢) الصحيفة السجادية: ١٥٧ الدعاء ٤٢.

هو قريب منا الا اننا بعيدون عنه، مضافاً الى وجود تفاصيل لم تذكرها الآيات الكريمة فوظيفة الرسول (صلى الله عليه وآله) بيانها ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ (الجمعة:٢).

وإنّ للقرآن بطوناً من التفسير والحقائق المكنونة في طياته لا يتيسّر معرفتها الا لأهلها وهم يبيّنون لغيرهم.

والقرآن من أعظم أسباب تحصيل النور فهو ثقل الله الأكبر استمد نوره من مرسله ومنزله وهو ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور:٣٥) لا يضِل من تمسك به، والقرآن يجلي البصيرة ويكشف عنها فيتمكن الإنسان من النظر بها، ويفجّر في القلب والعقل نور الفرقان الذي يميّز للإنسان الحق من الباطل ويأخذ بيده على الصراط المستقيم.

فمن لم يتمسك بالقرآن ولم يأخذ بعروته الوثقى يسير كالأعمى على غير بصيرة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٧٢) وسيتميز الفريقان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد:١٢) اما المعرضون عن القرآن فيتوسلون اليهم لعلهم يشفقون على حالهم ويمدّونهم ببعض النور الذي اكتسبوه، وينقذونهم من حالهم وهم يتخبّطون في الظلمات ويحيط بهم العذاب ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ويأتيهم الجواب ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ (الحديد:١٣) لأن هذا النور في الآخرة هو حصيلة التعلق بالقرآن والعمل به في الدنيا وكان عليكم

اكتساب النور فيها لينير لكم في الآخرة.

وهكذا فالقرآن نور في الحياة الدنيا وفي الآخرة وما بينهما في البرزخ والقبر حيث الوحدة والوحشة والضيق وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (عليك بتلاوة القرآن فأنه نور لك في الأرض، وذخرٌ لك في السماء)[1] ومن دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) (اللهم وما أجريت على ألسنتنا من نور البيان، وايضاح البرهان، فاجعله نوراً لنا في قبورنا ومبعثنا، ومحيانا ومماتنا، وعزّاً لنا لا ذلاً علينا، وامناً لنا من محذور الدنيا والآخرة)[2].

فهذا التفسير محاولة للاقتباس من نور القرآن ما نُحيي به قلوبنا ونطهر به نفوسنا وتستقيم به حياتنا وتنتظم به أمورنا ويفتح عقولنا على ما لم نكن نعلم مما به صلاحنا وفلاحنا ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِىَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) (تعلموا القرآن فأنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فأنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فأنه شفاء الصدور)[3].

وقد ذكرنا تفاصيل أوفى عن سببية القرآن لتحصيل النور، والعمى والضلالة بهجرانه والحاجة إلى نور القرآن في الدنيا والآخرة في تفسير عدة اقباس موجودة في مواضعها كقوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـئِكَ هُمُ

(١) ميزان الحكمة: ١٨٢/٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٢٦/٩٤/ ح ١٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١١٠.

الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف : ١٥٧) وقوله تعالى ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٧٢) وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم﴾ (الحديد:١٢) وغيرها.

من ينظر بنور القرآن:ـ

فإنه سيرى عظمة الله سبحانه تتجلى في آياته وقوانينه وسننه وقدرته على كل شيء، فالأرض جمعياً قبضته والسموات مطويات بيمينه والعزة لله جميعاً والقوة والملك له وحده فهو الذي يرث الأرض ومن عليها وإليه مرجع العباد وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ويحول بين المرء وقلبه ولا يملك شيء لشيء نفعا ولا ضراً إلا بإذنه، فعندئذ يتصاغر أمام حامل القرآن كل ما سوى الله تبارك وتعالى مهما عظم ظاهرا أو حاول أولياؤه وأتباعه تعظيمه والنفخ في صورته فإذا قدرة الله تلقف ما يأفكون فلا إرم ذات العماد ولا فرعون ذو الأوتاد ولا صاحب الكنوز التي تنوء مفاتيحه بالعصبة أولي القوة، أما حامل القرآن فقوته متصلة بالله فلا يخشى ما سواه ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٤١)، و(من خاف الله أخاف الله منه كل شيء)[1].

وعندئذ سترى أن هذه القوى الكبرى التي ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(طه:٦٦)، وقادرة على تحقيق كل ما تريد، وإذا بها تنهار وتذوب كما

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤١٠/٤.

يذوب الملح في الماء بلا حرب ولا أي عدو ظاهر لكن الله ينبئك عن الذي يقف وراء فنائهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ۞ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(النحل:﴿٢٦﴾-﴿٢٧﴾).

وسيرى وعد الله وطمأنينته للمؤمنين بأن العاقبة لهم ولكن بعد أن: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة:﴿٢١٤﴾)، وأن لا بد من الفتنة والابتلاء ليمحص الله الذين آمنوا ﴿ألم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:﴿١﴾-﴿٣﴾).

وعندئذ يقر بال المؤمن مهما واجهته من صعوبة ومحنة لأنه من سنة الله في عباده فعليه أن يصدق في المواقف وسيجزي الله الصادقين ويهون الخطب عليه انه كله بعين الله سبحانه قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور: ﴿٤٨﴾)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ﴿١٢٠﴾).

وسيرى من علو الإيمان الذي يعمر قلبه والمعارف العليا التي يحملها إلى هذه البشرية التائهة التي تلهث وراء السراب تعيش لأغراض زائفة وتمني نفسها بأمانٍ

باطلة يزينها لهم أولياء الشيطان من مال وجاه وشهوات يتنافسون عليها ويتقاتلون على شيء لا يبقى لهم بل يكون وبالاً عليهم. يصنعون لأنفسهم آلهة يصطلحون على عبادتها وطاعتها وتقديم الولاء لها فيقيمون لها الطقوس والاحتفالات والمهرجانات ويذبحون من أجلها القرابين ليس من الحيوانية فقط بل البشرية ويهدرون على أقدامها المليارات.

وسيرى أنه ليس وحده حتى يشعر بالضعف أو الذلة أو الخضوع والاستسلام ولا أن ما يعانيه ويشاهده ويعيشه بدعاً من الحوادث ولا أن تجربته فريدة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف: ۝٩)، فإذن قد سبقه على هذا الخط أنبياء عظام وأولياء كرام وحملة رسالات ومصلحون وعباد صالحون عانوا أكثر مما عانى وصبروا على اشد ما صبر عليه وواجهوا من مجتمعاتهم أعظم مما يواجه والصورة نفس الصورة قال تعالى﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:۝٢٦)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة:۝١٠٥).

وسيرى تكريم الله لخلقه حين خاطبهم بنفسه ووجه إليهم كلامه مباشرة، الله العظيم خالق السموات والأرض ذو الأسماء الحسنى يرسل إليهم بنفسه رسالة ويعهد إليهم بعهده، أي تكريم أعظم من هذا وأي تفضيل فوق هذا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء:۝٧٠) فكيف يا ترى مشاعر الإنسان وهو

يقرأ رسالة حبيبه بل الحبيب المطلق (إن القرآن عهد الله إلى خلقه فينبغي لكل مؤمن أن ينظر فيه)[1].

وسيرى أن كل شيء في هذا الكون بقدر وحساب دقيق، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر:٢١)، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ (الأنبياء:٤٧)، وكل المخلوقات أفراداً ومجتمعات تجري وفق سنن ثابتة ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(النساء: ٢٦)، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨) لا يستطيع أحد أن يخرج من هذا القانون الإلهي العظيم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:٤٣)، فكيف يعبد الإنسان غيره تبارك وتعالى وهو لا يستطيع أن يخرج من قبضة سننه وقوانينه، فلا مجال للعب ولا العبث واللهو ﴿رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران:١٩١)، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُون﴾ (الذاريات:٥٦)،﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٧) ولا مجال للصدفة العمياء التي طالما تشدق بها الملحدون وضحكوا بها على عقول الناس ردحا من السنين وأضلوهم بها فتعساً للتابع والمتبوع، فمن وراء خلق الإنسان هدف فلا بد ان يحيا من اجله ويكرس كل طاقاته لتحقيقه وهو رضا الله تبارك وتعالى.

وسيجد في القرآن الوعد الإلهي بالإمداد والقوة الغيبية في كل موقف وشدة

---

(١) الكافي: ٦٠٩/٢، باب في قراءته (قراءة القرآن)، ح١.

ومأزق ومعركة مع النفس الأمارة بالسوء أو الشيطان، وأن الله معه وكفى به ناصراً ما دام هو مع الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۞ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٠-٣٣) وآيات كثيرة تخبر عن إنزال السكينة في قلوب المؤمنين والإمداد بالملائكة المسومين وغيرها.

وسيجد في كنف القرآن الطمأنينة قال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨)، وهدوء البال وشفاء الصدور والهدى والبركة وكل خير مما وصف القرآن به نفسه.

فإذا وجد حامل القرآن كل ذلك اشتدت عزيمته وقوي قلبه وصلحت نفسه وازدادت همته وظهرت حكمته وسيكون عندئذ مصدراً للعطاء ومنبعاً للخير لنفسه وللمجتمع كما هو شأن المصلحين العظام وعلى رأسهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام).

مميزات هذا التفسير

إنه تفسير موضوعي، أي انه ينظر الى الآيات القرآنية من خلال الموضوعات التي تتناولها والقضايا التي تعالجها، لذا فهو ينتخب من الآيات الكريمة بحسب الموضوع الذي تتناوله الآية والقضية التي تعالجها، وتؤخذ معها الآيات التي تشترك معها في الموضوع لتشكّل منظومة منسجمة مع بعضها، وتنتج

رؤية متكاملة عن ذلك الموضوع، أو القضية التي تلقي الآية الكريمة ضوءاً عليها فالتفسير الموضوعي يختلف من هذه الجهة مع التفاسير التجزيئية المتعارفة التي تسير مع الآيات القرآنية بحسب ترتيب تدوينها في المصحف الشريف فتفسرها وتشرح المراد منها.

وهو تفسير حركي لان الغرض منه هو تفعيل دور القرآن الكريم في الحياة، واخراجه من عزلته واعطائه حقّه في قيادة البشرية وإعادة الحيوية والحركية اليه، وإلهامه الحلول والمعالجات لكل مشاكلها، فإننا لا نقف عند تفسير ألفاظ الآية وشرح عباراتها ومفرداتها، وانما يتقدم نحو استلهام الدروس المستفادة منها.

أي انه يستفيد من القبس القرآني في معالجة قضية معينة عقائدية او أخلاقية او فكرية او اجتماعية او تاريخية، او غير ذلك ويطبق تفسير الآية على تلك القضية ليكون القرآن قائداً لنا في كل شوؤن حياتنا.

ولذا كان المعيار في اختيار الآيات هو أن تؤدي الى هذا الغرض، وتشترك فيه، وإن كانت ذات طبيعة عقائدية أو أخلاقية أو فكرية أو اجتماعية أو سياسية، وغير ذلك، فتبدأ عملية التفسير من تشخيص الداء والمشكلة التي يُراد معالجتها بالقرآن أو الجرعة العقائدية أو الأخلاقية أو الفكرية التي يراد اعطاؤها، أو النقص الذي يراد اكماله في ثقافة الأمة، او القضية التي نريد بيانها ونحو ذلك، ثم نهرع الى القرآن الكريم، ونلجأ اليه، فنستنطقه، ونستثير علومه ومعارفه، لنلتمس منه الحل والعلاج ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ (الحديد:١٣).

وقد تكون العملية بالعكس بأن ينقدح من الآية الكريمة نور يضيء طريقاً لصلاح الأمة وسعادتها، فنقتبس من ذلك النور ما يزيل بعض الظلمات التي تتخبط

فيها البشرية؛ فنشرح الآية أولاً، ثم نطبقها على المطلوب، أو نُبيّن الدروس المُستفادة منها، وقد نكرّس الحديث لتطبيقات الآية، لوضوح معنى الآية في نفسها.

وبذلك نقّرب الامة للقرآن ونفتح اذهانهم عليه ونقّدم لهم صيغة تناسب ثقافتهم وطريقة تفكيرهم والأدوات المعرفية المتيسرة لهم وهي وظيفة العلماء في كل جيل وليس صحيحاً ان نبقى منغلقين على أساليب لا تستفيد منها الأجيال المعاصرة.

وبناءً على منهج التفسير الموضوعي يكون المصدر الرئيسي لتفسير الآيات الكريمة وفهم مدلولاتها هو القرآن نفسه، من خلال ضم الآيات التي تشترك في وحدة القضية الى بعضها، فتكتمل صورة المعنى بالبيان القرآني، فقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩)، فيكون أول ما يبيّن نفسه، وسيكون المصدر الاخر لتفسير الآيات الكريمة وفهم المراد منها والاحاديث الشريفة، لأن وظيفة المعصومين (عليهم السلام) هي بيان المُراد من القرآن الكريم، ونشر علومه ومعارفه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤). وسنجد حينئذٍ تناسقاً رائعا بين الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة تصديقاً لحديث الثقلين المشهور بأنهما (لن يفترقا حتى يردا الحوض)[1].

وستجد الروايات الشريفة منسجمة مع الآيات الكريمة في منظومة واحدة لتؤدي الغرض المطلوب منها لذا لم نعمل على عزل الروايات في بحث روائي

---

(١) بحار الأنوار : ج ٢٣ /ص ١٥٢.

ملحق بالتفسير الآية كما في تفسير الميزان مثلاً.

ولأن (القبس)- لغة- هو المتناول من الشعلة والنار، بعود ونحوه -وليس كل النار- فإننا نعترف أن ما في هذا التفسير هو ما استطاعت عقولنا فهمه، وادراكه، بلطف الله تعالى، من نور القرآن اللامتناهي ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان:٢٧).

واتبعنا في هذا التفسير منهج القرآن، في جعل التوحيد وما يتفرع عنه من العقائد محور الحياة كلها، فحينما يتعرض لأحكام شرعيّة أو يتناول أحداث معركة أو يعالج مشكلة اقتصادية أو اجتماعية فإنه يربطها بالعقيدة ويرجع الأمور كلها الى الله تعالى، والذي لا يفقه هذا المنهج القرآني يراها غريبة عن السياق.

وعلى هذا المنهج سرنا في الأحاديث والخطب، فامتزجت فيها العقيدة والأخلاق بالسياسة والاقتصاد والادارة والاجتماع والفكر والثقافة.

ولطول مُخالطتي مع القرآن الكريم بفضل الله تعالى وكرمه فقد استفدت من طريقته في إصلاح الفرد والمجتمع، وقد لخصّتُها في بحث (شكوى القرآن)[1]، ولذا اتصفت هذه المحاضرات القرآنية بشيء من تلك المُميّزات.

وكان للتفكير الاجتهادي، وطول الممارسة في الاستنباط الفقهي، المُعتمد أصلاً على النظر والتفكر في نصوص الكتاب والسنة، أثر بالغ في استكشاف

---

(١) راجع: ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿الفرقان:٣٠﴾ في تفسير من نور القرآن.

مكنونات الآيات الكريمة، بالمقدار الذي تسعه أوعية عقولنا وقلوبنا المحدودة ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧)، وربما فهمنا من الآية عدّة وجوه ومستويات غير ملتفت إليها ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة:٤).

ووفرت هذ القابلية إمكانية فهم عدة وجوه ومستويات للآية الكريمة كلها صالحة لتفسيرها تصديقا للحديث الشريف (إن للقرآن ظهرا وبطنا ولبطنه بطنا إلى سبعة أبطن)[1] وبهذا المعنى فسّرنا قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف:١٠٩) أي معاني القرآن والا فأن الفاظه تنتهي حتماً لانها محدودة.

كما ان تجربة القيادة والمرجعية الدينية أعطت زخماً من التوجيهات الاجتماعية ومشاريع الوعي والإصلاح في التفسير ويظهر في بعض الاقتباسات نفس تربية القادة والمصلحين على المستوى العالمي وليس على صعيد بلد محدد بالاستفادة من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) واستعداداً لتأسيس دولة العدل الالهي والكرامة الإنسانية في جميع الأرض لاحظ مثلا قبس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ في الجزء الرابع القبس١١٩،ص٧٦.

ولان بعض هذه الاقباس عبارة عن خطب واحاديث اقتضتها بعض المناسبات فستجد المناسبة حاضرة في تطبيقات القبس ونحن سنبقي منها ما يكون مصداقاً للآية الكريمة ونحذف ما يتعلق بالمناسبة ذاتها، ونحيل القارئ

---

(١) التفسير الصافي : ١ / ص ٣١.

الكريم الى موسوعة (خطاب المرحلة) ليجد فيه تلك التفاصيل وشرح الاحداث التي اشير اليها في القبس.

ولما كان التفسير موضوعياً فان جملة من الآيات ذات الموضوع الواحد تبحث تحت عنوان أحدها لذا يستطيع الباحث ان يجد آية او اكثر مبّينه تحت عنوان غيرها مما تتحد معها في الموضوع

ولأجل رفد خطباء المنبر الحسيني بالمعارف القرآنية الواعية باعتبارهم أوسع نافذة للتواصل مع الامة فقد حاولنا في كثير من الاقباس أن نربطها بقضية الإمام الحسين (عليه السلام) ونجعل تطبيقاتها من الفصول الرسالية لنهضة الإمام الحسين (عليه السلام) وقد صدر كتاب بعنوان (المعارف القرآنية والمنبر الحسيني) ضمَّ أربعين قبساً يخدم هذا الغرض.

محمد اليعقوبي _ النجف الأشرف

شهر رمضان المبارك/١٤٣٧هـ- حزيران/٢٠١٦م

القبس ١/

سورة الفاتحة:١

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أعظم آية في كتاب الله تعالى بحسب ما يأتي عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وتفتتح بها اعظم سور القرآن وافضلهن وقد جمعت فيها كل علوم ومعارف القرآن الكريم كما في الرواية الآتية عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وتمثل كل آية منها قاعدة كلية ومبدءاً اساسياً من المبادئ التي يستند اليها الإسلام، وروي في ذلك عن ابن عباس قوله (إن لكل شيء اساساً، واساس القرآن الفاتحة واساس الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾)[1]

وقد روي في فضلها احاديث كثيرة منها ما رواه ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (اذا قال المعلم للصبي: قل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم) وعن ابن مسعود قال (من أراد أن يُنجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنها تسعة عشر حرفاً، ليجعل الله كل حرف منها جنة من واحد منهم)[2].

ولا يبعد أن تكون البسملة وسورة الفاتحة التي تبتدئ بها أول الآيات القرآنية نزولاً كما انها الأولى تدويناً في المصحف الشريف ولنا على ذلك عدة شواهد:

---

(١) تفسير الثعلبي: ٤٩٩/٢، وحكيت عن ابن كثير في تفسيره: ٩/١.

(٢)جامع الأخبار: ١١٩/ح٢١٥.

١- الإشارة إليها في أول سورة العلق التي يقول المشهور انها اول الآيات نزولاً وفيها أمر بأن يبدأ قراءته باسم الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق:١) فالبسملة المشار إليها أسبق نزولاً وأنها كانت معروفة لدى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل آية العلق.

٢- ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يتعبد ويصلي قبل البعثة ويقرأ القرآن من حين نزوله عليه بل ان نفس سورة العلق فيها إشارة الى صلاته ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (العلق:٩-١٠) ومن البعيد أنه كان يفعل ذلك من دون ان يفتتح عمله بالبسملة، وورد في الحديث المشهور (لا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب)[1].

٣- عدة روايات تدل على ذلك، كالذي رواه في مجمع البيان عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (سألت النبي (صلى الله عليه وآله) عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأوّل ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب، ثم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[2].

وفي تفسير القمي في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق:١) قال (قال: اقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي أسباب النزول للواحدي النيسابوري عن ابن عباس أنه قال (أول ما نزل به جبرئيل على النبي (صلى الله عليه وآله) قال: يا محمد استعذ ثم قل:﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

---

(١) عوالي اللئالي: ١٩٦/١، وسائل الشيعة: ٣٧/٦، صحيح البخاري: ١٩٢/١.

(٢)مجمع البيان- الشيخ الطبرسي: ٢١٢/١٠.

وما أخرجه الدارقطني عن ابن عمر (أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال (كان جبرئيل اذا جاء بالوحي أول ما يلقي عليَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾)[١].

وروى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (أول كل كتاب نزل من السماء ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾)[٢]، وروى البرقي في المحاسن بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (ما نزل كتاب من السماء الا أوّله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومال الى هذا القول جملة من المفسرين، بل نسب الزمخشري إلى أكثرهم القول بأن سورة الفاتحة أول السور نزولاً[٣].

وفي مقابلها روايات[٤] كثيرة دلت على ان سورة العلق أول السور نزولاً، ويمكن الجمع بأن البسملة أو سورة الحمد اوحيت الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أولاً على نحو الحديث القدسي كجزء من تأديب الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) بأن يفتتح كل أعماله بالبسملة ويبني حياته عليها ولا مانع من ان يكون ذلك قبل البعثة أصلاً، ففي دلائل النبوة للبيهقي (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لخديجة: إنيّ اذا خلوت وحدي سمعت نداءاً.. يا محمد قل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ حتى بلغ ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[٥] والظاهر أن هذا قبل البعثة أبان عزلته في غار حراء.

---

(١) الدر المنثور: ٧/١.

(٢)وما بعده وسائل الشيعة: ٥٩/٦ أبواب القراءة / باب١١/ ح٨و١٢.

(٣) الكشاف: ٤/ ٧٧٥.

(٤) معرفة القرآن في ضوء الكتاب والسنة للريشهري: ١٠٢/١.

(٥) دلائل النبوة – البيهقي: ١٥٨/٢، باب أول سورة نزلت من القرآن.

ثم نزلت سورة الحمد ثانياً بعد ذلك لتكون جزأً من القرآن النازل وليقرأها المسلمون في صلاتهم التي تأخر تشريعها عن بدء البعثة النبوية، ونزول سورة الفاتحة مرتين أحد معاني وصف سورة الحمد بالسبع المثاني.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالقرآن الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧)، وتدل هذه الآية على عظمة السورة بحيث افردها الله تعالى بالذكر في مقابل القرآن العظيم كله وفي هذا المعنى روى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) قال (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول (ان الله تعالى قال لي: يا محمد ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالقرآن الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧) فافرد الامتنان عليَّ بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن العظيم وان فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش) وفيها (الا فمن قرأها معتقداً لموالاة محمد وآله الطيبين منقاداً لأمرهما، مؤمناً بظاهرهما وباطنهما، أعطاه الله تعالى بكل حرف منها حسنة، كل واحدة منها أفضل له من الدنيا وما فيها من أصناف أموالها وخيراتها، ومن استمع إلى قارئ يقرأها كان له قدر ما للقارئ، فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرض لكم، فأنه غنيمة لا يذهبنّ أوانه، فيبقى في قلوبكم الحسرة)[1].

وروى الشيخ الكليني بسند صحيح عن محمد بن مسلم قال (سألت أبا عبدالله - أي الصادق (عليه السلام)- عن السبع المثاني والقرآن العظيم أهي الفاتحة؟ قال: نعم، قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع؟ قال: نعم، وهي أفضلهن)[2].

---

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٣٦٠/١ ح ٦٠، أمالي الصدوق: ١٤٨/ ح٢ ، بحار الأنوار:٢٢٧/٩٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٥٧/٦ أبواب القراءة ، باب: ١١/ ح٢.

ومن أسمائها (أم الكتاب) والأم لغة هي الأصل والجامع[١] فكأن السورة أصل القرآن وجامعةٌ لمقاصده ومحتوية على معارفه الإلهية.

ولسورة الفاتحة آثار وبركات عظيمة بحسب ما ورد في الروايات[٢] ومنها ما في تفسير العياشي (قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لجابر بن عبدالله: يا جابر الا اعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه! قال: فقال جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علمّنيها، فعلمه (الحمد لله) أم الكتاب، قال: ثم قال له: يا جابر: الا أخبرك عنها؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي، فأخبرني، قال: هي شفاء من كل داء الا السأم -يعني الموت-)[٣]، وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء)[٤] أي انها سبب لذلك والنتائج بيد الله تعالى كالأدوية.

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (كان النبي (صلى الله عليه وآله) اذا كسل أو اصابته عين أو صداع بسط يده فقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين ثم يمسح يده على وجهه، فيذهب ما كان يجده)[٥] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (من نالته علة فليقرأ في جيبه الحمد لله سبع مرات فان ذهبت والا فليقرأ سبعين مرة وأنا ضامن

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٤٧٢.

(٢) تجد جملة منها في تفسيري البرهان ونور الثقلين.

(٣) عن تفسير العياشي: ٢٠/١ ح ٩، بحار الأنوار: ٢٣٧/٩٢ ح ٣٣، مسند ابن حنبل: ١٨٧/٦ ح ١٧٦٠٨.

(٤) سنن الدارمي: ٩٠٢/٢ ح ٣٢٤٧، شعب الايمان: ٤٥٠/٢ ح ٢٣٧٠، كنز العمال: ٥٥٧/١ ح ٢٥٠٠.

(٥) مكارم الاخلاق: ٢٠٣/٢ ح ٢٥٢٣.

له العافية)[١] وقريب منه ما في كتاب طب الأئمة[٢] (عليهم السلام) الا أنه أضاف اليه الاذان والإقامة.

ويصل عظيم تأثيرها إلى مستوى ما جاء في الرواية الصحيحة في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (لو قرئت الحمد على ميت سبعين مرة فرُدَّت فيه الروح ما كان ذلك بعجب)[٣].

والبسملة عندنا نحن الإمامية جزء من كل السور القرآنية الا سورة التوبة لعلة ذكرتها الروايات[٤] فلا يصح افتتاح أي سورة الا بها وجزئيتها من كل سورة تعني ان للبسملة في كل سورة معنى غير ما في السورة الأخرى وان اشتركت لفظاً، وهي آية من سورة الفاتحة وبها بلغ عدد آياتها سبعاً.

وقد تكرّر الأمر بأن يبتدئ بالبسملة كقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١) وقوله تعالى ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾ (المزمل:٨) وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى:١٥).

---

(١) الامالي للطوسي: ٢٨٤ ح ٥٥٣ بحار النوار: ٢٣١/٩٢ ح ١٣ الدعوات: ١٨٩ ح ٥٢٥.

(٢) طب الائمة: ابن سابور الزيات:٥٢.

(٣) الكافي: ٢/ ٦٢٣ ح ١٦ / الدعوات: ٨٨ ح ٥٢٢ ، مكارم الاخلاق: ١٨٣/٢ ح ٢٤٨٢

(٤) روى ابن عباس قال: (سألت علي بن ابي طالب (عليه السلام) لِمَ لم تكتب في براءة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قال: لأنها أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان) المستدرك:٣٣٠/٢) ويرى قسم ان عدم البسملة لأنها استمرار لسورة الأنفال وإن كانت سورة مستقلة، وهنا التفاتة لاهل المعرفة بأن سورة التوبة التي نزلت في البراءة من المشركين وان لم تبدأ بالبسملة الا ان الله تعالى لرحمته بعباده لم يشأ حرمانهم من لطفه العام فبدأها بالباء التي جمعت فيها علوم البسملة التي جمعت فيها علوم الفاتحة التي اودع فيها علوم القرآن كما في الحديث الذي سنشرحه في الملحق ان شاء الله تعالى.

فمن الغريب تعدد أقوال العامة في البسملة فنفى بعضهم ان تكون آية من أية سورة وقال غيرهم بأقوال أخرى حتى انهم اسقطوها من سورة الفاتحة وتركوا الجهر بقرائتها في الصلاة.

رغم انهم رووا في صحاحهم عن جمع من الصحابة ما يدل على انها آية من سورة الحمد وان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقرأها ويجهر بها وروى الثعلبي في تفسيره[1] عن أبي هريرة ان النبي (صلى الله عليه وآله) زجر رجلاً قرأ الفاتحة بدون البسملة.

وعندنا استحباب الجهر[2] بالبسملة في جميع الصلوات وأنه من علامات المؤمن[3] وأخرج الطبراني والدار قطني والبيهقي في شعب الايمان عن عدد من الصحابة ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يجهر بالبسملة في صلواته[4].

وآية البسملة فيها تأديب بأن نفتتح كل كلامنا وأفعالنا باسم الله تعالى لأنه عزوجل ﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ (الحديد:٣) ليكون العمل مباركاً ولا يكون كذلك ولا تكون التسمية صادقة الا اذا توفر عنصران بأنٍ يكون الأمر حقاً ويكون مخلصاً لله تعالى فالتسمية تدعوا الى هذين الأمرين، وكان أول أمر نزل على رسول الله

---

(١) تفسير الثعلبي: ١٠٤/١.

(٢) دلت عليه عدة روايات في وسائل الشيعة: ٥٧/٦ أبواب القراءة، باب ١١.

(٣) روى الشيخ الطوسي في (مصباح المجتهد:٧٨٧) عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) قال (علامات المؤمن خمس: صلاة الاحدى والخمسين وزيارة الأربعين والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾).

(٤) المستدرك للحاكم: ٧٣٦/١، الدر المنثور للسيوطي:٧/١.

(صلى الله عليه وآله) هو ان يبدأ رسالته وتبليغه عن الله تعالى بالبسملة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١).

وهو أدب سار عليه الأنبياء الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين) ومثاله قول النبي نوح (عليه السلام) ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود:٤١) وبدأ النبي سليمان رسالته بها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل:٣٠).

وقد جرت سيرة العقلاء على افتتاح كلامهم ومشاريعهم باسم عظيم في نظرهم أو اقترانه بمبدأ يخلّد الفعل والحدث، وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا الشأن قال تعالى ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة:٢٠٠) والله تعالى هو مانح الخلود ومجمع صفات الكمال فأولى أن ترتبط كل الأمور به تبارك وتعالى.

واسم الله عظيم البركة قال تعالى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ (الرحمن:٧٨)، ومن الدلائل على عظمة البسملة ما رواه الشيخ الطوسي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) والشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) وفي عدة روايات عنهم (عليهم السلام) قالوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب الى اسم الله الأعظم من ناظر العين الى بياضها)[1] وفي ثواب الأعمال بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) (اسم الله الأعظم مقطع في أم الكتاب)[2].

---

(١) التهذيب: ٢٨٩/٢ ح ١١٥٩ ، ثواب الأعمال: ١٠٤.

(٢) ثواب الأعمال:١٠٤، البرهان:٨٠/١.

ورد في تفسير العسكري (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حدثني عن الله عزوجل أنه قال: كل أمر ذي بال لا يذكر بسم الله فيه فهو أبتر)[١] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إن العبد اذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأنه يبارك فيه)[٢] وروى البرقي في المحاسن بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) (اذا توضأ أحدكم ولم يسمِّ كان للشيطان في وضوئه شرك، وإن أكل أو شرب أو لبس وكل شيء صنعه ينبغي له أن يسمي عليه، فإن لم يفعل كان للشيطان فيه شرك)[٣].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (لا تدع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن كان بعده شعر)[٤] وعنه (عليه السلام) (ولربما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمره ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيمتحنه الله عزوجل بمكروه لينبهه على شكر الله تبارك وتعالى عليه ويمحق عنه وصمة تقصيره عند تركه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾)[٥] ولما كانت الصلاة عمود الدين والقرآن ثقل الله الأكبر فهما أولى بهذا الافتتاح فكيف اسقطوا البسملة منها؟.

((ان البسملة تنتج عدة أثار معنوية:

منها : انها توجب تكامل النتيجة وصفائها وخلوصها.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٧٠/٧ ، كتاب الصلاة ، أبواب الذكر، باب ١٧.

(٢) بحار الأنوار:٢٤٢/٨٩، تفسير الإمام العسكري (عليه السلام): ٢٥.

(٣) وسائل الشيعة: ٥٧/٦ أبواب القراءة: الباب ١١، ١٢،٢١.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ٦٧٢/٢/ ح١.

(٥) التّوحيد- الشيخ الصدوق: ٢٣١.

ومنها: انها تنفي عنها النقص والمحدودية والظلمانيه. فمثلاً عند الاكل تنفي بالبسملة اضرار الطعام المادية والروحية، وكذلك عند الابتداء بالسور بل الابتداء بكل عملٍ فإن كل عمل ينبغي ان يتكامل ويندفع سوءه ببسم الله الرحمن الرحيم.

والمفروض ان الانسان ينبغي ان يكون على ذكر دائم لله تعالى، والله تعالى اعلم اننا نعجز عن ذلكن وهو استحباب الذكر في اول العمل وآخره، اما الذكر في اوله فالبسملة، واما الذكر في آخره فبالحمد وورد (اللهم صل على محمد وال محمد واختم لي بخير، فاذا كان بادئة العمل بالذكر ومنتهية به، فيكون بينها الفرد بمنزلة الذاكر))[1].

تفسير الآية:

﴿بِسْمِ﴾ أي بإسم وحذفت الألف للوصل وهي ليست أصلية ومتعلق الباء محذوف يقدّر من سياق الكلام فعندما يسمى على أي فعل يكون تقديره ذلك الفعل وتقديره هنا (ابتدى) وورد هذا المعنى في الرواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال الله عزوجل: قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، اذا قال العبد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جل جلاله: بدأ

(١) منة المنان: ٦٩/١ ط.البصائر.

عبدي باسمي وحقَّ علي أن أتمم لـه أمـوره وابـارك لـه فـي أحوالـه)[١] إلـى آخـر الحديث.

ويمكـن ان تكـون البـاء للاسـتعانة بحسـب قصـد الفاعـل، ويكـون التقـدير (استعين)، ويدل عليه ما رواه الشيخ الصدوق في كتـاب التوحيـد بسـنده عـن أميـر المؤمنين (عليه السلام) قال (فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير وعظـيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي استعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره)[٢]

والاسم ما يعـرف بـه ذات الشـيء ويـدل علـى المسـمى وأصـله سِـمْوٌ بدلالـة قولهم في الجمع أسماء مثل قِنوْ اقناء وحِنوْ احناء وتصغيره سُمَيّ واصله من السـمو وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به[٣] من السمو والرفعـة لأن المسـمى يعلـو بالاسم ويرتفع ويخرج من الخفاء إلى الظهور فيحضر في ذهن السامع.

وقيل أنه من الوسم والسمة أي العلامة، قال في مجمـع البيـان: والأول أصـح، وقال السيد الخوئي (قدس سره) ((وهـو خطـأ لأن جمـع اسـم أسـماء، وتصـغيره سـمي، وعند النسبة اليه يقال: سموي واسمي، وعند التعدية يقـال: سـميت واسـميت، ولـو كان مأخوذاً من السمة لقيل في جمعه أوسام، وفي تصغيره وسيم، وفي النسبة إليـه وسمي، وعند التعدية وسمّت وأوسمت))[٤].

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢٦٩/٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٢٨/٥ أحكام المساكن، باب ١٩.

(٣) المفردات للراغب: ٤٢٨ مادة (سمو) ، مجمع البيان: ١٩/١.

(٤) البيان في تفسير القرآن: ٤٤٩.

أقول: لوحظ في الجمع والتصغير والنسبة نفس لفظ (اسم) مستقلاً من دون لحاظ اشتقاقه كالذي يقال في اللقب فلا تكون شاهداً على أحد المعنيين، فالأول أقرب لكن الثاني ممكن وليس خطأ كما قال السيد الخوئي (قدس سره) ووردت فيه رواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (معنى قول القائل بسم الله أي أسِمُ نفسي بسمة من سمات الله عزوجل وهي العبادة، قال: فقلت له: ما السمة، قال العلامة))[1].

((ويصح رجوع أحد المعنيين إلى الآخر في جامع قريب: وهو البروز والظهور، لأن الرفعة نحو علامة، والعلامة نحو رفعة لذيها، وهما يستلزمان البروز والظهور))[2].

(الله) لفظ الجلالة اسم علم للذات المقدسة فيستجمع كل الأسماء الحسنى التي هي صفات.

(الرَّحْمَن) من صيغ المبالغة لكن ليس من جهة الموصوف وهو الله تعالى إذ ﴿لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل: ٦٠) وإنما من جهة اللفظ، في نفسه أو بلحاظ عطائه تبارك وتعالى كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢) وهي صفة مشتقة من الرحمة وهي ضد الغلظة والقسوة والشدّة، قال تعالى ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩).

وقد عُرِّفت برقة القلب والشفقة والعطف والتأثر ونحو ذلك وهي بالدقة من لوازمها عند البشر ومقدماتها التي تؤدي إلى انبعاثها وهي بهذا المعنى لا يوصف بها الله سبحانه، وإنما تعرف رحمته بآثارها على خلقه بالأنعام والتفضل وسد

---

(١) التّوحيد- الشيخ الصدوق: ٢٣١.

(٢) مواهب الرحمن: ١/١٠.

الاحتياج، قال الإمام الصادق (عليه السلام) (وإن رحمة الله ثوابه لخلقه ... فهو رحيم لا رحمة رقة)[١] وفي نهج البلاغة (رحيم لا يوصف بالرقّة)[٢].

وهي صفة فعل أي تتحقق بظهور آثارها ولم ترد متعلقة بشيء وهذا يدل على إطلاق الرحمة وإنها غير مختصة بشيء بل تسع كل شيء، قال تعالى ﴿هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس:٥٢) وقال تعالى ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك:٣).

﴿الرَّحِيمِ﴾ صفة مشبهة تدل على الثبات والدوام وملازمتها للذات كالغريزة والسجية، وايرادها بعد وصف الرحمن للإشارة إلى أنّ صفة الرحمة راسخة في الذات لأن وصف الرحمن لا يدل عليها - بحسب اهل اللغة- وان دل على سعة الرحمة، فجمع الوصفين للدلالة على اجتماع الصفتين.

ولعل الابتداء بهذين الوصفين المشتقين من الرحمة دون اسمائه الحسنى لأنها أصل كل خير ولطف وعناية بالمخلوقين، وان أفعال الله تعالى وعلاقته بعباده مبنية على أساس الرحمة، حتى في عذابه وابتلائه فأنه رحمة بالعباد ليؤهلهم إلى درجات أفضل (يا من سبقت رحمته غضبه)[٣] والرحمة علة انزال الكتب وبعث الرسل، قال تعالى ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٣) وقال تعالى ﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) بحار الأنوار: ٣/ ١٩٣-١٩٨.

(٢)نهج البلاغة: ٢/١٠٠.

(٣) مفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الكبير، الفقرة:٢٠ ، بحار الأنور: ٢٣٩/٩١، ٣٨٦

(يونس:﴿٥٧﴾) وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:﴿٨٩﴾) وقال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:﴿٨٢﴾) وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل:﴿٧٧﴾) وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:﴿١٠٧﴾).

والرحمن اسم خاص بالله تعالى، والرحيم عام فقد وصف النبي (صلى الله عليه وآله) به ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:﴿١٢٨﴾) ووصف به المؤمنون ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:﴿٢٩﴾).

ووردت روايات في الفرق بينهما ووجه الاتيان بهما بأن الرحمن اريد به سعة رحمته الفعلية لكل المخلوقات وكل البشر محسنهم ومسيئهم، وان الرحيم للدلالة على رحمته الخاصة بالمؤمنين او في الآخرة وروى في مجمع البيان عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (ان عيسى بن مريم قال: الرحمن رحمن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة)[1]، وفي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) (والله إله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة)[2] ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم هو إنشاؤه إياهم وإخراج الجميع من العدم الى الوجود وخلقهم احياء قادرين، ورزقه إياهم، ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين هو ما فعله بهم في الدنيا من التوفيق وفي الآخرة من الجنة والاكرام وغفران الذنوب والآثام، وإلى هذا المعنى يؤول ما روي عن الصادق (عليه السلام) انه قال

---

(١) مجمع البيان: ٥٤/١.

(٢) توحيد الصدوق: ٢٣٠/١، معاني الأخبار:٣/١، الكافي:١١٤/١.

(الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة)[١]، فالرحمن اسم خاص بالله تعالى لكنه يسع الجميع في عطائه وبركاته، والرحيم اسم عام يطلق على الله تعالى وغيره، الا انه خاص يتعلق بالمؤمنين، وقيل في معناه ان الرحمة الرحمانية هي التي تمنح لجميع المخلوقات على حد سواء كإفاضة الوجود، اما الرحمة الرحيمية فهي التي تمنح للموجودات خصوصياتها، ((وتلك الخصوصيات غير المتناهية المجعولة منه تبارك وتعالى مورد الرحمة الرحيمية، فكما ان في الانسان نوعاً خاصاً منه وهو المؤمن مورد رحمته الرحيمية، وكذلك يكون في المَلَك والفَلَك والجماد والنبات ايضاً.

وقد ذكرا في مفتتح القرآن العظيم للإعلام بأن القرآن من ابرز مظاهر رحمتيه تعالى، اما الرحمانية فلفرض وحيه وانزاله، واما الرحيمية فلانه تبارك وتعالى تجلى لعباده، فاظهر فيه المعارف الربوبية، وخلاصة الكتب السماوية، وزبدة حقائق التكوين والتشريع وربط به قلوب اوليائه))[٢] لكن ما ورد في الدعاء إنه تعالى (رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها)[٣] قد ينافي بعض الفروق المتقدمة، كما ان قوله تعالى ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) لا تدل على الاختصاص بهم لان الجملة ليس لها مفهوم ينفي الرحمة عن غير المؤمنين.

---

(١) تفسير جوامع الجامع -الشيخ الطبرسي: ٦/١، تفسير الثعلبي: ٩٩/١.

(٢) مواهب الرحمن: ٢٠/١.

(٣) نُقل عن الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء عرفة أصول الكافي: ٥٥٧/٢ ح ٦، وسائل الشيعة: ٤١/٨/ ح١٠٠٥٧، وفي الصحيفة السجادية: (١٧١) دعاؤه (عليه السلام) في استكشاف الهموم، نور الثقلين: ١٥/١/ ح٥٥ ، مستدرك الحاكم: ١٥٥/١.

ان البسملة خلاصة سورة الفاتحة التي هي أم القرآن وأصله ومجمع معارفه وعلومه التي هي المبدأ والمعاد ومسيرة التكامل إلى الله تعالى، فالبسملة عنوان الدين كله والرمز الذي يحفظ المنهج الإلهي لذا أكّد المعصومون (عليهم السلام) على ترديدها واستحضار معانيها في كل آنات الانسان وأفعاله فاذا أكل سمى واذا شرب سمّى واذا خرج سمى واذا رجع سمى واذا ذهب لقضاء حاجة سمى وهكذا في كل شيء لأنها علامة العبودية والطاعة لله تبارك وتعالى والإخلاص له وتعين المؤمن وتثبّته وتزيد من عزيمته على فعل الخير.

وقد ادرك شياطين الجن وفسقة الإنس عظمة هذه الآية فكانت ثقيلة عليهم، ففي الرواية المعتبرة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن ابليس رنَّ رنيناً ـ أي بكى بصياح ـ لما بعث الله نبيه على حين فترة من الرسل وحين نزلت أم الكتاب)[1] وروى علي بن إبراهيم بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (قال أبو عبدالله (عليه السلام): ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أحق ما جهر به وهي الآية التي قال الله عزوجل ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء:٤٦))[2].

ويظهر من الروايات أن الأمويين هم الذين أسّسوا لإزالة البسملة فقدّ ((أخرج الشافعي في الأم والدارقطني والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية أنه قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فناداه المهاجرون

(١) تفسير القمي: ٢٩/١.

(٢) تفسير القمي: ٢٩/١.

والأنصار حين سلّم يا معاوية أسرقت صلاتك؟ أين ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلما صلى بعد ذلك قرأها لأم القرآن وللسورة التي بعدها. وأخرج البيهقي عن الزهري: ان أول من أسرَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة))[1].

وقد عبَّر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) عن غضبهم لهذا الانحراف وأسفهم لتضييع الأمة هذه الكرامة في روايات عديدة كقول الإمام الباقر (عليه السلام) (سرقوا أكرم آية في كتاب الله:﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[2] وروي عن علي (عليه السلام) لما بلغه ان اناساً ينزعون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أنه قال (هي آية من كتاب الله أنساهم إياها الشيطان)[3] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (مالهم قاتلهم الله عمدوا الى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة اذا اظهروها وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾).

هذا هو محور الاختلاف بين المنهجين واساس الصراع بين الفريقين فنحن نريد أن نثبّت اسم الله تعالى في كل الوجود ويكون كل شي لله تبارك وتعالى ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال:٣٩) وهم يريدون محوه وان يأخذ الناس حريتهم في اتباع الشهوات وما تزيّنه الشياطين والفسقة لهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧).

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن:٨٠/١.

(٢) تفسير العياشي:١٩/١/ ح٤.

(٣) تفسير العياشي:٢١/١/ ح١٢.

ملحق

أمير المؤمنين: (عليه السلام) نقطة الباء في البسملة ومعركة التأويل

وروى الشعراني : عن الإمام علي (عليه السلام) أنّه كان يقول : لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً من معنى (الباء)[1].

وروى القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة) ما لفظه : وفي الدرّ المنظم: إعلم أنّ جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن ، وجميع ما في القرآن في الفاتحة ، وجميع ما في الفاتحة في البسملة ، وجميع ما في البسملة في باء البسملة ، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي تحت الباء ، قال الإمام علي كرّم اللّه وجهه : أنا النقطة التي تحت الباء.)[2].

أقول : (في) تدل على الظرفية والاحتواء فالحديث يدّل على ان في الفاتحة جميع مافي القرآن وزيادة، وان البسملة فيها جميع مافي الفاتحة وزيادة وهكذا، ولا شك ان مثل هذه الاحاديث لا تدركه عقولنا القاصرة

واعتبر بعض المفسرين هذا الكلام غير معقول ونوعا من الغلو[3]

ونقدّم الان وجها لفهم الحديث بعيداً عن التأويلات الفلسفية والعرفانية ننطلق اليه مما ورد في أن امير المؤمنين (عليه السلام) يقاتل على التأويل كما قاتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) على التنزيل كما في الحديث الآتي، أي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قاتل

---

(١) تفسير البصائر: ١/ ٢٤.

(٢) ينابيع المودة: ٦٨/١.

(٣) حكي عن تفسير المنار: ٣٥/١.

العرب حتى يذعنوا للرسالة ويؤمنوا بأصل التوحيد والنبوة وعلى صدق ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى دخلوا الإسلام طوعاً أو كرهاً.

أما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله) فقد بدأت معركة التأويل، وهي معركة ضد من أرادوا أن يحرّفوا الكلم من بعد مواضعه ويتكلموا في كتاب الله بغير سلطان أتاهم ويغيّروا السنن ويظهروا البدع، ويحرموا ما أحلّ الله ويحلّوا ما حرّم الله، ويبعدوا من قرّب الله ويقرّبوا من بعّد الله، ويولّوا أمور الأمة من يتّخذ مال الله دولاً وعباده خولاً ويحكم بغير ما أنزل الله تعالى وهم مع كل ذلك يدّعون الإسلام وينتسبون إليه.

وهذه المعركة كان يشير إليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حياته ويعلن أن قائدها سيكون علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهو حديث رواه العامة والخاصة عن طريق جمع غفير من الصحابة، ففي مستدرك الصحيحين، روى الحاكم بطريقين عن أبي سعيد قال (كنّا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانقطعت نعله، فتخلّف علي (عليه السلام) يخصفها فمشى قليلاً ثم قال: إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر، قال: أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل يعني علياً (عليه السلام)، فأتيناه فبشرناه فلم يرفع به رأسه كأنه قد كان سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال الحاكم: هذا حديث صحح على شرط الشيخين)[1].

---

(١) مستدرك الصحيحين: ١٢٢/٣، كتاب معرفة الصحابة، مناقب علي بن أبي طالب (ع)، وراجع لمعرفة مصادر الحديث في صحاح العامة وكتبهم: فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٤٢٥/٢- ٤٣١.

وقد نظمها الصحابي الجليل عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) في شعره الذي كان يرتجز به في معركة صفين التي استشهد فيها، فكان من رجزه:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله[1]

هذا الاستحقاق لأمير المؤمنين أعطى تفسيراً لقوله (عليه السلام) انه نقطة الباء التي جمعت فيها علوم القرآن ومعارفه وحاصل التفسير أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تكون قابلة للتأويل والتحريف والتلاعب والتزوير وافراغها من معانيها كما عبَّر (عليه السلام) عن القرآن بأنه (حمّال ذو وجوه)[2] الا أن يقوم العالم بالقرآن والعارف بأسراره ومعانيه بإيضاح الحقائق، ووضع النقاط على الحروف كما يقال لأن الحروف تتشابه في الهيئات كالباء والتاء والثاء والياء والنون، وإنما يميز بينها وضع النقطة على الحرف، فكما أن وضع النقطة هو الذي .. يعطي للحرف معناه، كذلك أمير المؤمنين هو الذي يبيّن حقائق التنزيل ويضع الأمور في نصابها ويرجع كل شيء إلى حقيقته وهو معنى التأويل.

ولولا ذلك الدور الذي قام به أمير المؤمنين (عليه السلام) لكانت تفاصيل العقائد والأحكام مجملة ومبهمة مما يفسح المجال واسعاً لأن يقوم كل أحد بتأويلها حسب مشتهياته وأهوائه، وهذا حال من لم يرجع إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ليعرف تأويل المتشابهات ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾ (آل عمران:٧).

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي: ٢٣٣/٢٢.

(٢) بحار الانوار: ٢٤٥/٢/ ح٥٦.

إن معركة التأويل هي المعركة الأصعب التي تزلّ فيها الأقدام وتضلّ فيها العقول لأن الخصوم يلبسون نفس الثوب أي ثوب الدين ويدّعون لأنفسهم نفس الهالة من العناوين والألقاب المقدّسة، وكلٌ يدّعي وصلاً بصاحب الرسالة والمشروع، ويضفي على حركته المشروعية ويستدل على أحقيته من نفس المصادر، فهناك تختلط الأوراق وتعصف الفتن وتكثر الشبهات.

وهذا الذي حصل بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مباشرة حينما انقلبوا على الأعقاب وكان أثمن قربان يقدَّم في تلك المعركة هي فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وعندما تولّى أمير المؤمنين (عليه السلام) الخلافة فنكث البيعة قوم لهم عناوين كبيرة وقريبو الصلة برسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثم قسط آخرون ومرق فريق ثالث ووقف على الحياد فريق رابع، لكن الصفوة الذين وعوا رسالة الإسلام واتبعوا تعاليم النبي (صلى الله عليه وآله) حقيقة كانوا ثابتين على الحق ولهم رؤية واضحة كعمار بن ياسر الذي كان يقاتل في صفين ويقول (والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنّهم على الباطل)[1].

هذه المعركة التي مزقت بأحزانها وآلامها قلب أمير المؤمنين (عليه السلام) وملأته قيحاً وجعلته يتمنى الموت ويجده حرياً وجديراً به.[2].

إن معركة التأويل ليست مختصة بزمان أمير المؤمنين (عليه السلام)، بل هي مفتوحة في كل زمان ومكان، روي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال (قال رسول الله

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ٤٢٣/٢ ترجمة عمار بن ياسر.

(٢) الكافي: ٤/٥ ح٦، نهج البلاغة:٦٧/١.

(صلى الله عليه وآله): يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير[1] خبث الحديد)[2].

وليس هذا فحسب بل انها تتعقد أكثر وتضيق حلقة البلاء وتشتد، فبعد أن كانت بين أئمة أهل البيت (عليهم السلام) واتباعهم من جهة وبين الحكام المنحرفين والسائرين في ركابهم واتباعهم من العامة من جهة أخرى، تطوّرت لتكون داخل مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بين من واصلوا إتّباعَ الأئمة (عليهم السلام) الاثني عشر واحداً بعد واحد وهم الإمامية وبين من انشق عنهم ليؤسس فرقاً عديدة، ثم ضاق البلاء واشتدّ الامتحان أكثر في الدائرة الأخيرة بين مستحق نيابة المعصوم (عليه السلام) وبين من يتقمصها ويدعيها بغير حق، وفي كل دائرة كان يفشل جمع كبير ويسقط في الامتحان وهذا مصداق حديث الإمام الباقر (هيهات هيهات، لا يكون فرجنا حتى تغربلوا ثم تغربلوا ثم تغربلوا، يقولها ثلاثاً حتى يذهب الله تعالى الكدر ويبقى الصفو)[3].

وحديث الإمام الكاظم (عليه السلام) لإبراهيم بن هلال (أما والله يا أبا إسحاق، ما يكون ذلك – أي الفرج بظهور الإمام (عليه السلام) –حتّى تُميّزوا وتُمحَّصوا، وحتى لا يبقى منكم إلاّ الأقل)[4].

وظاهر الرواية أن الخطاب موجّه فيها إلى الشيعة.

---

(١) وهو الزقّ الذي ينفخ فيه الحداد.

(٢) رجال الكشي- الطوسي: ١/١٠/ ح٥.

(٣) كتاب الغيبة للشيخ الطوسي (قده): ٢٠٦.

(٤) كتاب الغيبة للنعماني: ٢٠٨، باب١٢/ ح١٤.

ولأهمية هذه المعركة وخطورة آثارها وتداعياتها على الدين وعلى المجتمع فقد ورد التحذير الشديد من التقصير فيها، في كتاب المحاسن للبرقي بسنده عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) (قال: قال (عليه السلام) إن العالم الكاتم علمه يبعث أنتن أهل القيامة ريحاً تلعنه كل دابة حتى دواب الأرض الصغار)[1].

وفيه روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إذا ظهرت البدعة في أمتي فليظهر العالم علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله)[2].

وفي التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إذا كتم العالم العلم أهله، وزهد الجاهل في تعلم ما لابد منه، وبخل الغني بمعروفه، وباع الفقير دينه بدنيا غيره جلّ البلاء وعظم العقاب)[3] وهذا الحديث يلخّص لنا باختصار أسباب ما نحن فيه من البلاء والمحنة.

إن سلاح هذه المعركة هي المعرفة بالله تبارك وتعالى وطاعة رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وإتّباع المراجع العالمين المخلصين والتفقه في الدين والبصيرة في الأمور، والحكمة في التصرف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان الحقائق وتجلية المواقف، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإصلاح المناهج والسلوكيات المنحرفة.

فهي إذن ليست وظيفة مراجع الدين والعلماء والحوزة العلمية فقط، وإنما يقع على كل فرد في المجتمع جزء من المسؤولية بحسب موقعه ومؤهلاته وما يتوفر

---

(١) المحاسن: ٢٣١ باب ١٧/ ح ١٧٦، ١٧٧.

(٢) الكافي: ١ / ٥٤ / ٢.

(٣) تفسير الإمام العسكري (عليه السلام): ٤٠٣.

لديه من أدوات المواجهة التي ذكرناها كما يظهر من رواية تفسير العسكري (عليه السلام) المتقدّمة، فبعضهم بعلمه وآخر بماله وثالث بنفوذه ووجاهته، والجميع مطالبون بمشاركتهم في كل عمل وحركة لله تعالى فيها رضا وللأمة فيها صلاح، والله ولي التوفيق.

القبس /٢

سورة البقرة:﴿١٠٩﴾

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾

موضوع القبس: سبب عداء الكفار للمسلمين

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).

الوُدّ: الميل إلى الشيء ومحبته وتمني وقوعه والحصول عليه، فالتمني يتضمن معنى الود لأن التمني هو تشهّي حصول ما تودّه - قاله الراغب- وقيل في الفرق بين الحب والود أن الأول أشدّ وأصدق من الثاني فالآية الكريمة تخبر المؤمنين بحقيقة لا يمكنهم التعرف عليها الا بإخبار الله سبحانه، لأنها مرتبطة بمكنونات الضمير وما انعقد عليه القلب، وهي أن الأعداء يتمنون ويرغبون بشكل أكيد أن تتخلّوا عن إسلامكم وتعودوا إلى جاهليتكم بما تتضمن من كفر وشرك وفسق وفجور وانحراف وظلم وجور وانحطاط وتجرد عن الفطرة والمبادئ الإنسانية.

وقد أكّدت آيات أخر هذه الحقيقة لأهمية الالتفات إليها والحذر منها قال تعالى ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (آل عمران:٦٩)، وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء:٨٩) وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

(القلم:﴿٩﴾) وقال تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:﴿١٢٠﴾).

كما حذرت الآيات الكريمة من الانخداع بالعناوين البراقة التي يغلّفون بها مشروعهم هذا كالمدنية والانفتاح والتحرر والتقدم والتحضّر ونحو ذلك، وليس لهم هدف الا إبعادكم عن هذا الدين العظيم ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة:﴿٤٩﴾) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:﴿٢٧﴾)۞ وهكذا يفعل شياطين الإنس فأنهم يسعون لإخراج الناس من جنة الإيمان وينزعون عنهم لباس الورع والتقوى والعفاف والفضيلة، ويظهروا عورات الفسق والفجور والرذيلة والانحطاط والفساد، حتى وصل بهم الحال إلى سن قوانين للشذوذ الجنسي وزواج المثليّين وتغيير الجنس وقتل الأجنة.

ورغبتهم هذه ليست الا تمنّياً بعيد المنال عبّر عنه بـ ﴿لَوْ﴾ فهو وهم باطل يتخيّلونه، فأن الله تعالى قد تكفّل بحفظ هذا الدين وجماعة المؤمنين، وليس هذا التمني ناشئاً من جهلهم بالحق الذي أنتم عليه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل:﴿١٤﴾)، ولا عن تصديق واعتقاد بحقانية ما هم عليه، بل هم يعرفون أن الحق معكم ويتمنون أن يكونوا من أهله ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر:﴿٢﴾)، ولو كانوا مؤمنين وأهل كتاب حقاً لما ودّوا

رجوعكم إلى الجاهلية والشرك والكفر ولكانوا قريبين منكم لأنكم من أهل التوحيد، ولكنهم يفعلون ذلك حسداً من عند أنفسهم، وخوفاً على دنياهم التي حصلوا عليها ظلماً قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء:٥٤).

روي في أسباب النزول: أن حيي بن أخطب وأخاه أبا ياسر دخلا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قدم المدينة، فلما خرجا قيل لحيي: أهو نبي؟ فقال: هو هو، فقيل: ما له عندك، قال: العداوة والبغضاء إلى الموت، وهو الذي نقض العهد وأثار الحرب يوم الأحزاب[1].

والحاسد يعرف قيمة النعمة التي عند المحسود ولذلك فأنه يحسده ويتمنى أن تكون هذه النعمة له، قال تعالى ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر:٢) ولكنه لضعف ارادته وانصياعه لشهوته يعجز عن نيل تلك النعمة فيتمنى حرمان المحسود منها، قال تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة:١٠٥).

فسبب عدائهم لكم وسعيهم لتجريدكم من الإسلام لأنهم يعرفون الحق الذي أنتم عليه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ ويعلمون أي جوهرة ثمينة بأيديكم فيريدون سلبها منكم ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٥٤)، روي

---

(١) مجمع البيان: ١٨٠/١

في الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال (إن لنعم الله أعداء، قيل: وما أولئك؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)[1]، وأعظم هذه النعم هي الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام).

وهم بذلك يتبعون إبليس الذي حسد آدم (عليه السلام)، لثباته على طاعة ربّه بينما طُرد هو منها فلذلك أقسم على إغواء بنيه وإضلالهم ليتساووا معه في اللعن والطرد.

وهذا يفسّر لنا المساعي المحمومة التي يقوم بها شياطين الإنس من الفسقة والمنحرفين والملحدين وعبدة الشهوات للتأثير على الناس وإبعادهم عن الحق تحت مسميات عديدة، والا لو كانوا مجرد أنهم يتبنون عقيدة أو أيديولوجية ما فليعتقدوا ما يشاؤون ويتركوا الناس تعمل بقناعاتها، لكن حسدهم للحق وأهله لا يدعهم حتى يرجعوا الناس إلى الكفر.

وإنصافاً من القرآن الكريم فأنه لم يعمم إلى الجميع وإنما قال ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران:٦٩) لأن من هؤلاء من لا يسعى إلى التأثير على غيره، وربما يكون مسالماً للمؤمنين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ (المائدة:٨٢).

ثم تذكر الآية العلاج المرحلي لهذه الحالة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ باحتوائهم واستيعابهم، والتعرف على ما عندهم من شبهات وما يفكرون به، واعطائهم

---

(١) تفسير الفرقان: ١٥٠/٢ عن تفسير الفخر الرازي: ٦٤٥/٣، ط. دار إحياء التراث.

الفرصة الكافية ليثوبوا إلى رشدهم ويذعنوا للحق، فربما يكون هذا العفو والصفح وحسن الخلق في التعامل معهم سبباً لهداية بعضهم وهذا انتصار كبير.

لكن هذا العلاج مؤقت ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقد أمر الله تعالى بمدافعتهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١)، ومواجهتهم بمثل أساليبهم فتُفَنَّد حججُهم، وتُدحَض شبهاتهم وضلالاتهم، وتُكشَف معايبُهم وتُفضَح سرائرُهم، وتبيَّن خططهم، وتُحذَّر الأمةُ من مكائدهم، وتسدَّ الثغرات التي يحدثونها في المجتمع المسلم، وتصان عناصر القوة في الأمة وهي الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام)، والقضية المهدوية والمرجعية النائبة عن الإمام (عليه السلام)، ووحدة الأمة وعزتها وهويتها، والشعائر الدينية، والأسرة الصالحة، والعفاف وسائر الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، والثروة البشرية خصوصاً الشباب وغير ذلك، فلابد من عدم السماح بإضعاف هذه القوى أو تشويهها أو حرمان الناس منها وغير ذلك.

فالأعداء إذن لا يتوقفون عن الكيد لكم حتى يخضعوكم لسلطتهم ويذوّبوا هويتكم وثقافتكم وفق رؤيتهم مما يُعرف بالعولمة، ويستعبدوكم بعد تجريدكم عن أسلحتكم المادية والمعنوية التي ذكرنا بعضها آنفاً ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء:١٠٢)، فلهذه الآية معنى واسع يجب الالتفات إليه إذ عنوان الأسلحة شامل لكل العناوين التي ذكرناها وغيرها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حقيقة كبرى يجب على المؤمنين أن

يذعنوا لها ويسلّموا بها ويستحضروها، ليثبّتوا إيمانهم ويعزّزوا قدراتهم، ويحيوا آمالهم بالنصر والتمكين بإذن الله تعالى، وليعلموا ان الله تعالى قادر على أن ينصر المؤمنين وأن يبيد أعدائهم بأقرب من لمح البصر ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ولكن ارادته سبحانه شاءت أن تسير الأمور بأسبابها الطبيعية وبحسب استحقاقات الناس.

ورد في تفسير العسكري للآية ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ بما يوردونه عليكم من الشبهة ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ لكم بأن أكرمكم بمحمد وعلي وآلهما الطيبين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ المعجزات الدالات على صدق محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفضل علي (عليه السلام) وآلهما ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ عن جهلهم وقابلوهم بحجج الله وادفعوا بها باطلهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولقدرته على الأشياء قدَّر ما هو أصلح لكم في تعبّده إياكم من مداراتهم ومقابلتهم بالجدال بالتي هي أحسن)[1].

والخلاصة أن الآية الكريمة تدعو إلى الانتباه والحذر من الخطط الشيطانية للأعداء التي تستهدف إبعادكم عن الدين وان تتسلحوا بما يثبّت هذا الدين في قلوبكم وبما يمكنكم من مواجهة هذه الخطط ويحبطها بحول الله تعالى وقوته.

---

(١) تفسير الإمام العسكري (عليه السلام): ٥١٥.

القبس/٣

سورة البقرة:﴿١٢٥﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾

﴿البَيْتَ﴾ هو المسجد الحرام ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة:﴿١٢٥﴾) ويطلق على الكعبة الشريفة أيضاً ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة:﴿١٢٧﴾) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:﴿٩٦﴾) فهو إطلاق حقيقي، أو من باب إطلاق الكل على الجزء، أو من باب أن الكعبة هي منشأ تعظيم المسجد الحرام.

و﴿لِلنَّاسِ﴾ عام يشمل كل الناس، فجعلُ البيت الحرام مثابةً نعمةٌ عظمى منَّ الله تعالى بها على جميع الناس ليحصلوا على المكاسب التي سنشير إليها إن شاء الله تعالى.

والـ﴿مَثَابَةً﴾ مصدر ميمي وأصلها (مَثْوَبة) على وزن مفعلة وقلبت الواو ألفاً، وهو الرجوع، من ثاب يثوب إذا رجع، ويسمى المنزل مثابة لأن صاحبه يعود إليه كلما خرج لعمل أو قضاء حاجة، ويقال ثاب إليه عقله أو أنه ثاب إلى رشده، والثواب: الجزاء الذي يرجع على المحسن من إحسانه، وعلى المسيء من إساءته، قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:﴿٣٦﴾) قال في المفردات ((لكن الأكثر المتعارف في الخير))[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن- الأصفهاني: ١٨٠.

قال الخليل: ((المثابة: الذي يثوب إليه الناس، كالبيت جعله الله تعالى مثابة، أي مجتمعاً بعد التفرق، وإن لم يكونوا تفرقوا من هناك فقد كانوا متفرقين))[١].

وقال الأزهري: ((وإن فلان لمثابة، أي يأتيه الناس للرغبة، ويرجعون إليه مرة بعد أخرى وفي حديث أم سلمة أنها قالت لعائشة حين أرادت الخروج إلى البصرة: إن عمود الدين لا يثاب بالنساء إن مال، أي لا يعاد إلى استوائه ونقل عن ابن الإعرابي قوله: المثاب: طيّ الحجارة يثوب بعضها على بعض من أعلاه إلى أسفله، يقال لأساس البيت: مثابات))[٢].

وقال الجوهري: ((ثاب الناس: اجتمعوا وجاؤوا، وكذلك الماء إذا اجتمع في الحوض، ومثاب الحوض وسطه الذي يثوب إليه الماء إذا استفرغ، والهاء عوض عن الواو الذاهبة من عين الفعل، كما عوضوا في قولهم: أقام إقامة وأصله: إقواماً والمثابة: الموضع الذي يثاب إليه، أي يُرجَع إليه مرة بعد أخرى، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٢٥)))[٣].

وذكر الأخفش وجهاً آخر لإلحاق الهاء قال فيه: ((ألحقت الهاء في المثابة لما كثر من يثوب إليه كما يقول نسّابةً وسيارةً لمن يكثر ذلك منه))[٤] وكأنه للمبالغة.

---

(١) العين: ٨/ ٢٤٦.

(٢) تهذيب اللغة: ١٥/ ١٥٢.

(٣) الصحاح: ٩٤/١.

(٤) المعجم السابق: ٦٩٩/٨ عن معاني القرآن للأخفش: ٣٣٥/١.

قال الصاحب: ((الإثابة: الإصلاح والتقويم، ومنه قول أم سلمة لعائشة: إن عمود الدين لا يثاب بالنساء))[١].

قال الراغب: ((قوله عز وجل ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ قيل معناه مكاناً يكتب فيه الثواب))[٢].

ومن هذه الأقوال والأنظار المختلفة يمكن تحصيل عدة معانٍ لجعل البيت الحرام مثابة للناس:

١- الرجوع إليه كلما صدروا عنه قال في تفسير القمي: ((المثابة: العود إليه))[٣]، وروى الشيخ الطوسي عن أبن عباس قوله: (معناه أنه لا ينصرف عنه أحد وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً، فهم يعودون إليه وهذا مروي عن الإمام الباقر (عليه السلام))[٤].

وهنا يثار سؤال عن وجه نسبة الفعل إلى الله تعالى مع أن الرجوع من فعل العبد، وجوابه لأن الله تعالى أمر به وألزم بالحج إليه كل عام، وقد دلّت بعض الروايات على حرمة خلو البيت من الناسكين ويجب إلزام الناس بقصده، حيث روى الكليني والصدوق في الكافي والفقيه بالإسناد عن الإمام الباقر (عليه السلام) في البيت الحرام قال (لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا)[٥] ويصل الإلزام إلى حد

---

(١) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٦٩١/٨ تأليف وتحقيق مجمع البحوث الإسلامية عن المحيط في اللغة للصاحب: ١٨٨/١٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن- الأصفهاني: ٨٤.

(٣) تفسير القمي: ١/ ٥٩.

(٤) التبيان: ١/ ٤٥١.

(٥) وسائل الشيعة: ١ ٢١/١ أبواب وجوب الحج وشرائطه باب٤/ ح٣.

إجبار عدد يتحقق بهم النُسُك، فقد روى المشايخ الثلاثة بأسانيد صحيحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لو أنَّ الناس تركوا الحج لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين)[1] ووردت عدة روايات في استحباب نية العود وكراهة نية عدم الرجوع[2].

وهذا الجواب على مستوى التشريع ويمكن فهم المثابة بمعنى الرجوع على مستوى التكوين بأن الله تعالى ألقى في قلوب المؤمنين ولهاً لزيارة بيته المعظم يكون دافعاً لهم ليقصدوه مرة بعد أخرى وقد ورد هذا المعنى في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأنام، يردُونَه ورود الإنعام، ويألهون إليه ولوه الحَمَام)[3] مصداقاً لقوله تعالى ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:٣٧) الشاملة لديارهم ومحل نسكهم ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥)، روى المشايخ الثلاثة في أصولهم بالإسناد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث قال: (وإنما تؤتى مواضع آثارهم ويبلغوّنهم من بعيد السلام ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب)[4].

---

(١) الوسائل: ١١/ ٢٤/ ح٢.

(٢) الوسائل: ١١/١٥٠ باب٥٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة الأولى، يألهون إليه أي يلوذون به ويعكفون عليه.

(٤) وسائل الشيعة: ١٤/ ٣٢٣، عن الفقيه والكافي والتهذيب.

٢- إن المثابة من الرجوع أيضاً لكن بمعنى أنه محل رجوع الناس إلى الله تعالى وتوبتهم وتخلّصهم من ذنوبهم وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[1] (الذاريات:٥٠) أنه الحج، وروى في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال علي بن الحسين (عليه السلام): الحاج مغفور له، وموجوب له الجنة، ومستأنف له العمل، ومحفوظ في أهله وماله)[2] وفي موثقة أبن فضال عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (ما يقف أحد على تلك الجبال بر ولا فاجر إلا استجاب الله له، فأما البر فيستجاب له في آخرته ودنياه، وأما الفاجر فيستجاب له في دنياه)[3].

٣- ولا نغفل عن تأويل الآية الكريمة فإنها تعني الرجوع إلى أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) لما تقدم من أن رجل الذي يرجع إليه الناس ويترددون عليه يسمى مثابة، وقد أمر الخلق كلهم بالرجوع إلى أهل البيت (عليهم السلام) كما أمروا بالرجوع إلى القرآن في حديث الثقلين المشهور.

وقد ورد النص بهذا المعنى في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في احتجاجه على الخوارج... إلى أن قال: (ولو ترك الناس الحج لم يكن البيت ليكفر بتركهم إياه، ولكن كانوا يكفرون بتركهم أياه، لأن الله قد نصبه لكم علماً،

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات:٥٠) في تفسير من نور القرآن.

(٢) الكافي: ٤/ ٢٥٢/ ح١، وسائل الشيعة: ١١/ ٩/ باب١/ ح٧.

(٣) الكافي: ٤/ ٢٦٢/ ح٣٨، وسائل الشيعة: ١١/ ١٦٠/ باب٦٢.

وكذلك نصبني علماً حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ياعلي: أنت مني بمنزلة الكعبة تؤتى ولا تأتي)[١].

وقد دلت الروايات على أن من تمام الحج، زيارة مراقد النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) وملاقاة إمام الوقت والأخذ منه، روى الشيخ الصدوق بسند صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم)[٢].

ورى الكليني والصدوق عن أبي جعفر (عليه السلام) قوله: (أبدأوا بمكة وأختموا بنا)[٣].

وتقدّم في رواية سابقة أن الناس إذا تركوا زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) فإن من وظائف الوالي إجبارهم على ذلك والإنفاق من بيت المال لمؤونتهم.

٤- إن الله تعالى جعله محلاً لتحصيل الثواب والقرب من الله تعالى، ولا شك أن قصد البيت الحرام في الحج والعمرة من أعظم الطاعات، ففي صحيحة عمر بن يزيد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في الحج قال: (ما يعدله شيء، والدرهم في الحج أفضل من ألفي ألف فيما سواه في سبيل الله)[٤] وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) قال: (ودّ من في القبور لو أنَّ له حجة واحدة بالدنيا وما فيها)[٥].

---

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٣٢، عن الاحتجاج: ١٨٨.

(٢) وسائل الشيعة: ١٤/ ٣٢١/ ح١.

(٣) وسائل الشيعة: ١٤/ ٣٢١/ ح٢.

(٤) الوسائل: ١١/ ١١١/ باب٤٣/ ح٣.

(٥) الوسائل: ١١/١١٠ باب٤١/ ح١.

٥- أنه محل اجتماع الناس في الحج والعمرة بعد تفرقهم في البلدان وتعدد طوائفهم وأيديولوجياتهم، ولا شك أن من أهم أغراض الحج هو توحيد المسلمين وتلاقيهم وتحاورهم وتذويب خلافاتهم، وأن هذه الوحدة بين المسلمين تتحقق في الحج بنحو لا يرتقي إليه أي سبب آخر ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج:٢٨).

٦- على القول بأن المثابة بمعنى الأساس، فإن البيت الحرام هو أساس الدين وبه يحفظ التوحيد، وهذا المعنى صحيح، ولذا أحيط البيت الحرام بقدسية وتعظيم لأن به تحفظ بيضة الدين روى الكليني في الكافي والصدوق في الفقيه بالإسناد عن الصادق (عليه السلام) قال: (لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة)[1]، ولذلك تجد أعداء الإسلام المحمدي الأصيل من نفس المتسمين بالإسلام أو من خصومه يدأبون على انتهاك حرمته وتدنيس قدسيته والحط من كرامته لأنه الباب الذي يلجؤون منه للقضاء على الدين من لدن الأمويين بأفعالهم المنكرة[2] إلى يومنا هذا.

٧- إن المثابة من الإصلاح والتقويم وهذه إحدى وظائف البيت الحرام فإن المسلمين مهما ابتعدوا عن إسلامهم وغرّتهم الدنيا وشغلتهم، فإن الحج يرجعهم إلى الله تعالى ويصلحهم ويقِّوم سلوكهم، وإن البيت الحرام يوقظهم ويعيدهم إلى رشدهم، وينبههم من غفلتهم، ويثير فيهم الشعور بمسؤولياتهم أمام الله تعالى وأنفسهم والناس أجمعين.

---

(١) وسائل الشيعة: ٢١/١١ أبواب وجوب الحج وشرائطه باب٤/ ح٥.

(٢) كنشر الفسوق والمجون في أرجاء مكة وضرب المسجد الحرام بالمنجنيق وحرق الكعبة.

٨- أنه محل للاستقرار والسكينة والأمن كما أن ذلك يتحقق في المنزل الذي قلنا إنه يسمى مثابة، وقد صرحت الآية الكريمة بذلك ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة:١٢٥)، فإليه يلجأ الناس ليبددوا مخاوفهم ويعالجوا قلقهم وتحصيل مرادهم.

٩- إنه محل امتلائهم عزة وكرامة واستقائهم من معين الله تعالى الصافي، فإن الدعوة الإسلامية انطلقت من البيت الحرام وكان مهبط الوحي والتنزيل، وإليه يرجع الناس في كل ما يهمهم من أمر الدنيا والآخرة كما تقدم تطبيقه على الحوض، وهذا المعنى محرز وإن المسلم ليمتلئ نشوةً وشموخاً بمنظر الحج ومناسكه خصوصاً مع حضور إمامهم وحجة الله على الخلق أجمعين، حيث روى الشيخ الصدوق في إكمال الدين بسنده عن عبيد بن زراره، قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: يفقد الناس إمامهم فيشهد الموسم فيراهم ولا يرونه)[1] وروى مثله عن السفير الثاني محمد بن عثمان العمري (رضوان الله عليه) وفيه أنه (عليه السلام) يحضر في كل سنة.

١٠- إنه الجهة التي يرجعون إليها في صلواتهم ويستقبلونها في سائر عباداتهم وجوباً واستحباباً حتى في حال احتضارهم ودفنهم فإن التوجه إلى الكعبة حاضر في أحكامهم، كما يستحب هذا الاستقبال في شؤون حياتهم الأخرى.

---

(١) إكمال الدين: ٤٤/ ح٧.

القبس/٤

سورة البقرة:﴿١٤٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾

موضوع القبس: الوسطية و الاعتدال في الإسلام

من المفاهيم التي اُختطفت وحُرِّفت عن معناها الحقيقي (الوسطية) والاعتدال حيث أصبحت تعني - وفق الثقافة المستوردة - التخلي عن التعاليم الدينية التي تراها القوى المستكبرة متشددة لأنها تضّر بمصالحها وتكشف خططها الخبيثة الماكرة وتوقظ الشعوب، حتى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبرونها تشدّداً ومخالفة للحريات الشخصيّة بحسب زعمهم ونحو ذلك من الاصنام التي صنعوها وفرضوا على الناس عبادتها وتقديسها وقنّنوا لها القوانين وألبسوها ثياباً جذابة كالديموقراطية والحريات العامة وحقوق الانسان والدولة المدنية، ونحو ذلك، ليخدعوا بها الناس ويفرّغوا محتواهم العقائدي حتى يحوّلوهم إلى عبيد خانعين لهم منقادين لسياساتهم، مستفيدين من تطرف بعض الحركات والمجاميع المدعّية للإسلام والتي وصُفت بالإرهاب فحمّلوا هذه المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية اوزار الصراعات السياسيّة.

وقد انخدع بهذا جملة من الإسلاميّين ورجال الدين، فاقتنعوا بأن الدولة المدنية لابد أن تكون بعيدة عن الدين، وعلى القيادة الدينية أن لا تتدخل في السياسة ولا تُمارس وظيفتها في ارشاد الأمة وتوجيهها نحو الصلاح.

والوسطيّة مفهوم قرآني، وليس من ابتداعاتهم حتّى نأخذ مفهومه وحدوده

منهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا﴾ (البقرة:١٤٣) وقال تعالى في نفس المعنى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج:٧٨)، فاستحقاقها لمقام الشهادة على الناس تفرع على اجتبائها لتكون الأمة الوسط أي خير الأمم وأفضلها، حيث قال اهل اللغة: الوسط من كل شيء (افضله واعدله)[1]، وفي مجمع البيان (الوسط: العدل، وقيل الخير)[2].

ومنه يظهر الوجه في جعلهم شهداء على الناس لأنهم الأفضل من بين الأمم كما ان الأنبياء اصبحوا شهداء لأنهم الأفضل، فتتفرع الشهادة عن الأفضلية، كما تفرعت عن الاجتباء في آية سورة الحج المتقدمة.

والوسطية يمكن ان يكون لها أكثر من منشأ:

١- الوسطية بمعنى الأفضلية والخيرية ويتفرع عليها الوسطية في المرتبة بين النبي (صلى الله عليه وآله) وعامة الناس فالأمة الوسط لها مقام الشهادة على الناس كافة ويكون الرسول (صلى الله عليه وآله) عليهم شهيدا.

٢- الوسطية بمعنى التوسّط في الاعتقاد والسلوك بين الافراط والتفريط،

---

(١) كتاب العين - الخليل الفراهيدي:٢٧٩/٧.

(٢) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ٤١٦/١.

فليسوا هم غارقين في الماديات وملذات الجسد كاليهود والمشركين، ولا في الرهبانية التي تقفز على الواقع ولا تعترف بحاجات الجسد كالنصارى.

والجماعة التي تلتزم بالمعنى الثاني هي التي تستحق المرتبة المذكورة في المعنى الأول فلا منافاة بين المعنيين[1].

وعلى هذا فالأمة الوسط لا تشمل كل من ادعى الإسلام ظاهراً وإنما فئة خاصة من الأمة، وإنما أُضيف الوصف إلى كل الأمة لأنها ضمت هذه الفئة وأنها فيهم، كتفضيل بني إسرائيل على العالمين، بمعنى أن هذه الفضيلة فيهم ولا يلزم منه اتصاف كل واحد منهم بها.

روى العياشي في تفسيره عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣)، فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية، كلا لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم (عليه السلام) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠) وهم الأمة الوسطى وخير أمة أخرجت

---

(١) ذكر هذا الاشكال السيد الطباطبائي (قدس سره) قال: (إن كون الأمة وسطاً إنما يصحّح كونها مرجعاً يرجع إليه الطرفان، وميزاناً يوزن به الجانبان لا كونها شاهدة تشهد على الطرفين فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى والشهادة وهو ظاهر، إذ لا يترتب شهادة الرسول (صلى الله عليه وآله) على الأمة على جعل الأمة وسطاً، كما يترتب الغاية على المغيى والغرض على ذيه) الميزان- السيد الطبطبائي:٣١٥/١.

للناس)[١].

ويقف على رأس هذه الأمة الشاهدة أهل البيت (عليهم السلام) ففي عدة مصادر ومنها الكافي بسنده عن بريد العجلي قال: (سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزوجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فقال: نحن الأُمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه)[٢].

وفي حديث آخر: (الينا يرجع الغالي وبنا يرجع المقصِّر)[٣].

لأن الشهادة على شيءٍ تتطلب حضوراً عنده ومعاينة له فالشهادة على اعمال الناس لا تحصل الا للمعصومين (عليهم السلام).

ويمكن أن يتسع مفهوم الأُمة الوسط، لتشمل الدعاة إلى الله تبارك وتعالى، والعاملين الرساليين، الذين يجسدون تعاليم الإسلام في حياتهم.

اذا فهمنا الشهادة على الناس بمعنى الحجة وممارسة الرقابة والشهادة على إمكانية ان يكون الانسان مستقيماً ومتوازناً في حياته، وهم يؤدّون هذا الدور.

فيقال يوم القيامة لمن عصى وقصّر في فعل الطاعة واجتناب المعصية معتذراً بصعوبة ذلك على الانسان المملوء بالشهوات والغرائز، فيقال له ألم يكن فلان صالحاً وهو انسان مثلك فيكونون شهداء على الناس بهذا المعنى.

فالوسطية تعني فيما تعني التسليم لله تعالى والانقياد له والاستقامة على الدين

---

(١) تفسير العياشي: ١/ ٦٣ ح١١٤.

(٢) الكافي- الكليني:١٤٦/٢.

(٣) تحف العقول: ١١٦.

والاعتدال في المسيرة والعدل في الحكم والإحسان الى الناس ونبذ كل انحراف وزيغ وضلال ﴿إِنَّ اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠).

وبهذا نفهم ورود الآية في سياق الحديث عن تحويل قبلة المسلمين في المدينة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، ففي الآية التي سبقتها ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:١٤٢)، فكأن الأمر بالصلاة إلى بيت المقدس أولاً كان يستهدف سحق انانية العرب وعصبيتهم الجاهلية، وتحقيق معنى الطاعة والعبادة الخالصة لله تعالى وتحقيق معنى الأمة الوسط، فيما يصف الأُمم السابقة ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ (البقرة:١٤٥).

ان الأمة الوسط هي الأمة المتوازنة، فهم أهل الرأي الوسط الذي يجمع حسنات الآراء الأُخرى ويتجنب سلبياتها، وهم أمة وسط لأنهم عادلون منصفون يعطون لكل ذي حق حقه، سواء على مستوى التعامل مع أنفسهم أو الآخرين أو في حقوق الله تعالى أو حقوق الناس، ففي الدر المنثور بسنده عن جمع من الصحابة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن ﴿وسطاً﴾ تعني (عدلاً)[1].

وهم أهل الاعتدال والتوازن في قوانينهم فلا يحيفون على الفرد لحساب المجتمع - كالنظام الاشتراكي- ولا العكس كالرأسمالي، وهم متوازنون في علاقتهم فلا يذوبون في الآخرين ولا ينغلقون على أنفسهم وهكذا.

---

(١) الدر المنثور- جلال الدين السيوطي: ١٤٤/١- تفسير القرطبي- القرطبي: ١٥٣/٢.

وشاء الله تعالى أن يجعلها وسطاً في حسابات التاريخ والجغرافية أيضاً.

فعلى الأول: هي وسط بين عصور الجاهلية والتخلف وعصور الرشد والنضج على كل الأصعدة العلمية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

وعلى الثاني: تحل هذه الأمة وسط الأرض ومنها تمرّ خيرات الأرض وعطاء أهلها المادي والمعنوي من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب وبالعكس.

ومن هنا يتبيّن ان لا وسطية الا في الإسلام الأصيل، وليس في الثقافات المستوردة من المستكبرين، فلا وسطية وهم يتبعون شهواتهم واهواءهم وما تمليه عليهم شياطينهم، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾ (النساء:٢٧)، والميل خلاف الوسطية، فهم أبعد ما يكونون عنها.

ولكنهم يُريدون أن يبتزونا بهذا التحريف للمصطلحات لنتخلى عن هذه الجوهرة العظيمة _ أعني الإسلام_ ، بل الآية تؤكّد ان المسلمين هُم الأُمة الوسط - أي النموذج الأمثل والأفضل- التي يجب ان ترجع إليها الأمم الأخرى وتتبعها، وليس العكس.

فليثقوا بأنفسهم وبما عندهم، على ان لا يتكئوا على امجاد الماضي والتفاخر بمآثر الصالحين من دون عمل صالح يستحقون به هذا المقام.

دلالة الآية على وجود الامام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وحياته:

ومن الآيات القرآنية التي يُستدل بها على وجود الأمام المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) واستمرار حياته قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ

شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣)، وتوضيح الاستدلال يكون من خلال عدّة نقاط:

١- ان الآية الكريمة جعلت للأمة الوسط مقام الشهادة على الناس، أي يشهدون على أعمالهم عند الله تعالى.

٢- ان الناس جميعاً من الأولين والآخرين مشمولون بهذه الشهادة، ولا يستثنى أحد من الشهادة على اعماله، لعدم الفرق بين واحد وآخر وشمول الجميع بقانون الثواب والعقاب.

فلابد أن يكون واحد من الأمة الوسط موجوداً في كل زمان وفي كل جيل، ليؤدي الشهادة على الناس، ولا يخلو زمان من شاهد على الاعمال، لأنه يعني وجود أمة من الناس لا يُشهد على أعمالهم.

٣- الشهادة تتطلب حضوراً ومعاينة، ليشهد عن حس ووجدان وليس عن سماع أو إخبار من الآخرين أو تخمين أو ظن، وهو معنى الشهادة، ولا تتيّسر القدرة على معاينة كل اعمال الناس والاطلاع عليها الا للمعصومين (عليهم السلام)، وهو مفاد قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، فالأمة الوسط التي تشهد على اعمال الناس يوم القيامة هم الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

وقد دلّت الروايات على ذلك، كالحديث الذي رواه الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن بريد العجلي قال: (سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزوجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فقال:

نحن الأُمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه)[1].

فنتيجة هذه المقدمات وجود المعصوم (عليه السلام) في كل زمان، ليشهد على أعمال الناس، وليس هو في زماننا الا الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لعدم وجود غيره.

(١) الكافي - الكليني:١/ ١٤٦/ح ٢.

القبس/٥

سورة البقرة:﴿١٥٢﴾

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾

تشريف وتكريم من الخالق العظيم لعباده، بأن يقرن ذكره بذكرهم ويبادلهم الذكر، فيذكرهم اذا ذكروه، ومن دعاء للإمام السجاد (عليه السلام) (إلهِي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب:﴿٤٢﴾)، وَقُلْتَ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:﴿١٥٢﴾)، فَأَمَرْتَنا بِذِكْرِكَ، وَوَعَدْتَنا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنا تَشْرِيفاً لَنا وَتَفْخِيماً وَإِعْظاماً، وَها نَحْنُ ذاكِرُوكَ كَما أَمَرْتَنا، فَأَنْجِزْ لَنا مَا وَعَدْتَنا يا ذاكِرَ الذَّاكِرِينَ، وَيا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ)[1].

بينما لا يطمع الانسان في ان يذكره إنسان ضعيف عاجز مثله، وهو يعشقه ويصفّق له ويلهج باسمه ويلهث وراءه ويدافع عنه، وربما يُضحي من اجله، والآخر لا يعرفه، ولا يقيم له وزناً، فشتّان بين المعبودين!

والمُراد بذكر الله تعالى عبده اذا ذكره، منحه العطاء الخاص، وترتيب الأثر المناسب، والا فان الله تعالى لا يغفل عن عباده، ولا يهملهم، وهم يتقلبون بنعمه دوماً ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:﴿٤﴾).

وهذا العطاء الخاص له اشكال عديدة، ويتناسب مع نوع الذكر، لأن ذكره لله تعالى يجعله مؤهلاً لنزول البركات والمنن والعطايا، ففي حديث نبوي شريف في

---

(١) بحار الانوار- المجلسي: ١٥١/٩٤/ ح٢١.

تفسير الآية: (اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي، اذكركم بمغفرتي)[1]، والطاعة تشمل الواجب والمستحب، والمغفرة تشمل محو الذنوب المقترفة، أو عصمة العبد ووقايته من الوقوع في غيرها.

أو يذكره الله تعالى بالرحمة اذا ذكر ربّه بالطاعة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٢).

وفي حديث آخر عن النبي (صلى الله عليه وآله): (اذكروني بالطاعة والعبادة، اذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان)[2].

أو يذكر ربّه بالشكر، فيذكره بزيادة النعم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧).

او اذكروني بالدعاء لأذكركم بالإجابة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠).

او اذكروني في الدنيا، لأذكركم في الآخرة.

او اذكروني في عالمكم الصغير، لأذكركم في العالم الكبير، ونحو ذلك مما ورد في الاحاديث الشريفة.

ففي الحديث النبوي الشريف قال الله تعالى: (انا عند ظن عبدي بي، وانا معه اذا ذكرني، فان ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وان ذكرني في ملأ، ذكرته

---

(١) الدر المنثور- السيوطي: ١٤٨/١.

(٢) عدة الداعي- ابن فهد الحلي:٢٣٨- بحار الأنوار - المجلسي: ١٦٣/٩٠.

في ملأ خير منهم، وإن تقرّب اليّ شبراً، تقربتُ إليه ذراعاً)[١].

وفي الحديث الآخر عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (قال الله عز وجل ذكره: لا يذكرني أحد في نفسه، الا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ، الا ذكرته في الرفيق الأعلى)[٢].

ولذا يحظى ذكر الله تعالى بأهمية كبيرة، ومن الأسباب القوية لبلوغ الكمالات، وفي الحديث الشريف: (أحب الاعمال الى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله)[٣]، أي يكون الانسان في ذكر مستمر، حتى اذا فاجأه الموت، كان لسانه رطباً بذكر الله تعالى.

وفي حديث آخر عنه (صلى الله عليه وآله): (ليس يتحسّر أهل الجنة الا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها)[٤]، وروي عنهم (عليهم السلام): (إن في الجنة قيعاناً[٥]، فاذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار فربما وقف بعض

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري: ٢٩٨/٥. واخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الايمان. الدر المنثور - جلال الدين السيوطي: ١٤٩/١.

(٢) الدر المنثور- جلال الدين السيوطي: ١٤٩/١- كنز العمال- المتقي الهندي: ٤٣٢/١.

(٣) تفسير مجمع البيان- الطبرسي: ٣٠/٨- الجامع الصغير- جلال الدين السيوطي: ٣٦/١.

(٤) كنز العمال- المتقي الهندي: ٤٢٢/١.

(٥) القاع والقاعة والقيع: أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط، تنفرج عنها الجبال والآكام، ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر، وما حواليها أرفع منها وهو مصب المياه. لسان العرب - ابن منظور: ٣٠٤/٨.

الملائكة فيقال له: لم وقفت؟ فيقول: إن صاحبي قد فتر، يعني عن الذكر)[١].

وروى في عدة الداعي، ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج على أصحابه فقال: (ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما رياض الجنة، قال: مجالس الذكر اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحبُّ ان يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فان الله تعالى يُنزّل العبد حيث انزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم وأزكاها وارفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه، فإنه أخبر عن نفسه فقال: انا جليس من ذكرني)[٢].

وفيه ايضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (قال سبحانه: اذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فاذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حلت بينه وبين ان يسهو، اولئك اوليائي حقا، أولئك الابطال حقاً، أولئك الذين اذا اردت أن أهلك اهل الأرض عقوبةً ذويتها عنهم من أجل أولئك الابطال)[٣].

والأصل في الذكر حضور المعنى في القلب وتأثيره في الجوارح، وليس مجرد تحريك اللسان به، وإن كان هذا لا يخلو من ثمرة طيبة، لكن المطلوب حصول تلك المراتب، روى في كتاب المعاني عن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (الا أحدثك بأشد ما فرض الله تعالى على خلقه؟ قلت: بلى، قال: انصاف الناس من نفسك ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن، اما اني لا أقول،

---

(١) بحار الانوار- المجلسي: ٦٣/٩٣/ح٤٢.

(٢) عدة الداعي- ابن فهد الحلي: ٢٣٨- بحار الأنوار- المجلسي: ١٦٣/٩٠.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ١٦٢/٩٠.

سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، اذا هجمت[١] على طاعته او معصيته)[٢].

فتتخذ الموقف الذي يُرضي الله تعالى في كل تلك المواطن، وفي الحديث النبوي الشريف: (من اطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله، وان كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)[٣].

وهذا يبين لنا بوضوح المقياس الذي يُعرف به الذكر والذاكر وعدم الاكتفاء بالحركات الخارجية.

وعلى هذا فالذكر له مصاديق واسعة تشمل كل الطاعات، ومنها طلب العلم والحضور في مجالس الوعظ والإرشاد وحلقات العلم.

هذا الرصيد الضخم الذي يكتسبه الانسان بالذكر، يمكن ان يُفرّط به ويُضيّعه، بسبب ارتكابه بعض الحماقات، غفلة او انسياقاً وراء اهواء النفس، ففي الحديث الشريف: (من قال سبحان الله غرس الله له بها شجره في الجنة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجره في الجنة، ومن قال لا اله الا الله غرس الله له بها شجره في الجنة، ومن قال الله اكبر غرس الله له بها شجره في الجنة. فقال: رجل من قريش يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير. قال(صلى الله عليه وآله): نعم ولكن إياكم

---

(١) في بعض النسخ (هممت) والمناسب للطاعة كلمة (هممت) والمناسب للمعصية (هجمت). راجع هامش: الكافي – الشيخ الكليني: ١٤٥/٢– بحار الأنوار– العلامة المجلسي: ٣٥/٧٢.

(٢) معاني الأخبار– الشيخ الصدوق: ١٩٣/١.

(٣) الدر المنثور– جلال الدين السيوطي: ١٤٩/١.

أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك إن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٣))[١].

وهذه النيران يمكن أن تكون الغِيبة أو الحسد أو الظلم أو انتقاص وإهانة الآخرين، أو التقصير في القيام بعمل إنساني، كان قادراً عليه.

وعلى الانسان ان يتجنّب كُل ما يُلهيه عن ذكر الله تعالى ويشغله عنه من أمور الدنيا واتباع الشهوات والاهواء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون:٩).

وهو ما يبتغيه شياطين الانس والجن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة:٩١)، فيقع الانسان في الغفلة الموجبة للبعد عن الله تعالى والوقوع في المعاصي، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (ليس في المعاصي أشدُّ من اتباع الشهوة فلا تُطيعوها فتشغلكم عن الله)[٢]، وعنه (عليه السلام) قال: (كل ما الهى عن ذكر الله فهو من ابليس)[٣].

وينبغي الالتفات إلى ان هذه الملازمة بين ذكر الله تعالى وذكر العبد

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٩٣/ ١٦٨/ح٣.

(٢) غرر الحكم:٧٥٢٠- مستدرك الوسائل- الميرزا النوري: ٣٤٧/١١.

(٣) ميزان الحكمة: ٣٥٦/٣، عن تنبيه الخواطر: ١٧٠/٢- وفي لفظ أخر: (كلما ألهى عن ذكر الله فهو من الميسر). أمالي الطوسي:٣٤٦/١- بحار الأنوار- المجلسي: ١٥٧/٧٠.

قد تكون سلاحاً ذا حديّن، فتكون العقوبة على من يعصي الله تعالى وهو ملتفت وذاكر مضاعفة، ففي الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (فمن ذكرني وهو مطيع فحقَّ عليّ أن اذكره بمغفرتي، ومن ذكرني وهو لي عاصٍ فحقَّ عليّ ان أذكره بمقت)[1].

وفي نفس المصدر: (عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى داود قُل للظلمة لا يذكروني، فإن حقاً عليَّ أذكر من ذكرني، وأن ذكري إيّاهم أن ألعنهم)[2].

(١) الدر المنثور- جلال الدين السيوطي: ٣٦٠/١.

(٢) الدر المنثور- جلال الدين السيوطي: ١٤٩/١.

القبس/٦

سورة البقرة:﴿١٦٧﴾

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾

موضوع القبس: لنحذر الحسرة يوم القيامة

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:﴿١٦٧﴾).

تصوِّر الآية مشهداً من مشاهد القيامة حيث يتبرأ الزعماء والرؤساء والقادة والمتبوعون عموماً من اتباعهم ويتنصّلون عما سبّبوه لهم من ضلال وانحراف وفساد، والتضحية من أجلهم بالأموال والأنفس وتنفيذ قراراتهم الحمقاء، فيتمنى الأتباع لو يرجعون الى الدنيا ليتبرأوا من هؤلاء الزعماء بعد أن انكشف لهم خداعهم ومكرهم والسراب الذي توهمّوه ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ (البقرة:﴿١٦٧﴾) وفي آية أخرى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف:﴿٣٨﴾) وهي أماني لا تتحقق اذ لا رجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما سلف منهم كما أخبر تعالى في نهاية الآية ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:﴿١٦٧﴾)، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:﴿٩٩﴾-﴿١٠٠﴾) وهم ليسوا صادقين أصلاً حتى في

تمنيهم هذا وقد أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام:٢٨) فهم لا يتعظون ولا بصيرة لهم تهديهم إلى الطريق الصحيح.

فتصف الآية الكريمة حالهم بأنهم ستنكشف لهم حقيقة أعمالهم وسيرونها حسرات وقد ذكر تعالى أمثلة لهذه الحسرات في آيات أُخر ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٢٧) ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ (الفرقان:٢٨-٢٩) ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (الأنفال:٣٦) حتى كان من أسماء يوم القيامة يوم الحسرة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩).

والحسرة ـ في فهم العرف بغضّ النظر عن أصلها اللغوي ـ أشد مراتب الندامة والأسف المصحوبة بغم شديد على ما مضى وفات من أفعال سيئة ارتكبوها، أو أعمال خير تركوها وقصّروا فيها وأوهام زائفة تعلّقوا بها وفرص للطاعة لم يغتنموها.

ومفتاح كل ذلك اتباع زعامات وقيادات على خلاف ما أمر الله تعالى به وهم الذين وصفتهم الآية السابقة عليها بالأنداد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥) سواء اتخذوهم على مستوى التأليه والربوبية أم على مستوى الحب والاتباع والطاعة، روى العياشي في تفسيره عن جابر عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال (والله يا جابر، هم أئمة الظلم وأشياعهم)[1]، ثم انكشف لهم يوم القيامة أن اتباعهم لهؤلاء

(١) تفسير العياشي: ٧٢/١ ح ١٤٢، البرهان: ٣٠/٢ ح ٣.

الناشئ من حبهم لهم وطلب تحصيل القوة والعزة منهم هو في حقيقته حسرة وندامة مؤلمة، وسيندمون أشد الندم على جعل أنفسهم وأموالهم وكرامتهم والأهم من ذلك آخرتهم بيد هؤلاء المتبوعين، وورد في الحديث الشريف (ان أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره)[1] حيث ساهموا بشكل وآخر في تقوية طغيان وظلم زعمائهم.

وتزداد حسرتهم حينما يرون ما أعدَّ الله تعالى من الجزاء الحسن لمن اغتنم عمره ووجوده في الدنيا لاكتساب الصالحات، فقد تكون الحسرة لأنه اختار طريق الضلال والفساد بدل الهداية والصلاح، أو لأنه حصل على درجات دانية وحُرم من الدرجات العليا ومرافقة أولياء الله تعالى.

ويظهر من الآية أن هؤلاء الناس كانوا قادرين على أن يكونوا أخياراً وفي حال أفضل مهما ادّعوا من عدم استطاعتهم ذلك، أو قدّموا من أعذار ومبررات ولذا أصابتهم الحسرة ولو كان الذي حصل منهم خارجاً عن اختيارهم وفوق استطاعتهم لما صحّ التحسر عليه كأي فعل يستحيل عليه القيام به، فالإنسان لا يتحسر لأنه لم يستطيع القفز ليكون على سطح القمر مثلاً.

وتذكر الروايات أمثلة لما يوجب الحسرة يوم القيامة، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قَالَ: (هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ الْمَالَ لاَ يُنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلاً، ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَآهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ، فَزَادَهُ حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ، وَإِنْ

(١) كنز العمال: ج ٣ / ص ٥١٠ / ح ٧٦٦٠.

عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَّاهُ بِذَلِكَ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ)[١]، وروى الشيخ المفيد في أماليه بسنده عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال: (الرَّجُلُ يَكْسِبُ مَالاً فَيُحْرَمُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ خَيْراً فَيَمُوتُ، فَيَرِثُهُ غَيْرُهُ، فَيَعْمَلُ فِيهِ عَمَلاً صَالِحاً، فَيَرَى الرَّجُلُ مَا كَسَبَ حَسَنَاتٍ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ)[٢]، وأشدُّ منهم حسرة من ذكره أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة ودخل الأول به النار)[٣].

وهذه الأمثلة لما يوجب الحسرة ولا تنحصر بها والا فإن كل تقصير في حق الله تعالى بترك طاعة أو ارتكاب معصية يوجب الحسرة، قال تعالى ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر:٥٦).

ونسبة الفعل الى الله تعالى في ﴿يُرِيهِمُ﴾ لأنه تعالى يكشف لهم هذه الحقائق، ولأنه تعالى المسبب الحقيقي وهو لا ينافي الأسباب الظاهرية باعتبار أنهم بأعمالهم أوجبوا هذه الحسرات عليهم.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٢/٤/ ح٢، ط. الاسلامية.

(٢) الأمالي- الشيخ المفيد: ٢٠٥/ ح٣٥.

(٣) نهج البلاغة/ الحكمة:٤٢٩.

تجسّم الاعمال في القيامة:

والآية واحدة من آيات كثيرة تدل على أن أعمال الانسان تبدو على حقيقتها يوم القيامة، وهذه الحقائق التي هي الصور الواقعية لأعمالهم تكون جزاءاً لهم على أعمالهم الحسنة أو السيئة وليس الجزاء شيئاً آخر يعدَّه الله تعالى غير أعمالهم، قال تعالى ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٩٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران:٣٠) ويومئذ يجد الذي يأكل أموال اليتامى ظلما وعدوانا ويتبجح بازدياد أمواله من الحرام أنه في الحقيقة يدخل نارا في جوفه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:١٠) فدخول النار في جوفه ليس جزاءً على عمله بل هو نفس عمله وهكذا يجد الزانيان حقيقة عملهما بالصورة التي وصفها الحديث النبوي الشريف (انفجر من فرجهما من صديد وادٍ مسيرة خمسمائة عام يتأذى أهل النار من نتن ريحهما وكانا من أشدِّ الناس عذاباً)[1] ويجد متعاطي الغيبة حالته التي وصفتها الآية الكريمة بأن ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات:١٢) وقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الصورة حقيقة في فم بعض أزواجه وخاطبها بالقول (الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم)[2] لكنهم لغفلتهم وانشغالهم باللهو واللعب والعبث وأنسهم بالدنيا لا يلتفتون الى ذلك، كمن يكون منشدّاً الى أمر ما فلا يدري ما يحصل له

---

(١) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧٦ ح ٣٠.

(٢) وما روي عن عائشة قالت: إني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إن هذه لطويلة الذيل. فقال لي: الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٤.

من جرح وألم فلا يعي ما حصل له حتى يصحو من ذهوله، كصويحبات يوسف الصديق فإنهن قطعن أيديهن بالسكاكين من فرط دهشتهنّ بجمال يوسف (عليه السلام) من دون أن يلتفتن أو يشعرن بالألم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦) وقوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨) إشارة إلى أن هؤلاء هم بأنفسهم نار وليست النار شيئاً آخر أعدّت جزاءاً لأعمالهم.

نقل المرحوم العلامة الأميني (قدس سره) في سفره القيم (الغدير) ان الحافظ العاصمي أخرج في كتابه (زين الفتى في شرح سورة هل أتى) (أن رجلاً أتى عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين وبيده جمجمة إنسان ميت فقال: إنكم تزعمون النار يعرض على هذا وإنه يعذب في القبر وأنا قد وضعت عليها يدي فلا أحس منها حرارة النار. فسكت عنه عثمان وأرسل إلى علي بن أبي طالب المرتضى يستحضره، فلما أتاه وهو في ملأ من أصحابه قال للرجل: أعد المسألة. فأعادها، ثم قال عثمان بن عفان: أجب الرجل عنها يا أبا الحسن! فقال علي: ايتوني بزند وحجر. والرجل السائل والناس ينظرون إليه فأتي بهما فأخذهما وقدح منهما النار، ثم قال للرجل: ضع يدك على الحجر. فوضعها عليه ثم قال: ضع يدك على الزند. فوضعها عليه فقال: هل أحسست منهما حرارة النار فبهت الرجل فقال عثمان: لولا علي لهلك عثمان)[1].

---

(١) الغدير: ٢١٤/٨.

فالنار موجودة في باطن الحجر لكننا غير عارفين بالحقيقة ولا نحسّها بوجداننا لأننا محجوبون في هذه الدنيا عن الحقائق، وهكذا فأن مبدأ وأساس النار التي تغلي هو باطن العصاة.

قال الشيخ البهائي (قدس سره) بعد ان ذكر ان الروايات متكثرة في تجسّم الأعمال وظهورها على حقيقتها يوم القيامة (قال بعض أصحاب القلوب: ان الحيات والعقارب بل والنيران التي تظهر في القيامة هي بعينها الأعمال القبيحة و الأخلاق الذميمة و العقائد الباطلة التي ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة و تجلببت بهذه الجلابيب، كما أنّ الرَوْح و الريحان و الحور و الثمار هي الأخلاق الزكية و الأعمال الصالحة و الاعتقادات الحقّة التي برزت في هذا العالم بهذا الزيّ و تسمّت بهذا الاسم، إذ الحقيقة الواحدة تختلف صورها باختلاف المواطن، فتتجلّى في كلّ موطن بحلية و تتزيّى في كلّ نشأة بزيّ)[1].

فالمعاصي التي كانت تبدو في الدنيا جميلة جاذبة وفيها لذة ومتعة تظهر صورها على حقيقتها المؤذية المؤلمة المتشكلة على أساس نية صاحبها (انما الأعمال بالنيات)[2]، وقد يكون عمل واحد نوراً لشخص وناراً لآخر كإنفاق المال اذا كان في سبيل الله فهو نور ورحمة أو كان رياءاً أو للصدّ عن سبيل الله تعالى فهو نار وعذاب، والفرق هو في نية العمل وليس في نفس المال فأنه يتقلب في أيدي الناس بين هذا وذاك، وفي الحديث الشريف (إن الله عزوجل يحشر الناس

---

(١) الأربعون حديثاً للشيخ البهائي: ٤٩٣.

(٢) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ٤٨/١.

على نياتهم)[١] وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (إنما هي أعمالكم تردُّ إليكم)[٢].

وتظهر بعض الحقائق أحياناً في الدنيا قبل الآخرة فشرب الخمر قد يبدو فيه لذة وراحة لشاربه الا أنه سرعان ما يكتشف أنه أدخل الى جوفه سماً فتاكاً يخرّب بدنه ويتلف أعضاءه ويذهب عقله، والجاهل يغريه منظر النار والنور المنبعث منها فيندفع للعبث بها الا أنه سرعان ما يكتشف احراقها.

وقد ورد هذا المعنى في الأحاديث الشريفة فإن المعاصي تكون مقرونة بالشهوات واللذائذ، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (وما من معصية الله شيء الا ويأتي في شهوة) لكنه (عليه السلام) قال (إنّ النار حُفّت بالشهوات)[٣] أي ان هذه الشهوات التي ظاهرها المتعة واللذة والانس هي نار في حقيقتها وباطنها لكنها مغلّفة ومحجوبة بالشهوات، كالسم المخلوط بالعسل فأنه لا يغيّر من حقيقته شيئاً، وهذا ما يشعر به من مارس الشهوات المحرمة وما أن ينتهي منها حتى يجد ألمها وعذابها في باطنه بشكل لا يطاق وقد يدفع بعضهم الى الانتحار، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف الدنيا (مَثَلُ الدنيا مثل الحيّة لين مسّها قاتل سمُّها)[٤] فهي ظاهراً ناعمة الملمس تغري الجاهل بالاقتراب منها واللعب بها لكن باطنها السم القاتل، وهكذا المعاصي قال تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد:١٥)، وتوجد أبحاث مفصّلة في مسألة تجسّم الأعمال لسنا بصدد عرضها.

---

(١) الكافي:٥/٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ٣/٩٠.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٦٨.

وما نريد أن نستفيده هنا أمران:

١- اغتنام كل فرصة للطاعة وعدم اضاعتها فان (إضاعة الفرصة غصّة)[١] وحسرة، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره)[٢] وعنه (عليه السلام) قال (إن الحسرة والندامة والويل كلَّه لمن لم ينتفع بما أبصره ومن لم يدرِ ما الأمر الذي هو عليه مقيم: أنفعُ له أم ضرّ)[٣]، وأن لا نستصغر أي خطيئة (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت)[٤] ولا تقلّل من شأن أي طاعة، وأعظمها بركة الإحسان إلى الاخوان، والأحاديث في ذلك كثيرة منها قول الإمام السجاد (عليه السلام) (معاشر شيعتنا اما الجنة فلا تفوتكم سريعاً كان أو بطيئاً ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلموا أن أرفعكم درجات وأحسنكم قصوراً ودوراً وأبنية أحسنكم فيها إيجاباً لإخوانه المؤمنين، وأكثرهم مواساة لفقرائهم، إن الله عز وجل ليقرب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسير مائة ألف عام في سنة بقدمه وإن كان من المعذبين بالنار فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم الله تعالى حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره)[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٢٨./ حكمة (١١٨).

(٢) أمالي الطوسي: ٦٦٣/ ح ١٣٨٦.

(٣) الكافي: ٤١٩/٢ ح١.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٤ / ص ٧٧.

(٥) تفسير العسكري (عليه السلام): ٢٠٤/ ح٩٤.

واذكر هنا مثالاً على بركة هذا الإحسان وإن كان ضئيلاً، وهو ما رواه شخص أنه كان يقود دراجة وتوقف عند علامة المرور وإلى جانبه سيارة يطلّ طفل من نافذتها ومعه أبوه وأمه قال: وفي هذه الثواني لاطفت الطفل ببعض الحركات التي أضحكته قبل أن نتحرك ثم علمت أن الأب والأم كانا على خلاف شديد وهما ذاهبان لإيقاع الطلاق ولما ضحك الطفل أعاد لهما مشاعر الأبوة والأمومة وحرص كل منهما على سعادة الطفل وعدم ضياعه اذا انفصلا فعدلا عن الطلاق وعاشا بسعادة ووئام واعيد بناء أسرة من جديد ببركة تلك الثواني وانتقلت الحالة من (ما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة، يعني الطلاق)[1] إلى (ما بني بناء في الإسلام أحبُّ إلى الله من التزويج)[2].

٢- علينا أن نعيش الحسرة والندامة في هذه الدنيا على كل ما فاتنا من خير وما وقعنا فيه من سوء وعلى كل ما صدر من قصور وتقصير ليدفعنا ذلك إلى التدارك والإصلاح ما دامت فرصتهما موجودة في هذه الدنيا هذا التحسّر والألم الذي تطفح به أدعية أهل البيت (عليهم السلام) ومناجاتهم عند الانتهاء من المواسم العبادية كشهر رمضان والحج رغم أنهم استثمروها بأعلى أشكالها، وهو ما يشعر به المؤمنون الموالون أيضاً عند الانتهاء من خدمة زوار الإمام الحسين (عليه السلام) في الأربعينية وغيرها من المناسبات الدينية فيبكون متأسفين رغم ما قدموه من خدمات جليلة.

هذا التحسر والتأسف في الدنيا مثمر ومنتج أما عدم الإحساس به وتأخيره

---

(١) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ج٢٠/ ص١٦

(٢) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ج٢٠/ ص١٤.

فأنه يعني استحالة الحصول على فائدة منه بعد الموت كما نطقت به الآية محل البحث وحكى الله تعالى عنهم ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠).

القبس/٧

سورة البقرة:﴿١٧٧﴾

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ[1] أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾

موضوع القبس: افهم حقائق الأمور جيّداً

(البر والعلم والعبادة أمثلة)

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْـبِرَّ مَـنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّـهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَـامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِـينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:﴿١٧٧﴾).

﴿الْبِرَّ﴾ قرئت بالنصب وهي القراءة المثبّتة في المصحف المتداول، وحقها الرفع ظاهراً لأنها اسم ليس، ووجه النصب أن ﴿الْـبِرَّ﴾ خبر مقدَّم ويكون اسم ﴿لَّيْسَ﴾ الجملة التي تليها وهذا معروف في باب كان وأخواتها إذا كان أحد معموليها مركّباً من أن المصدرية وفعلها، لذا قالوا بجواز الوجهين، وقد تقتضي

---

(١) مثبّتة بالفتح في المصحف المتداول وهي قراءة حمزة وحفص عن عاصم وحكي في وجهها انه خبر ليس مقدم على إسمها، قال في مجمع البحرين: (وهو ضعيف بجعل الاسم جملة). وقرأها الأكثر بالضمّ على القاعدة مثل نافع وابن كثير وابي عمر و ابن عامر والكسائي وغيرهم وهو المروي عن ابن مسعود وابي. راجع معجم القراءات القرآنية: ١٣٧/١.

البلاغة التقديم والتأخير مع الحفاظ على تأدية المعنى المطلوب وهو حاصل على كلا الوجهين.

نعم إذا اقترنت الجملة بالباء فيتعين أن تكون خبراً كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ (البقرة:١٨٩).

والذي اوجب تعدد القراءات أنَّ القرآن حينما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله) ودوّنه بعض الصحابة كان خالياً من النقاط ومن الحركات مما فتح المجال واسعاً أمام اجتهادات القرّاء والرواة، وحصل اختلاف في القراءات حتى بلغت سبعاً أو عشراً وربما أكثر من ذلك، فالقراءة بالنصب هي المروية عن حمزة وحفص عن عاصم، وقرأها الأكثر بالرفع على القاعدة مثل نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر والكسائي وغيرهم، وهو المروي عن ابن مسعود وأُبيّ[1]، فهذه القراءة من اجتهادات القرّاء ولا يُعلم أنها من التنزيل، وقد جاءت الرخصة عن المعصومين (عليهم السلام) بجواز القراءة بما كان يرويه القرّاء في زمانهم (عليهم السلام)، قال الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): (اقرأ كما يقرأ الناس) (اقرأوا كما عُلّمتم)[2].

والاية الكريمة تبرز واحدة من آليات القرآن الكريم ومنهجه في الهداية والإصلاح ونستطيع ان نسميها تصحيح المفاهيم والأفكار المغلوطة، وذلك لأن كثيراً من الأعمال والسلوكيات يقوم بها أصحابها نتيجة لقناعة بنيت على فهم خاطئ لفكرة معينة، ولو صحح المفهوم في أذهانهم لغيّروا طريقة حياتهم، لاحظ

---

(١) معجم القراءات القرآنية: ١/ ١٣٧.

(٢) الكافي: ٢/ ٦٣١/ ح١٥، ح٢٣، من باب النوادر من كتاب فضل القرآن.

مثلاً عنوان (الجهاد) الذي هو عنوان مقدس وعظيم كيف حولّه التكفيريون الى أداة لقتل الأبرياء وانتهاك المقدسات وارتكبت باسمه أبشع الجرائم الشنيعة.

وخذ مثالاً آخر مقولة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فقد جعلها بعض الناس سبباً للعصبية الجاهلية والانحياز إلى أهله وعشيرته أو حزبه وإن كانوا ظالمين معتدين، وهذا خلاف المبادئ الإسلامية الثابتة، فأن الراضي بالظلم فضلاً عن ناصره شريك للظالم في الاثم، فلما قالها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأصحابه تعجبوا فقيل: (يا رسول اللّه، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً! قال: تمنعه من الظلم)[1].

فيكون حينئذٍ جزء كبير من معالجة المشاكل وحلّ الأزمات مبنياً على تصحيح هذه المفاهيم وإزالة الخلط والغموض، لما سُئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عن قتال الخوارج مع مَن بعده، قال (عليه السلام): (لا تقاتلوا الخوارج بعدي فإن من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه)[2].

يقصد بالأول الخوارج وبالثاني من قاتلوه في صفين، أي أن الخوارج ممن اختلطت عليهم الأوراق فظنوا أن ما يفعلونه حقٌّ فلا يجوز قتالهم إلا مع إمام الحق، أما البغاة عليه في صفين فيعرفون بطلان ما هم عليه.

فمن مسؤولية القادة والعلماء والمفكرين وصنّاع الرأي وثقافة الأمة أن يتصدوا لبيان المعاني الصحيحة للمصطلحات وإزالة الغبار عنها، لئلا تستخدم في عكس معانيها.

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ٢١٢.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده: ١/ ١٠٨، الخطبة (٦١).

وهذه الآية تقوم بهذا الدور وتبيّن مفردة مُهمّة في الحياة أعني ﴿الْبِرَّ﴾ الذي يُعرّف بأنه: (الاتساع والزيادة في فعل الخير)[1]، ومن الأسماء الحسنى ﴿الْبِرَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور:٢٨) لأنه واسع الخير والعطاء، ولذا سميت الصحراء بالبرية لاتساعها.

وقد ورد في الروايات أن الآية نزلت للتعريض بفعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانوا يسخرون من المسلمين عندما أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بتحويل القبلة عند الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة المشّرفة، وأصبح للمسلمين هوية خاصة بعد أن كان أولئك يفتخرون عليهم بأن المسلمين تابعون لهم لأنهم يصلّون إلى قبلتهم وكان النبي (صلى الله عليه وآله) يتوق إلى أن تكون الصلاة إلى الكعبة بعد الهجرة إلى المدينة ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٤٤)، فأفقدهم تغيير القبلة هذا الادعاء، فأخذوا يشككون في صحة فعل المسلمين سابقاً أو لاحقاً.

وكانت هذه حلقة من سلسلة طويلة من المواجهة مع أعداء الإسلام، وقد نزلت عدة آيات للرد عليهم، منها قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ المشرق والمغرب﴾ (البقرة:١٤٢)، ومنها الآية التي نحن بصددها.

---

(١) مجمع البحرين- الشيخ الطريحي: ١٨٤/١- تاج العروس- الزبيدي: ٦٩/٦.

فالآية تقول: أن البر ليس أمراً شكلياً وحركة جسدية تتمظهر بالتوجه إلى هذه الجهة أو تلك فقط وفقط حتى يُركّز عليها الخصوم ويعتبروها المقياس لمعرفة الحق، بينما القلوب خاوية من الإيمان الحقيقي، والنفوس مجرّدة من الورع والتقوى، ولكن البر له حقيقة وراء هذه الشكليات تتكون من منظومة متكاملة من الاعتقادات والأخلاق والأفعال فذكرت الآية أصول العقيدة وهي الإيمان بالمبدأ والمعاد، والملائكة والأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، وتضمّنت أصول الأعمال الصالحة وهي إيتاء المال وإقامة الصلاة، ثم عزّزتها بأصول مكارم الأخلاق وهي الوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس.

وفي الحقيقة فإن الآية شرحت معنى الإيمان المتكامل نظريّاً وعمليّاً، عبّرت عنه بالبر، وفي كتاب الدر المنثور بسنده عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الإيمان فتلا عليه الآية فأعاد السؤال فتلاها ثانية وهكذا ثالثة[1]، وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان)[2].

هكذا يجب أن نُقيّم عباداتنا وسائر أعمالنا على أساس حقائقها وأغراضها وليس أشكالها وحركاتها البدنية التي لا تستحق شيئاً يُذكر، إذا خلت من المضمون، حتى لا يتملك العجب أحداً من العاملين أو الشعور بأنه قدَّم شيئاً يستحق عليه جزاءً عظيماً، وهو لم يزد على القيام بحركات بدنية.

ولنأخذ أمثلة من الواقع، كشخص يحيي الليل بالعبادة وهو لا يعلم بأن الحارس الليلي يجوب الشوارع على قدميه في ظل الظروف الجوية القاسية

---

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ١٦٩/١.

(٢) بحار الأنوار: ٦٦/ ٣٤٦، مرسلاً. الدر المنثور: ١/ ١٧٠، وتفسير البيضاوي: ١/ ٢١٣.

متحملاً المخاطر والتهديدات والمسؤولية الكبيرة ويتقاضى أجره عن الليلة عشرة آلاف دينار أو أكثر بقليل أي أقل من عشر دولارات فكم يستحق التعب الجسدي لإحياء الليل بالعبادة، أو نقيس الأمر على الاستئجار للعبادات، فإن أجرة صلاة يوم كامل دولاراً واحداً، أو أكثر بقليل، وصوم اليوم الواحد عشرة آلاف دينار، فاذا نظرنا اليها كأفعال جسدية فهذه قيمتها، ونحن نريد بهذه الأعمال أن يدخلنا الله تعالى جنة عرضها السماوات والأرض.

فلا بد أن نعرف حقيقة ما يُريده الله تعالى من هذه الأعمال وهي التقوى والورع، وأن تحبّ الله تعالى وتؤثر رضا الله تعالى على ما سواه، وأن تحبّ خلق الله تعالى وتحسن إليهم بما يتيسر وتتجنب ظلمهم مطلقاً، قال الله تعالى ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج:٣٧)، فالقيمة الحقيقية ليست للأشكال والمظاهر وإنما هي مع الروح والمضمون.

والملفت في الآية التي نحن بصددها أنها لما ارادت بيان حقيقة ﴿الْبِرّ﴾ انتقلت من وصف ﴿الْبِرّ﴾ - المصدر- إلى وصف ﴿الْبَرَّ﴾ - بالفتح - أو البارَّ وهو المتصف بهذه الصفات، لأن النظرية لا تُفهم إلا من خلال تجسيدها عمليّاً وإبرازها في سلوك الأسوة الحسنة، ((ليكون بياناً وتعريفاً للرجال مع تضمنه لشرح وصفهم، وإيماءً إلى أنه لا أثر للمفهوم الخالي عن المصداق ولا فضل فيه، وهذا دأب القرآن في جميع بياناته، فإنه يبيّن المقامات ويشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب))[1]، ولتشير إلى أن مَن اجتمعت فيه هذه

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٤٢٨.

العناصر يْكون البر صفة راسخة فيه حتى يصبح مجسداً للبِّر على أرض الواقع كما نقول: (علي عدل) أي أن العدل ملكة راسخة فيه حتى أصبح مثالاً ومصداقاً للعدل.

والصفات المذكورة واضحة ومحورها العبودية لله تبارك وتعالى وعدم التعلق بشيء سواه، وقد ذُكر إنفاق المال مرتين ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب المال أو على حبّ الله تعالى، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وكأنه للإشارة إلى قيامه بالإنفاقين الواجب والمستحب.

أو لوحظ في الأول أثره على المجتمع بلحاظ موارد صرفه ولوحظ في الثاني أثره على الفرد نفسه من حيث تزكيته وارتقائه.

والخطاب وإن نزل للتعريض بأهل الكتاب إلا أنه شامل للجميع كما هو ديدن القرآن الكريم.

فهذه هي صفات الأمة المؤمنة حقيقة التي هي خير أمة أخرجت للناس ولها مقام الشهادة على الأمم الأخرى ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣)، وليس بمجرد ادعاء الانتساب.

وفي الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (أما علامة البارّ فعشرة: يحبّ في الله، ويبغض في الله، ويصاحب في الله، ويفارق في الله، ويغضب في الله، ويرضى في الله، ويعمل لله، ويطلب إليه، ويخشع لله، خائفاً مخوفاً طاهراً مخلصاً

مستحيياً مراقباً، ويُحسِنُ في الله)[١]، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ثلاث من أبواب البر: سخاء النفس، وطيب الكلام، والصبر على الأذى)[٢].

وسار على هذا المنهج القرآني - في وضع المعايير الصحيحة للأشياء وتصحيح فهم الأمور- النبيُّ والأئمة المعصومون (عليهم السلام)، ولنأخذ مثالاً على ذلك مصطلح العلم، روي عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) قال: (دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: ما هذا؟ فقيل: علّامة، فقال: وما العلّامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها، وأيام الجاهلية، والأشعار العربية، قال: فقال النبي (صلى الله عليه وآله): ذاك علم لا يضرّ من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي (صلى الله عليه وآله): إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل)[٣].

إذن فالعلم الذي يستحق أن يُسمى علماً هو ما كان فيه نفع للناس في دنياهم أو آخرتهم وتقوم به حياتهم بحيث لو تركه الناس يصيبهم ضرر بفواته كعلوم الطب والهندسة والادارة والاقتصاد والقانون وغيرها، أما ما ليس كذلك كأنساب العرب ووقائعهم في الجاهلية فلا يستحق تضييع الوقت الثمين في تعلمه.

فلابد أن نراعي ذلك في ما نطالعه ونتعلمه عبر وسائل التثقيف المتنوعة التي لم تقتصر على الكتب والصحف والمجلات، بل تعدّتها إلى شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني: ٢١.

(٢) نهج البلاغة: ٤/ ٨٩.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني: ١/ ٣٢.

وكذلك مصطلح العبادة، ومن ذلك ما رواه معلى بن خنيس قال: (سأل أبو عبد الله (عليه السلام) عن رجل وأنا عنده فقيل: أصابته الحاجة، قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): والله للذي يقوته أشد عبادة منه)[1].

فالرواية تصحح لنا فهمنا لعنوان مهم آخر وهي (العبادة) التي نظن أنها بكثرة الصلاة والصيام وكلما ازداد منها كان أعبد الناس وإذا بمفهومها أوسع من ذلك.

فكل عمل يساهم في إعمار الحياة وإسعاد الناس وإصلاحهم وتوفير الحياة الكريمة لهم هو من أسمى أشكال العبادة.

وقد أدّت العقيلة زينب[2] (عليها السلام) بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي ربيبة القرآن، وتلقّته ممن نزل عليه الوحي وفي بيت النبوة والإمامة هذه الوظيفة بإتقان في مجالس الطواغيت خلال رحلة السبي ، فقد كان يزيد وابن زياد وأزلامهم يعتقدون أنّهم هم المنتصرون فأخذتهم سكرة الغلبة ونشوتها كما وصفتهم العقيلة زينب في خطاباها لهم وأمام الملأ (فشمَختَ بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا).

وشخصت العقيلة زينب (عليها السلام) مشكلة أخطر حينما رأتهم يقلبون الحقائق ويقدّمون لها معاني مغلوطة لخداع الناس وجعلها دليلاً على شرعية حكم أولئك الطواغيت وسلطتهم، لذا وقفت (صلوات الله عليها) بكل شجاعة وشموخ لتنبّه

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ١٢/ ١٤/ ح٣.

(٢) القيت المحاضرة في ذكرى ولادة العقيلة زينب (عليها السلام) يوم ٥ جمادى الأولى.

الامة وتعّيد الأمور الى حقائقها الاصلية (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أنّ بنا على الله هوناً وبك عليه كرامة!! وأنّ ذلك لعظيم خطرك عنده، فمهلاً مهلاً لا تطش جهلاً، أنسيت قول الله عز وجل ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨)).

فهي (سلام الله عليها) لم تكتفِ بالإدلاء بحقيقة أنّ هذا ملكنا وسلطاننا خاصة ونحن أحقّ بالأمر من هذا الظالم المدّعي، ولكن فضحت هذه الأساليب لخداع الناس بأنّ هؤلاء المتسلّطين هم أصحاب الحق، ولا يزال إلى اليوم من يموّه على الناس ويكتسب شرعيته من كثرة الأتباع وشهرة العنوان وإغداق الأموال لفرض الأمر الواقع وإقناعهم بأنّ سلطته شرعية وإبعاد الحق عن أهله.

فتواجه العقيلة زينب (عليها السلام) الطاغية يزيد بالحقيقة الدامغة وبيان المنتصر الحقيقي (فكِد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض[1] عنك عارها. وهل رأيُك إلاّ فند، وجمعك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة)[2].

ووقفت نفس الموقف في الكوفة أمام الطاغية عبيد الله بن زياد حينما قال شامتاً: (الحمدُ لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذَبَ أحدوثتكم)[3].

---

(١) الرحض: هو الغسل. (لسان العرب: رحض).

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٥.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥/ ١١٥.

فتصدت له بشجاعة وبلاغة أخذتهما من أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلة: (الحمدُ لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا ابن مرجانة)[1].

وحاول أن يغطي فشله وهزيمته بمزيد من الشماتة قائلاً: ((كيف رأيتِ صنع الله بأخيكِ)) فأجابت (سلام الله عليها): (ما رأيتُ إلاّ جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجَّ وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أمّك يا ابن مرجانة)[2].

هكذا أعادت العقيلة زينب الأمور إلى نصابها وبيّنت من هو المنتصر الحقيقي وهزمت هؤلاء الطواغيت وجيوشهم الجرّارة التي غلبت بالسيف لكنّها هُزمت بالبيان والحجة الدامغة فقلبت أفراحهم أحزاناً.

وعلينا نحن أن نستفيد من هذا الدرس الزينبي ونُصحِّح جملة من المفاهيم والرؤى والنظريات التي أُريد بها خداع الناس وتسييرهم بالاتجاه الذي يريده أصحاب تلك الأجندات الهدّامة، ولنأخذ على ذلك مثالاً من عالم المرأة ممّا حاولوا به خداعها ودفعوها إلى ما يريدون من الانحلال والفساد ومزاحمة الرجال وترك وظيفتها الأساسية في بناء الأسرة الصالحة وتنشئة الجيل الصالح وهو شعار (المساواة).

فهل المساواة مطلب عقلائي؟ وبتعبير آخر هل إن المساواة حق دائماً؟ والجواب هو النفي، نعم إذا كان المطلوب مساواة الرجل والمرأة بالاستحقاق

---

(١) المصدر السابق: ١١٥، نفس الرواية.

(٢) المصدر السابق: ١١٦، نفس الرواية.

والجزاء فهذا حق وقد كفله الشارع المقدّس ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) سواء كان ذكراً أو أنثى.

أما إذا أرادوا بالمساواة مماثلة المرأة للرجل في الوظائف والأعمال التي يؤديانها فهذا مطلبٌ غير عقلائي، بل فيه ظلمٌ للمرأة، لأن طبيعة خلقها وفسيولوجيتها وسايكولوجيتها تنسجم مع وظائف غير ما كُلّف به الرجل، فالمساواة هنا من الظلم وليس من العدالة، ومثله كمثل الطبيب الذي يعطي نوعاً واحداً من الدواء إلى مرضى متنوعين، وكالمدرّس الذي يعطي درجة واحدة لكل طلبته في الامتحان مع تفاوت إجاباتهم، وهذا هو الظلم بعينه والمطلوب تحقيق العدالة وهي قد تقتضي المساواة وقد لا تقتضي المساواة بحسب الموارد وهذا ما كفلته الشريعة المقدسة، فلو أعطينا للولد ميراثاً بقدر البنت لكان ظلماً، لأن الرجل هو الذي يصرف على المرأة ويكفل لها كل احتياجاتها فهي تشاركه في حصته، ولا يشاركها في حصتها فكيف يتساويان في الاستحقاق.

فهذه المراعاة لتكوين كلٍّ من الرجل والمرأة وطبيعة وظائفهما مما تقتضيه الفطرة، وجرت عليه سيرة العقلاء، ويشهد به الواقع، وخذ نماذج مختلفة من تركيبة مجتمعات الغرب المدعيّة للتحضّر وانظر هذه المراعاة، كتشكيلة الحكومة أو عدد الطيارين أو عدد قادة الوحدات العسكرية وقيادات الجيش وانظر نسبة النساء إلى الرجال ستجدها ضئيلة فأين المساواة التي يريدون تسويقها إلينا؟.

وبهذه المناسبة نشير إلى مصطلح متداول يخصّ المرأة أيضاً وهو ((سنّ اليأس)) الذي يراد به عمر الخمسين للمرأة وتُسمى المرأة باليائس، وهو قد يكون

له منشأ صحيح حيث يحصل فيه اليأس من الإنجاب لانقطاع الدورة الشهرية، إلاّ أنّ هذا العنوان أُخذ على إطلاقه وكأنّه سن اليأس من الحياة، مما ولّد شعوراً عندها بالإحباط وفقدان الأمل وأنّها أصبحت لا قيمة لها وانتهى دورها في الحياة وأحيلت على التقاعد كما يُقال، فتعتريها أعراض نفسية وعصبية قد تفاقم المشكلة عليها، وهذه الأعراض ليس لها أصلٌ فسيولوجي أو عضوي كما يشهد به الأطباء، أي أن بلوغ المرأة هذا العمر لا يصاحبه أي تغيير في جسمها يقتضي هذه الأعراض، وإنما هي نتائج صنعتها المرأة بنفسها بسبب ذلك الشعور الذي غذّاهُ المصطلح البائس.

فالأليق أن يُسمى هذا العمر للمرأة (سن الكمال والنضج وتمام الرشد) لاكتمال تجربة المرأة في الحياة بعد أن تكون قد ربّت جيلاً كاملاً وتعلّمت الكثير، وهو سن التفرغ لنفسها ولآخرتها ولزوجها بعد أن انتهت من وظائف الحمل والإنجاب والتربية، وشبّ أبناؤها وبناتها فهم يعينونها على قضاء حوائجها، فهذا العمر فرصة مثمرة لكي يجتمع الزوجان من جديد على حياة زوجية يتفرغان لبعضهما ويلتفتان لآخرتهما وينشغلان لما يقرّبهما إلى الله تعالى من الطاعات والقربات مما لم تكن مشاغلهما السابقة تسمح لهما بها، كالسفر لأداء الحج والعمرة وزيارة المعصومين (صلوات الله عليهم) والصلاة المستحبة والصوم وقضاء ما فات ومطالعة الكتب، والمساهمة في الأعمال الخيرية والتبليغ الديني والوعظ والإرشاد وغيرها من فرص الكمال، بحسب ما يليق بشانهم.

القبس/٨

سورة البقرة:﴿١٩١﴾

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

تقرّر الآية الكريمة واحدة من الحقائق القرآنية الاستراتيجية -كما يقال- التي ترتّب أولويات الحياة الانسانية وتنظم العلاقة مع الآخرين، وورد هذا المعنى بتعبير اخر في آية لاحقة، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:﴿٢١٧﴾).

الفتن[1] في اللغة ادخال الذهب او الفضة في النار لتخليصه من الشوائب وتمييز الجيد من الرديء ومنه نقلت الى معنى تعريض الانسان الى الاختبار والابتلاء والتمحيص بالإغراءات او بالمكاره والآلام ليتميز المحسن من المسيء، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:﴿٣٥﴾) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن:﴿١٥﴾) باعتبار انها ادوات واسباب للاختبار والتمحيص، وقال تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت:﴿١﴾-﴿٢﴾) اي لا يُختبرون حتى يتميز الخبيث من الطيب، روي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) في تفسيرها قوله: (يُفتنون كما يُفتن الذهب، ثم يخلَصون كما يُخلص الذهب)[2].

هذا هو معنى الفتنة اذا نُسبت الى فعل الله تعالى فتكون من السنن الالهية الجارية في عباده، وقد وردت الفتنة بمعنى مذموم في آيات اخرى، ولدى

---

(١) تاج العروس للزبيدي: ٤٢٥/١٨.

(٢) الكافي: ٣٠٢/١ / ح ٤.

الاستقراء تبين ان هذا المعنى يرد اذا نُسبت الفتنة الى العباد فيُراد بها التعريض لضغوط الاغراء او الاكراه طلبا لتحقيق النتيجة الشريرة والخبيثة من الابتلاء كما في الآيتين محل البحث وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البروج:١٠) وقوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ (المائدة:٤٩) وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ (الاسراء:٧٣) وذلك بتدبير الحيل والمكائد لك وممارسة الضغوط والاغراءات عليك لصرفك عما انت عليه من الحق.

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الفتنة بمعنى الاضلال والابعاد عن الدين وايقاع الفرد في الفساد والانحراف هو اشد وأكبر من ازهاق روحه، او قل ان القتل المعنوي للإنسان بسلب دينه الذي هو سبب نعيمه في الحياة الخالدة الدائمة، هو اشد خطرا وأكبر جرما من سلب حياته المادية وفنائه الجسدي، ولإقامة الشهادة على هذه الحقيقة كان القتل من أجل دفع الفتنة والضلال وحماية الدين والمجتمع منها أقدس مراتب القتل وافضلها.

ويترتب على هذا أنَّ من يفتن الناس عن دينهم باي شكل مما سنُشير اليه يجب دفعه بشتّى الوسائل كالذي يهدد حياة الناس بل الاول احرى وان لم يشهر سلاحا، ولعل هذا هو المسوِّغ الوحيد للقتال في الاسلام بحسب ما يفيده القرآن الكريم، وبقية الاسباب والمسوِّغات ترجع اليه، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:١٩٣) وفي اية اخرى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾(الأنفال:٣٩)

وهذه نتيجة مهمة تُزيل الكثير من الشبهات حول انتشار الاسلام بالسيف ونحو ذلك، لكنها تحتاج الى تفصيل من البحث[1] في مناسبة اخرى ان شاء الله.

وقد جاء هذا المقطع من الآية جوابا للمشركين الذين استغربوا من قتال المسلمين في الشهر الحرام او في الارض الحرام بانكم - أيها المشركون - ارتكبتم فيها ما هو اعظم من القتل والقتال بأفعالكم الوحشية المحمومة لإخراج الناس من دينهم واعادتهم الى الجاهلية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة:٢١٧).

وفي بعض الروايات ان الفتنة بمنزلة الكفر، ففي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (وانما سُمّي الكفر فتنة لان الكفر يؤدي الى الهلاك كما تؤدي الفتنة الى الهلاك)[2]

ولا فرق في تحقق هذه الفتنة بين ان تكون بالتهديد والايذاء المباشر، او بإقامة البيئة الفاسدة الضاغطة التي من شأنها ان تضلّ الناس عن دينهم وتبعدهم عن الصراط الالهي القويم بتوفير اسباب الفساد المؤثرة والاغراء وادوات التلويث الفكري والعقائدي في مناهج التعليم والثقافة والمعرفة او سنّ القوانين التي تشرعن للرذيلة والظلم وتعيق نشر الفضيلة والصلاح.

وبناءً على هذه الحقيقة القرآنية فان الذين ينشرون الفساد والرذيلة في المجتمع ويشككون الناس في عقائدهم الحقة ويدعونهم الى الالحاد والانحلال

---

(١) راجع كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من موسوعة فقه الخلاف: القسم الثاني.

(٢) تفسير التبيان: ٢ / ١٤٧.

الخلقي ونبذ الدين تحت مسميات عديدة منها قديمة كالدين افيون الشعوب والمضي على ما كان عليه الاباء ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ (ص:٦) او حديثة تحت عناوين متعددة معروفة لا يقلّون خطرا واجراما عن الجماعات الارهابية الذين ينشرون القتل والخراب في كل مكان، بل ان الجماعة الاولى اكثر اجراما من الثانية لان القتل المعنوي بحسب هذه الحقيقة القرآنية اعظم في الواقع من القتل المادي.

وفي مقابل ذلك فان من يحيي وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقيم الدين في المجتمع امتثالا لقوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ (الشورى:١٣) وينصح الناس ويرشدهم ويقوّي عقائدهم، ويدفع عنهم الشبهات والاباطيل التي يبثها اعداء الله ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور، ويهدونهم الى الحياة الباقية هم أعظم اجرا ومنزلة عند الله من المجاهدين المقاتلين الذين يضحّون بدمائهم من اجل حماية ارواح الناس وحفظ حياتهم المادية.

وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (اذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين، فيوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء)[1].

وليس المراد مطلق المداد والحبر على الورق ما لم يكن علماً ينتفع الناس به ولا يكتفي صاحبه بحمله بل يعمل به وينشره بين الناس ويدعوهم اليه حتى يهتدوا به.

---

(١) مستطرفات السرائر-إبن إدريس الحلي: ٢٢٠.

وتوجد كلمة قيّمة للإمام الحسين (عليه السلام) مستفادة من هذه الآية تحث على العمل الاجتماعي وتعطيه اعلى قيمة، قال (عليه السلام) لرجل: (ايهما احبُّ اليك، رجلٌ يروم قتل مسكين قد ضعُف تنقذه من يده، او ناصبٌ يريد اضلال مسكين من ضعفاء شيعتنا تفتح عليه ما يمتنع به ويفحمه ويكسره بحجج الله تعالى) قال (عليه السلام): (بل انقاذ هذا المسكين المؤمن من يد هذا الناصب، ان الله تعالى يقول ﴿مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعا﴾ (المائدة:٣٢) اي ومن احياها وارشدها من كفرٍ الى ايمان فكأنما احيا الناس جميعا من قِبلَ ان يقتلهم بسيوف الحديد)[1].

فهذا جواب والقاء المعلومة بصيغة السؤال (ايهما احبُّ اليك) اي ليكن هذا الامر احبُّ اليك من الآخر وانما عرضها (عليه السلام) بصيغة السؤال ليشترك المتلقي معه في صنع المعلومة والتفكير فيها والاستعداد اكثر لتقبّلها، والقاها بهذا التعبير الوجداني (أحبّ) لان القناعة العقلية بكون الفتنة عن الدين اشد من القتل حاصلة من الآيتين الكريمتين فالقناعة بهذه الحقيقة كاملة وانما انتقل الإمام الحسين (عليه السلام) الى مرحلة العمل بان يكون تعلقك بإنقاذ المجتمع من الجهل والشبهات والفتن وتعليمهم العقائد واحكام الدين والاخلاق الفاضلة اكثر من اهتمامك باي شيء اخر مهما كان مهماً كإنقاذ انسان مستضعف من القتل.

اما لماذا كانت الفتنة عن الدين اشد واكبر من القتل، فيمكن الاجابة عنه بوجوه:-

١- ان الدين وعبادة الله تبارك وتعالى اقدس شيء في هذا الوجود وهو غاية خلق الانسان والهدف من وجوده، لذا يرخّص كل شيء من اجل الاحتفاظ بهذا

---

(١) تفسير العسكري (عليه السلام): ٣٤٨ / ح٢٣١.

الحق المقدس، فقد ضحى اكرم الخلق من الانبياء والمرسلين والائمة (صلوات الله عليهم اجمعين) ومن تبعهم من الصالحين بأرواحهم وأعزّ ما عندهم في سبيل اقامة الدين، واثمن تضحية ما نعيش ذكراها هذه الايام وهي تضحية الإمام الحسين (عليه السلام).

اذن فالعدوان على الدين ومنع الانسان من ممارسة حقه فيه هو اشد من اي اعتداء اخر سواء على الجسد بالقتل او غيره.

٢- ان جهاد النفس الامارة بالسوء ومعركة السيطرة على غرائزها وشهواتها وانفعالاتها اشد وأكبر من جهاد العدو بالقتل والقتال حتى سمي الاول الجهاد الاكبر والثاني الجهاد الاصغر، فالخسارة في الجهاد الاول وهو الاكبر اشد وأخطر من الخسارة في الجهاد الثاني بالقتل.

٣- ان الفتنة بلاء وامتحان دائم ومستمر ولا يمكن تجنبه فتحقيق الانتصار فيه عسير وشديد، اما القتل فهي حالة قليلة الحدوث ويمكن تجنب اسبابه فالأول اشد وأكبر من الثاني.

٤- ان القتل ينهي حياة الانسان المادية في هذه الدنيا وهي زائلة وفانية ولو لم يقتل فانه يموت، بينما الفتنة تكون سببا لشقائه في الحياة الاخرة الدائمة، وانما تكتسب الحياة الدنيا قيمتها بمقدار تحقيقها لنتائج طيبة في الاخرة، فإعدام الحياة الدائمة اشدُّ واكبر من اعدام الحياة الفانية.

٥- ان القاتل يزهق روحا واحدة، بينما المفتون عن دينه والمتجرد من خوف الله تعالى والمبادئ الانسانية والملوث عقائديا كالخوارج والتكفيريين يفتكون

بالآلاف من البشر من دون ان يرفّ لاحدهم جفن كما عبَّر بعض الطواغيت المعاصرين.

٦- ان القاتل ما كان ليقتل لولا انه تخلى عن مبادئه الدينية قبل ذلك فالسبب الاصلي للقتل هي الفتنة عن الدين والانسلاخ عنه، ولو التزم بما يأمره به دينه لتورّع عن القتل (اللهم اصلح لي ديني فانه عصمة امري)[1].

٧- ان خطر الفتنة خفي لا يلتفت اليه المفتون غالبا لذا فانه لا يتخذ الاجراءات الاحترازية منه، بل قد يتجاوب معها لأنها توافق شهواته واهواءه، بينما خطر القتل بيّن واضح يخاف منه ويحترز منه.

٨- ان الفتنة تعم بضررها مساحة واسعة ولا تقتصر على صاحبها فقط، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الانفال:٢٥) بينما القتل يقع على المقصود خاصة.

٩- ان فتنة الانسان لأخيه الانسان شرٌ كلها فهي مذمومة اما القتل فيمكن ان يكون سببا لحياة الامة ونجاتها وصلاحها كاستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام).

ومن مجموع هذه الوجوه يتبين معنى كون الفتنة اشد من القتل، وان دفعها لا يقِلّ وجوباً عن دفعه، لذلك نبهنا دائما ومعنا حكماء القوم الى ان القضاء على الارهاب يتطلب اولا تجفيف منابعه الفكرية التكفيرية، والا ما الفائدة من قتل افراد منهم مهما كثر عددهم مادامت البيئة والحاضنة التي تُفرِّخهم موجودة.

فالإمام الحسين (عليه السلام) وهو يمارس دوره في امامة الامة وهدايتها يرشدنا الى اهمية العمل الديني الاجتماعي والتحرك برسالة الاسلام في اوساط الامة ونشر

---

(١) الصحيفة السجادية، من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في يوم الثلاثاء.

تعاليم اهل البيت (عليهم السلام) والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وصيانة عقيدة المجتمع واخلاقه من الشبهات والانحرافات.

وان هذا العمل هو من اهم الواجبات الدينية واعظم المسؤوليات الملقاة على عاتقنا خصوصا نحن الحوزة العلمية والمثقفين والكتاب والمفكرين والاعلاميين؛ لان انحراف العقيدة وتلوّث الغذاء الفكري الذي يتلقاه المجتمع خصوصا الشباب هو الذي يحوّله الى سرطان خبيث يسري في جسد الامة ويرى ان اقرب القربات الى الله تعالى قتل الابرياء وسبي وتهجير النساء والاطفال وتدمير المقدسات وتخريب الحياة كاللوثة التي اصابت عقول الخوارج فاستحلوا الحرمات وبقروا بطون الحوامل وقتلوا الاجنّة.

ويعلمنا الإمام الحسين (عليه السلام) ان تكون أدواتنا الحوار البنّاء المفعم بالحجج والادلة والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولا مكان للعنف والتكفير والغاء الاخر، ويدعونا الإمام (عليه السلام) الى اعتماد مبدأ (الوقاية خير من العلاج) وذلك بقوله (عليه السلام): (ما يمتنع به) اي لا ننتظر وقوع الشبهة لنرفعها بل ان نسلّح ابناءنا بالفكر والعلم ليكونوا محصنين من اختراق الشبهات لهم ولو وقعت لسبب او لآخر فيجب العمل على رفعها قال (عليه السلام): (تفتح عليه ما يمتنع به، ويفحمه ويكسره بحجج الله تعالى).

وان تكون هذه الادلة رصينة وقوية وبنفس الوقت مفهومة وواضحة لتنفتح بها النفس وينشرح لها الذهن قال (عليه السلام): (تفتح عليه) فإنها ادعى للطمأنينة والاقناع كدليل القرآن على التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢) وقول امير المؤمنين (عليه السلام): (واعلم يا بني انه لو كان

لربك شريك لأتتك رسله)[1] او ادلة كتاب (المراجعات) على الإمامة او بحث (كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله) للإمامة من بعده).

ان فرص القيام بهذا الوظيفة الالهية العظيمة اليوم ونيل الدرجات الرفيعة عند الله تعالى اوسع واكثر تأثيرا من اي زمان مضى للتقدم الهائل في تكنولوجيا الاتصالات والتواصل، واصبح من في اقصى الشرق يسمع ويرى من في اقصى الغرب مباشرة، والكلمة تصل الى انحاء المعمورة والى كل الناس في آن واحد، وما علينا الا ان نشمِّر عن ساعد الجد ونوصل الليل بالنهار بالعمل على بناء انفسنا اولاً اخلاقيا وعقائديا وفكريا ثم ننطلق بهذه الرسالة الى المجتمع، لنتصف بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب:٣٩).

ونلفت نظر الخطباء الاعزاء الذين يظهرون على شاشات التلفزيون او المثقفين الذين ينشرون على مواقع التواصل الاجتماعي الى ان يكون خطابهم عاما شاملا مؤثرا في كل التنوعات الانسانية وليس مقتصرا على الفئة او الشريحة التي ينتمي اليها او الموجودة أمامه، فاستحضر انك تخاطب الموجودين في المغرب او الجزائر ومصر او في اليمن والخليج او الهند وباكستان وروسيا واوربا وامريكا وغيرها من بقاع العالم.

---

(١) نهج البلاغة: ٣١/ من وصيته لابنه الحسن (عليه السلام).

القبس/٩

سورة البقرة:﴿١٩٥﴾

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥).

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمرٌ بالإنفاق في سبيل الله -أي طلباً لثوابه ونيل رضوانه تعالى-، والسبل الموصلة إلى الله تعالى والمقرِّبة إليه سبحانه كثيرة يلّخصها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)، فلا يختص بمورد سياق الآية وهو الإنفاق في لوازم وتكاليف الجهاد والمجاهدين في سبيل الله تعالى لردّ المعتدين والمفسدين، ونشر الدين وإعزاز المؤمنين وحفظ عقائدهم وأخلاقهم.

والآيات الكريمة الآمرة بالإنفاق كثيرة ومتنوعة فبعضها جاءت مقترنة بالترغيب في الإنفاق وما فيه من خير الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١) وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٧١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر:٢٩) وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة:١٠٣)، فالانفاق سبب لنيل الرحمة الإلهية والتطهير والتزكية وغفران الذنوب ومضاعفة البركات والفوز بالتجارة الخالدة مع الله تبارك وتعالى.

وبعضها عن طريق بيان سوء عاقبة المتخلفين عن الإنفاق كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٥_٣٤) وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤) وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١-٣) وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (المدثر ٤٢-٤٤)، فهذه صور لعواقب فضيعة يكفي مجرد تصورها للإصابة بالذعر والهلع الشديدين، ومنها الآية الكريمة التي نقتبس من نورها فقد جعلت عدم الانفاق سبباً للوقوع في التهلكة كما سنبين ان شاء الله تعالى.

أما الأحاديث الشريفة فإنها تفوق حد الإحصاء ولا يسع المجال لذكرها نذكر أحدها في جانب الترغيب وهو قول النبي (صلى الله عليه وآله) (ارض القيامة نار، ما خلا

ظلَّ المؤمن فان صدقته تظلّهُ)[1] والثاني في التخويف وهو قول الإمام الباقر (عليه السلام): (الذي يمنع الزكاة يحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً (أي ثعبان) من نار له ريمتان[2] فيطوقه إياه ثم يقال له: ألزمه كما لزمك في الدنيا، وهو قول الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠))[3].

ولأن النفس الإنسانية مجبولة على حب المال ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:٢٠) ويصعب عليها الإنفاق ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء:١٠٠)، فقد عرضت الآيات الكريمة عدة محاولات للدخول في أعماق النفس الإنسانية وإقناعها بالإنفاق، كالوعد بأن الله تعالى يخلف على الإنسان ما ينفقه في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:٣٩)، مضافاً الى أنّ له أجر ما أنفق[4] قال تعالى ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

---

(١) الكافي: ٣/٤،ح٦.

(٢) كذا في جميع النسخ، وهكذا نقله في المستدرك أيضا، والصحيح " زبيبتان " تثنية زبيبة وهما نقطتان سوداوان فوق عيني الحية والكلب. يخيل للرائي أن لها أربعة أعين وإذا كانت كان عضها قتالاً.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ – ص ٨.

(٤) يوجد في إحدى الدول الأوروبية بنك للوقت تسجّل فيه حساباً للوقت الذي تنفقه في خدمة الآخرين على نحو المداراة الصحية أو الأعمال المنزلية وغير ذلك وهذا الرصيد يُستفاد منه عند الاحتياج إلى المساعدة في الشيخوخة أو المرض أو أي سبب آخر فيأتي من يخدمك مدة تستقطع من الرصيد فهذا تطبيق لما افادته الآية الكريمة من أن الله تعالى يخلف على المنفق.

تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٧٢) وهذا الإيفاء متحقق في الدنيا والآخرة وغير ذلك من الأساليب التي سنبينها في قبس مستقل ان شاء الله تعالى.

ومن الواضح أن بعض الإنفاق واجب كزكاة الأموال والأبدان - أي زكاة الفطرة- والخمس والكفارات المالية وردّ المظالم ونفقة الحج الواجب وغير ذلك، وبعضها مستحب كالإنفاق في وجوه البر والإحسان وما أكثرها، وبعضها محرم كالذي ينفق في المعاصي كشرب الخمر وحضور حفلات المجون، او كان انفاقه سبباً لإدخال الأذى على الآخرين بالإذلال والتحقير، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٣) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (البقرة:٢٦٢) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة:٢٦٤) أو كالذي يسرف في إنفاق كل ما عنده ولا يبقي شيئاً لمن يعول بهم فإنه منهي عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩) والمطلوب الوسطية والاعتدال، قال تعالى في مدح عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٧)،وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة:٢١٩) أي الفضل الزائد عن احتياجاتكم المعاشية ، وعن جابر – رضي الله عنه- قال: جاء رجل بمثل بيضه من ذهب، فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها. فأعرض عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) – ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه. فأتاه من قبل ركنه

الايسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه. ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك، فأخذها – (ﷺ) فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته. وقال (يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة. ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[1]

وحثّت الآيات الكريمة على أن يكون الإنفاق من المال الجيد الذي ترغب فيه النفس، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٩٢) وليس مما لا تقبله النفس إلا مرغمة كالذي يخرج خمسه من بضاعة كاسدة انتهى موسمها أو يخرج في الزكاة والفدية والكفارة نوعية رديئة من الطعام، قال تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة:٢٦٧).

ومن كرم المولى على عبده أنه أعطى نفس أجر الصدقة لمن يتوسط في إيصالها، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لو أن الصدقة جرت على يدي سبعين ألف ألف إنسان، كان أجر آخرهم مثل أجر أولهم)[2].

وينبغي الالتفات الى أن الانفاق لا يقتصر على تمليك المال للمحتاج بل يمكن ان يكون من خلال مصنع او شركة تجارية فيوفّر للفقير العاطل فرصة عمل يكسب منه مالً حلالاً او يسلّفه مالاً لينشئ متجراً خاصا به وبذلك يتحّول الفقير من شخص مستهلك الى منتج، وهذا من مصاديق الآية الشريفة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي

---

(١) في ظلال القران: ج١/ ص٣٢٢، سنن ابي داود ٢/ ص١٢٨ /ح ١٦٧٣.

(٢) ميزان الحكمة: ٧٧/٥/ ح ١٠٥٨٨/ ح ١٠٥٩٠.

يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة:٢٤٥)، ومن معاني الحديث الشريف عن الإمام الرضا (عليه السلام) (أحسن الناس معاشاً من حسن معاش غيره في معاشه، واسوأ الناس معاشاً من لم يعيّش غيره في معاشه)[١].

أبواب الإنفاق ومساحاته كثيرة:

وقد أطلقت الآية الكريمة متعلق الإنفاق ولم تُحدِّد ماذا ينفقون لنلتفت إلى أن موارد الإنفاق كثيرة لا تقتصر على المال، وأوضح موارده الأخرى:

١- العلم النافع في سائر حقول المعرفة والفنون والتجارب قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة)[٢]، وقال (صلى الله عليه وآله): (تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده)[٣]، وقال (صلى الله عليه وآله): (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم)[٤].

وبشّرت من ينفق العلم بالزيادة والانفتاح على علم جديد ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (يا كميل: ..... العلم يزكو على الإنفاق)[٥] وفي الحديث (ما أهدى المرء المسلم على أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة،

---

(١) تحف العقول: ٣٢٩، بحار الانوار: ٣٤١/٧٨ وقد شرحنا الحديث في موسوعة خطاب المرحلة:٣٣٧/١١.

(٢) بحار الأنوار: ج ١ /ص ١٦٦.

(٣)بحار الأنوار: ٧٥ / ١٠٥/ ح٤٠.

(٤) سنن ابن ماجة: ١/ ٨٩/ ح٢٤٣.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٥ /ص ٧٦.

يزيده الله بها هدى، ويرده عن ردى)[١].

٢- الأخلاق الحسنة ومعاشرة الناس بالمعروف، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة:٢١٩) بناءً على أن معنى العفو هنا هو الصفح، و في الحديث النبوي الشريف (يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة)[٢] وقال (صلى الله عليه وآله): (كل معروف صدقة إلى غني أو فقير)[٣] وقال (صلى الله عليه وآله) (ترك الشر صدقة)[٤] وقال (صلى الله عليه وآله) (تَبسُّمك في وجه اخيك صدقه)[٥] وروي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لعمه العباس: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[٦] وروي عنه (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن على كل مسلم في كل يوم صدقة، قيل من يطيق ذلك؟ قال: إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة)[٧] وقال (صلى الله عليه وآله): (إن أفضل الصدقة صدقة اللسان، تحقن به الدماء، وتدفع به الكريهة، وتجرّ المنفعة إلى أخيك المسلم)[٨].

٣- الجاه والمكانة الاجتماعية: وهذا رصيد كبير يمنحه الله تعالى لبعض

---

(١) الدر المنثور- السيوطي: ٢/ ٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨٠ /ص٣٦٩.

(٣) أمالي الطوسي: ٤٥٨ / ١٠٢٣.

(٤) بحار الانوار: ١٦٠/٧٧/ ح١٦٨.

(٥) كنز العمال: ١٦٣٠٥، ميزان الحكمة: ٧٠/٥.

(٦) بحار الأنوار: ج ٦٨ /ص ٣٨٤.

(٧) بحار الأنوار: ج ٩٣ /ص ١٨٢.

(٨) قصص الأنبياء- قطب الدين الراوندي: ١٩١/ ح٢٣٦.

الناس يمكن استثماره في الخير، ولا يجعل شأنيته ومكانته الدينية او الاجتماعية مانعاً من القيام بما يريده الله تعالى، فيستطيع الإنسان الوجيه أن يسعى بوجاهته لدى الناس لقضاء الحوائج وتيسير الأمور وإصلاح المتخاصمين فيكون ممن أنفق جاهه في سبيل الله تعالى، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما)[1]، وفي حديث آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم)[2]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام) (صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا)[3] واهم موارده اليوم إطفاء نائرة الحرب والصراع بين العشائر التي تشتعل بين حين وآخر وتخلّف الكوارث فمن واجب الجميع معالجة أسبابها قبل وقوعها وإغلاق هذا الباب للشر والفساد نهائياً.

٤- بذل النفس في سبيل الله وهي أكمل درجات الإنفاق، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (فوق كل ذي برّ برٌّ حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر)[4] ونظم الشاعر هذا المعنى بقوله:

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠/ ص٤٥، حكى بعض السادة المعروفين ان احد الشباب تعلق بفتاة وطلب من اهله خطبتها فردّهم والد الفتاة بعنف لأمر يخصّه فوسّطوا هذا السيد فردّه الوالد بنفس الطريقة ثم طلبوا منه إعادة المحاولة فلاقى نفس الرد وتكررت العملية ووالد الفتاة يقول له الا= =تستحي من كثرة الرد العنيف، فقال السيد انا اعمل بتكليفي وفي النهاية لان قلب والد الفتاة وأذِن بمناقشة الموضوع وتم الزواج بفضل الله تعالى.

(٢) أمالي الطوسي: ج ٢ /ص ١٣٥.

(٣) الكافي: ٢٠٩/٢/ح١.

(٤) الكافي: ج٢/ص٣٤٨/ح٤.

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وغير ذلك من موارد الإنفاق كالوقت والراحة والجهد قال النبي (ﷺ) (أفضل الناس رجل يعطي جهده)[1] بناءً على هذا المعنى من الجهد وليس القليل الذي هو غاية ما يتيسر له، وهكذا أي شيء يمكن أن يتحوّل إلى عمل مثمر ينفع الناس.

كيف يؤدي عدم الانفاق الى التهلكة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥) تحذير من مغبّة عدم الإنفاق في موارد رجحانه بخلاً او خوف العيلة ومن عاقبة سوء الإنفاق كالإسراف او إعطاء الردي او في غير مورده ومن دون هدف راجح ولا تخطيط محكم بأنَّ ذلك سيؤدي بكم إلى الهلاك وسيجعلكم عرضه للفناء لأن التهلكة مصدر[2] على وزن تفعُلة بضم العين وتعني ((كل شيء تصير عاقبته إلى

---

(١) كنز العمال: ١٦٠٨٤.

(٢) قال الطبرسي في مجمع البيان: (٢/ ٢١) وفاقا لجمع من اللغويين كلسان العرب (ليس في كلام العرب مصدر على تفعُله- بضم العين- إلا هذا) وهكذا قال المفسرون كالآلوسي والطباطبائي، واذا أرادوا بذلك انه شاذ فاننا لا نرى في ذلك شذوذاً لأن السمع لا ينفر منه إذا ألقي إليه وهذا معيار مقبوليته، مع إمكان أن تكون بالأصل مكسورة العين وضمَّت بتعدد القراءات، وحكي عن سيبويه احتمال أن يكون أصلها بكسر اللام فأبدلت الكسرة ضمة (روح المعاني: ١/ ٦٤٨) وعلى كسر العين فإن هذا المصدر موجود كما في قوله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (التحريم:٢) نحو (تبصرة وتذكرة وتجربة وتهنئة وتزكية وتربية وتقوية، وبفتح العين نجد (تُؤدّة) كما في قول النبي (ﷺ) (التُؤَدةّ في كل شيء خير الا في عمل الاخرة) كنز العمال: ٥٧٦٣، وعلى أي حال فإن النص القرآني حاكم على اللغة وميزان سلامتها وليس العكس قال الفخر الرازي: (إني لأتعجب كثيراً

الهلاك))[1] أو يكون في معرض الهلاك ويكون مصيره مجهولاً، ومن مصاديقها المفازة لأنه يهلك فيها كثيرون.

والباء سببية أي بسببكم وسوء افعالكم وماجنته أيديكم واليد كناية عن فعل الإنسان نفسه لأن أكثر ظهور أفعالها بها كما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (هذِهِ يَدايَ وَما جَنَيْتُهُ عَلى نَفْسِي)[2] وهي شاملة لجنايات نفسه كلها، وفي الحديث النبوي الشريف (على اليد ما أخذت حتى تؤدي)[3] الشامل لجميع الضمانات حتى لو حصلت بغير اليد، فيكون معنى الآية لا تكونوا انتم سبباً للألقاء في التهلكة وعلى هذا فإن المفعول به أي الملقى غير مذكور في الآية فهو مطلق شامل لأنفسكم كأفراد وللمجتمع ككل، فلا تلقوا قوتكم وكيانكم وتقدّمكم وحضارتكم وأخلاقكم وعلاقاتكم ونظامكم الاجتماعي والأخلاقي وحتى دينكم في التهلكة والفناء إن لم تنفقوا في ما يتطلبه حفظ كل ذلك من مال وجهد وفكر ووقت وطاقة وإمكانية قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠)، لذا فإن الشعوب الكسولة الخاملة التي تركت ما يجب عليها من

تكلّفات هؤلاء النحويين في أمثال هذه المواضع، وذلك أنّهم لو وجدوا شعراً مجهولاً يشهد لما أرادوه فرحوا به، واتخذوه حجة قوية، فورود هذا اللفظ في كلام الله تعالى المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة، أولى بأن يدل على صحة هذه اللفظة واستقامتها) المجلد: ٣، ٥/ ١٤٦.

(١) لسان العرب مادة هلك، قال اليزيدي: التَّهْلُكة من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٤ / ص٨٩ قال الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ليلة النصف من شعبان عند سجوده (صلى الله عليه وآله) (سجَدَ لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي هذه يداي وما جنيتُه على نفسي يا عظيم تُرجى لكل عظيم ...).

(٣) سنن ابن ماجة: ج٢ /ص٨٠٢.

الإنفاق المناسب من المال او الجهد او النفس تُستعَبد وتتخلّف وتُصادَر خيراتها وتُمتَهن كرامتها وتخسر أضعاف ما بخلت به، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٣٦)، أي انهم وإن لم ينفقوا أموالهم في طاعة الله تعالى الا أنهم في النتيجة سينفقونها في معصية الله ثم تكون عليهم حسرة[١].

وحينئذ يمكن أن تكون الباء للمصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (المؤمنون:٢٠) وفي زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) ليلة شهادته: (فَطِرْتَ وَاللهِ بِنِعْمائِها)[٢]، فيكون المعنى ولا تأخذوا أنفسكم وقوتكم بأيديكم وتلقوها في الهلاك ولا تدمرّوا إمكانياتكم وقدراتكم المتنوعة بترك الإنفاق في سبيل الله.

وقال جمع من المفسرين كالطبري في جامع البيان والطبرسي في المجمع والطباطبائي في الميزان أن الباء زائدة كقولك جذبت بالثوب أي جذبت الثوب باعتبار أن ألقى يتعدى بنفسه كما في ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ (الشعراء:٤٥) وزيدت لتأكيد معنى النهي ويكون المعنى ولا تلقوا أيديكم كناية عن أنفسكم في التهلكة.

وهذه التهلكة يمكن تصورها من عدة جهات:

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (سورة الأنفال:٣٦) في تفسير من نور القرآن.

(٢) ضياء الصالحين: ٦٤، زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) في يوم استشهاده ٢١من شهر رمضان.

١- دينية وأخلاقية فإن البخل يميت روح الإنسانية لدى الغني ويمسخ فطرته، وبالمقابل فإن الفقير الذي لا يجد من يوفّر له ولعياله القوت يتخلى عن إيمانه ويسلك الطرق المنحرفة والمحرمّة، للحصول على ضرورات حياته، وكم من امرأة تخلّت عن عِفّتها وحيائها وسيلة لكسبها مدعيّه أن الحاجة ألجأتها إلى ذلك، وقد اشتهرت كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام): (كاد الفقر أن يكون كفراً)[1] وإن كثيراً من الجياع لما تتحدث لهم عن ضرورة الالتزام بالدين فإنه يطالبك بإشباع بطنه أولاً، قال رسول (صلى الله عليه وآله) في دعائه: (بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدّينا فرائض ربنا)[2] وقد اشتهرت الكلمة (لولا الخبز لما عُبِدَ الله تعالى).

٢- اقتصادية: فإن وجود طبقة فقيرة لا تمتلك المال لشراء احتياجاتها يؤدي إلى كساد السوق، فإذا أنفق الموسرون عليهم فإن هؤلاء سيحرّكون السوق والمصانع والتجارة ويعود بالنفع على أصحاب المعامل والتجار أنفسهم، وهذه من أهم النظريات الاقتصادية، ومن تطبيقاتها أن الدول التي تتراكم عليها الديون ويصيبها العجز والإفلاس وتنذر بالسقوط فإن الدول الغنية تمدُّ إليها يد المساعدة والإقراض لتقويم اقتصادها وتحريك سوقها فتحرِّك اقتصاديات تلك الدول المانحة كما حصل لليونان في أزمتها المالية قبل عدة سنوات، حتى أعلنت مؤسسات الإفلاس.

٣- سياسية: فإن من أهم وسائل إخضاع الأفراد والشعوب والدول هو تجويعهم

---

(١) بحار الأنوار: ٧٠ / ص ٢٤٦.

(٢) الكافي: ج٥ /ص٧٣.

وفرض الحصار عليهم، فتضطر الدول المحاصرة إلى التنازل عن سيادتها واستقلالها وكرامتها، وترضى بالتبعية والذل والخضوع من أجل الحصول على المساعدات الموعودة، وتجارب دول العالم الثالث كما يسمونها كثيرة، وشعارهم في ذلك المثل القائل (جوّع كلبك يتبعك) وهذا المنهج يتخذّه الطغاة والمستكبرون لإخضاع شعوبهم بحرمانهم من الحقوق والخدمات الأساسية ليبقى الشعب خانعاً مستسلماً لإرادة الطاغية طمعاً في الحصول على الفتات منه، وقد استعملت قريش هذا الأسلوب حينما حاصرت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبني هاشم في شعب ابي طالب عدة سنوات، وسياسة خلفاء السقيفة مع علي وفاطمة (عليهما السلام) حينما صادروا فدك وغير ذلك.

٤- أيديولوجية: فقد استعمل الإنفاق المالي لتبديل أفكار الناس وقناعاتهم كالذي يفعله المبشرون المسيحيون خصوصاً في افريقيا لتنصير الفقراء، أو ما يبذله المرشحون في الانتخابات لكسب أصوات الناس مع علمهم بفساد المرشح وعدم أهليته، ولو وجد هؤلاء الناس ما يكيفهم لما اضطروا إلى تبديل عقائدهم والعمل على خلاف قناعاتهم.

٥- أمنية واجتماعية: فإن المحرومين من حقوق الحياة الأساسية يصبحون قنابل موقوتة في المجتمع جاهزة للانفجار في أي لحظة حينما يفقدون الصبر على حالتهم التعيسة، وإن التمايز الطبقي ووجود طبقة قليلة ثرية مترفة مقابل طبقة واسعة محرومة من أكثر أدوات الحرب الناعمة اليوم فاعلية من خلال اثارة روح الانتقام لدى هذه الطبقة وتوزيع الأموال عليهم لتأجيج الشارع بهم واتخاذهم وقوداً في الفتن والحروب الأهلية وإحداث الخراب والدمار،

وأمثلتها من الواقع العراقي ليست بعيدة. وقد اختصر أمير المؤمنين (عليه السلام) المشكلة وحلّها بقوله: (حصّنوا أموالكم بالزكاة)[1].

هذه صور من التهلكة التي تحصل لو بخل الناس بأموالهم ولم ينفقوا في ما أمرهم الله تعالى به، وهو شاهد آخر على ما عرضناه في محاضرة سابقة من أن الإسلام يُقدِّم مشروعه كبرنامج إصلاحي شامل في الدنيا، ولا يكتفي بوعود السعادة والنعيم في الآخرة، لأن الإنسان بطبعه يرغب في الأجر العاجل، ويحفزّه على العمل ما يلمسه من نتائج على أرض الواقع، وتخوّفه بالمخاطر والعقوبات المنظورة، وهكذا هو الإسلام في كل تشريعاته حتى العبادية فلم يكتف في الصوم أن يقول أن فيه ثواب الجنة ومغفرة الذنوب ونحو ذلك وإنما قال أيضاً في الحديث النبوي الشريف: (صُومُوا تَصِحُّوا)[2] وقال (صلى الله عليه وآله) أيضاً: (المعدة بيت كل داء، والحمية رأس كل دواء)[3] وقد أثبتت الدراسات الطبية حاجة الإنسان إلى صوم أيام في السنة لتصحيح وظائف جسمه وتنظيم عمل أجهزته وغدده وهرموناته.

وبهذا عُرف وجه الإتيان بهذا التحذير عقب الأمر بالإنفاق للملازمة بينهما، واتضح انسجام وقوع الآية ضمن سياق الأمر بالقتال لحفظ الدين ورد عدوان المعتدين والمفسدين، ومنع وقوع الناس في الفتنة والفساد والانحراف والذي بدأ من الآية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) نهج البلاغة: قصار الكلمات/ رقم ١٤٦، وسائل الشيعة: ٩/ ١٥/ ح١١٤٠٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٣ /ص ٢٥٥.

(٣) موسوعة الأحاديث الطبية: ج ٢ /ص ٤٠٦.

الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠)... إلى أن قال تعالى في الآية ١٩٣: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الى ان وصل الى الاية ١٩٥ وهي التي نقتبس من نورها الآن، فان امتناع الأمة عن بذل المال والجهد والنفس يؤدي إلى اضمحلالها بتسلّط الأعداء عليها وسيطرتهم على مقدراتها. ففي هذا الإنفاق إنقاذ للأمة من التهلكة وليس العكس.

هل ألقى الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه في التهلكة:

فلا يبقى حينئذ وجه للإشكال على حركة الإمام الحسين (عليه السلام) بأنها من إلقاء النفس في التهلكة، لأنه (عليه السلام) حفظ الأمة من التهلكة بتضحياته الجسيمة، وإن النهي عن التهلكة ورد في سياق الأمر بالقتال في سبيل الله فكيف يكون هذا القتال من إلقاء النفس في التهلكة؟ فسياق هذا الآيات يجعل هذا الإشكال غريباً ولا معنى له، وحينئذ لا نحتاج إلى ما أجاب الطبرسي (قدس سره) فإنه بعد أن استدل بالآية على تحريم الإقدام على ما يخاف منه على النفس، وعلى جواز ترك الأمر بالمعروف عند الخوف، لأن في ذلك إلقاء النفس في التهلكة قال: (فإن عورضنا بأن الحسين (عليه السلام) قاتل وحده؟ فالجواب: إنّ فعله يحتمل وجهين أحدهما: إنه ظن أنهم لا يقتلونه لمكانه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) والآخر: إنه غلب على ظنه أنه لو ترك قتالهم قتله الملعون ابن زياد صبراً، كما فعل بابن عمه مسلم، فكان القتل مع عز النفس والجهاد، أهون عليه)[1].

نعم تتحقق التهلكة لو كانت التضحية بلا هدف يستحق ذلك، فالشهادة في

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٢/٢.

سبيل الله تباين تماماً إلقاء النفس في التهلكة لان هدفها اسمى الأهداف وهو اعلاء كلمة الله تعالى، والمعصوم (عليه السلام) أعلم بتمييز هذه الموارد روى الشيخ الصدوق في الإكمال بسنده عن سلمان الفارسي عن النبي (صلى الله عليه وآله): يقول فيه لعلي (عليه السلام): (يا أخي أنت ستبقى من بعدى وستلقى من قريش شدة ومن تظاهرهم عليك وظلمهم لك، فإن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة)[1].

وروى في العيون خبراً طويلاً عن إجبار المأمون للإمام الرضا (عليه السلام) على ولاية العهد وفيه (قال له المأمون: فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك فإن فعلت وإلا ضربت عنقك، فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله عز وجل أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك فأنا أقبل على أن لا أولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده على كراهة منه عليه السلام لذلك)[2].

وفي رسالة الحقوق للإمام السجاد (عليه السلام): (وحق السلطان أن تعلم أنك جُعلت له فتنة وأنه مبتلى فيك بما جعله الله عز وجل له عليك من السلطان، وأن عليك ألا تتعرض لسخطه فتلقي بيدك إلى التهلكة، وتكون شريكاً له في ما يأتي إليك من سوء)[3].

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج١ / ص١٨٠/ح٦٣٦.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج١/ ص١٨٠/ ح٦٣٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٢/ ص٦٢٠.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥) فالمطلوب منّا تحسين العمل والإتيان به بأحسن وجه، وليس الاتيان بالعمل على أي نحو كان لأن التفاوت في الدرجات يكون بحسب حسن العمل قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود:٧)[1] ويتحقق حسن عمل المعروف عموماً ومنه الإنفاق بإخلاص النية وإجادته وإتقانه طبق الموازين الشرعية واجباً كان او مستحباً، وعدم إتباعه بالمنّ والعجُب والرياء، وإخفائه إذا كان إعلانه سبباً لهذه القبائح، وتعجيله قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٨) وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣) وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله (من هَّم بشيء من الخير فليعجلّه فإن كل شيء فيه تأخير فإنَّ للشيطان فيه نظرة)[2] وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (تعجيل البر من البر)[3]، وقال (عليه السلام): (خير الأمور أعجلها عائدة وأحمدها عاقبة)[4]، وقال (عليه السلام): (رأس السخاء تعجيل العطاء)[5] ومن الإحسان وضع البِّر في موضعه، وعدم الاكتفاء بالواجب ما دام المستحب متيسّراً، واختيار المورد الأمثل والأفضل عند التزاحم، والتوازن في الإنفاق بين الإفراط وهو الإسراف والتفريط وهو الإقتار كما نصّت عليه آية الفرقان المتقدمة.

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود:٧) في تفسير من نور القران.

(٢) الكافي: ١٤٣/٢/ح٩.

(٣) غرر الحكم: ح ٥٠٣٣.

(٤) غرر الحكم: ح ٥٢٥٠.

(٥) غرر الحكم: ح ٦٧٤١.

وهذا معنى جارٍ حتى في إنفاق النفس فإن التهور والاندفاع من دون حسابات صحيحة وخطط محكمة يجعله من موارد التهلكة ويحرم المسلمين من أحد عناصر القوة فيه، كما أن التفريط يتحقق بالجبن والانهزام والتخاذل عن أداء العمل المكلف به مما يضعف جبهة الحق، فالفعلان محرمان.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وفق، أليس يقول الله عز وجل: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) يعني المقتصدين)[1].

(١) الكافي: ج٤/ص٥٣/ ح٧.

القبس/١٠

سورة البقرة:﴿١٩٧﴾

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾

موضوع القبس: الذنوب أصولها وكيفية الاحتراز منها وكفاراتها

موعظة:

قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:﴿١٩٧﴾).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (عِبَادَ الله، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُم، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ، فَشِقْوَةٌ لاَزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ[1] لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ[2]، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لاَ يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ، أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ[3] وَحِسَابُهُ! عِبَادَ الله، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلاَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ. عِبَادَ الله، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ)[4].

---

(١) أيام الفناء: يريد أيام الدنيا.

(٢) المراد «بالظّعن» المأمور به ها هنا السير إلى السعادة بالأعمال الصالحة.

(٣) تَبِعَتُهُ: ما يتعلق به من حق الغير فيه.

(٤) نهج البلاغة: ٥١/٢/ خطبة: ١٥٧.

ومن خطبة له (عليه السلام): (أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ ومَعَاذٌ مُنْجِحٌ،.... فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ، فَإِنَّهُ لا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ، مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، ومَا فَاتَ أَمْس مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ، الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي، والْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي فـ﴿اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢))[1].

الغرض من التشريعات تحصيل التقوى:

وتصرّح الآيات القرآنية كقوله تعالى في آية الصوم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣) بأن الهدف من التشريعات هو تربية الإنسان لتحصيل ملكة التقوى وهي حالة تحصل في قلب الإنسان تحرّكه نحو كل ما يرضي الله تبارك وتعالى سواء كان واجباً أو مستحباً وتمنعه عن اقتحام كل ما يوجب سخط الله تبارك وتعالى أو تقلل من مرتبة القرب إليه سبحانه سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً، ويكون الإنسان هو الرقيب على نفسه في كل تلك الحركات والسكنات حتى في خلواته حينما لا يطّلع عليه أحد فإنه يُرَوِّضُ نفسه بالتقوى، قال تعالى في التمييز بين الفريقين ﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ۞ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۞ فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فإن الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى

(١) نهج البلاغة: ٢٢٣/١/ خطبة ١١٤.

﴿فإن الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات:٣٤-٤١).

فالمتقي هو من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى مطلق الهوى سواء كان محرّما أو مكروهاً أو مباحاً لا يليق بمقام ربّه. ولذا كانت التقوى خير الزاد ليوم المعاد ﴿وَتَزَوَّدُواْ فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧) ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩) ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور:٥٢).

وتكرر الحث على التقوى في آيات كثيرة في القرآن الكريم وربما تكررت في الآية الواحدة كالتي مرّت آنفاً، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨) ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فإن اللَّه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦).

وإضافة إلى تلك الآثار الأخروية للتقوى فإن القرآن الكريم يلفت نظرنا إلى آثار مباركة عظيمة للتقوى في الدنيا والآخرة:

(منها) تكفير السيئات؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (المائدة:٦٥) ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ (الطلاق:٥).

(ومنها) البركات المادية والمعنوية؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

(ومنها) إيجاد الفرج والمخرج والرزق بدون احتساب؛ قال تعالى: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢-٤).

(ومنها) إلهام العلم؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّه وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه وَاللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢).

(ومنها) قذف البصيرة ونور الفرقان في القلب؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّه يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّه ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

وغيرها كثير مما لا يسعه المقام وتستحق إفرادها بكتاب مستقل.

معنى التقوى:

سُئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن معنى التقوى، وتفسيرها، فاختصر (عليه السلام) الجواب بقوله: (لا يفقدك الله حيث امرك، ولا يراك حيث نهاك)[1].

فللتقوى ركنان:

الأول: ترك ما يكره الله تبارك وتعالى، ويسخطه، وهو أوسع من المحرمات، فيشمل المكروهات المؤثرة في تكامل الإنسان، وتقربه من الله تعالى.

الثاني: فعل ما يحبه الله تعالى، ويرضاه، وهو أعم من الواجبات، فيشمل المستحبات، الموجبة لرضا الله تبارك وتعالى، ومحبته.

فمن أراد الكمال سار بهذين الطريقين معاً، ولا يغني أحدهما عن الآخر، فمن

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٢٣٩/١٥.

قام ببعض الطاعات لكنه لم يجتنب المعاصي، والعياذ بالله، فإنه يهدم ما بناه بتلك الطاعات، وسوف لا يقوم له بناء أبداً، روي عن المعصومين (عليهم السلام) قولهم: (جدّوا واجتهدوا، وإن لم تعملوا فلا تعصوا، فإن من يبني ولا يهدم يرتفع بناؤه وإن كان يسيراً، وإن من يبني ويهدم يوشِك أن لا يرتفع بناؤه)[1].

ونفس المعنى يجري في الأمراض البدنية، فإن من أُبتلي بمرض مُعيّن - كالسكري أجاركم الله تعالى منه- فإن الطبيب يأمره بأخذ بعض العلاجات، وينهاه عن ارتكاب بعض الأفعال، أو تناول أطعمة تضره، بكميتها، أو نوعها، فإذا أراد الحفاظ على صحته فلا بد أن يأخذ بهما معاً.

ولو حاولنا ترجيح أحد الركنين على الآخر، أو قل بيان أيهما أهم، وأكثر تأثيراً في تحصيل التكامل.

فإن الجواب يكون لصالح الاجتناب عما يسخطه الله تبارك تعالى ويكرهه، وقد دلّت عليه بعض الأحاديث الشريفة كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (اجتناب السيئات أولى من اكتساب الحسنات)[2]، ومنها ما ورد في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في آخر جمعة من شعبان، لاستقبال شهر رمضان، وسأله علي (عليه السلام) عن أفضل الأعمال في هذا الشهر قال (صلى الله عليه وآله): (الورع عن محارم الله عز وجل)[3].

معرفة الذنوب:

فمعرفة الذنوب - بمداها الواسع، ومراتبها الكثيرة بحسب مستويات

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ٢٨٦/٦٧/ح٨.

(٢) غرر الحكم- الآمدي: ٨١/ ١٥٥٩.

(٣) الأمالي- الشيخ الصدوق: ١٥٥.

الأشخاص- وتحصيل القدرة على اجتنابها – صغيرها وكبيرها- مما يهتم به الساعون إلى الكمال، لذا فقد شُغل حيز كبير من القرآن الكريم ببيان الذنوب، وآثارها في الدنيا، وعاقبتها في الآخرة، والتحذير منها، وبيان ما يكفّرها ويزيل آثارها، وقصص الأمم التي عكفت على المعاصي ولم تجتنبها، وما حلّ بها من العذاب بسبب ذلك، والحياة السعيدة لمن اجتنبها، ولو حاولنا جمعها لوجدنا أن القرآن الكريم كله يعالج هذه القضية، بشكل مباشر، أو غير مباشر.

لماذا يذنب العبد؟

لا يمكن التقليل من قوة ضغط الذنوب، والخطايا على الإنسان، حتى يندفع إلى ارتكابها، مع كثرة ما يعرف عن آثارها الوخيمة في الدنيا، وعاقبتها الفظيعة في الآخرة، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أَلاَ وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ[1]، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا[2]، فَتَقَحَّمَتْ[3] بِهِمْ فِي النَّارِ)[4] فالخطايا كالخيول العنيدة المتمردة على صاحبها ولا لجام لها ليمسك بها فتقتحم بصاحبها إلى المخاطر.

وهنا يأتي السؤال: من أين جاءت هذه القوة للخطايا؟

أو قل: إذا كانت الذنوب بهذه الخطورة وهذا التأثير المدمر في حياة الإنسان فلماذا يرتكبها، وهذا بحث نفسي، واجتماعي، وقد يحتاج إلى إجراء استبيان،

---

(١) الشُمُسُ: جمع شَمُوس وهي من «شَمَسَ» كنصر أي منع ظهره أن يُرْكَبَ.

(٢) لُجُمُها: جمع لِجام، وهو عنان الدّابة الذي تُلجم به.

(٣) تقحمت بهم في النار: أردتهم فيها.

(٤) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٤٨/١.

ولكن يمكن استفادة بعض مناشئ الذنوب مما ورد في الروايات الشريفة، ينفع الالتفات إليها في اجتنابها وتوقيها، عن الإمام الباقر (عليه السلام): (توقّي الصرعة خير من سؤال الرجعة)[1]:

١- **الجهل بمقام الربوبيّة، ووظائف العبودية:** فإن من يعرف الله تعالى يتجنب المعاصي بمقدار تلك المعرفة، ويؤتيه الله تعالى فرقاناً، يميز به بين الحق والباطل، ﴿إنْ تَتقوا اللهَ يَجعَل لَكُم فُرقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُم سَيئَاتِكُم وَيَغفِرْ لَكُم وَاللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩)، حتى إذا اكتملت عنده المعرفة، كالمعصومين (عليهم السلام)، أصبح عبداً خالصاً لله تعالى، ينفر بطبعه من المعصية، ويتقزز منها، فمن رأى الغيبة على حقيقتها، ووجدها أكلاً للحم أخيه ميتاً، هل يقدم عليها؟

ومن رأى الدنيا جيفة قد اجتمعت عليها الكلاب، هل يتنافس عليها؟ وهكذا.

٢- الجهل بأمور الدين: فما دام الإنسان لم يتفقه في دينه، ولم يتعرف على ما يقربه إلى الله تعالى، ويجنبه سخطه، فإنه يتورط في المعاصي، من حيث يعلم أو لا يعلم، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه)[2]؛ وكتطبيق لهذا المبدأ فقد ورد في التجارة قول الإمام الصادق (عليه السلام): (من أراد التجارة فليتفقه في دينه، ليعلم بذلك ما يحلُّ له مما يحرم عليه، ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجر، تورط في الشبهات)[3].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٨٧/٧٥.

(٢) الإرشاد- الشيخ المفيد: ٢٩٩/١.

(٣) المقنعة- الشيخ المفيد: ٥٩١.- وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٣٨٢/١٧/ح٤.

والتحذير لا يختص بالتجارة، وإنما يعم كل شؤون الحياة؛ لأنها كلها مقنَّنة بأحكام في الشريعة، فالجهل بها يوقع في المعصية، كجهل ربِّ الأسرة، بأن كثيراً مما يفعله في البيت هو ظلم لزوجته، وأسرته، والظلم ذنب لا يُغفر حتى يرضى المظلوم.

٣- **وجود الدوافع وأصول الذنوب في النفس الإنسانية:** المعبَّر عنها بالغرائز والشهوات، والتي خُلقت أصلاً لتؤدي أدواراً إيجابية في حياة الإنسان، ولتكمّل قواه الأخرى، كالعقلية، والجسدية، والقلبية، لكنها إذا خرجت عن حدّها إلى جانب الإفراط، أو التفريط، كانت سبباً للوقوع في المعاصي.

أشار إلى هذه القوى هشام بن الحكم، في ما نقل عنه، ابن أبي عمير في الاستدلال على عصمة الإمام (عليه السلام) قال: (إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه) - أي المعصوم- ثم بيّن ذلك فراجعه[1].

٤- **ويعاضدها الشيطان: بالتزيين، والإغواء، والتطمين، والتهوين من الأمر، حتى يقارف الذنب، والمعصية،** قال تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر:٣٩).

وفي دعاء للإمام السجاد (عليه السلام): (فَلَوْلا أَنَّ الشَّيْطَانَ يَخْتَدِعُهُمْ عَنْ طَاعَتِكَ مَا

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٩٢/٢٥. عن كتب الشيخ الصدوق (قدس سره)، معاني الأخبار، والعلل، والأمالي، والعيون.

عَصَاكَ عَاص، وَلَوْلا أَنَّهُ صَوَّرَ لَهُمُ البَاطِلَ فِي مِثَالِ الْحَقِّ مَا ضَلَّ عَنْ طَرِيْقِكَ ضَالٌّ)[1]، وقد ورد التحذير من إغراء الشيطان، وإغوائه كثيراً في القرآن الكريم، والروايات الشريفة مما لا يخفى على أحد.

هذا التزيين الشيطاني، وهذه الموافقة لأهواء النفس، وشهواتها جعل للخطايا تأثيراً ساحراً يُسكر صاحبه حتى يتورط فيها، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (احذروا سكر الخطيئة، فإن للخطيئة سكراً كسكر الشراب، بل هي أشدُّ سكراً منه، يقول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة:١٨))[2].

٥- **الاغترار بالستر الإلهي** على العاصين: وعدم فضح الإنسان بذنبه (فَلَو اطَّلَعَ اليَوْمَ عَلىٰ ذَنْبِي غَيْرُكَ مافَعَلْتُهُ وَلَوْ خِفْتُ تَعْجِيلَ العُقُوبَةِ لاجْتَنَبْتُهُ لا لأَنَّكَ أَهْوَنُ النَّاظِرِينَ إلَيّ وَأَخَفُّ المُطَّلِعِينَ بَلْ لأَنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السَّاتِرِينَ وَأَحْكَمُ الحاكِمِينَ وَأَكْرَمُ الاَكْرَمِينَ، سَتَّارُ العُيُوبِ غَفَّارُ الذُّنُوبِ عَلامُ الغُيُوبِ تَسْتُرُ الذَّنْبَ بِكَرَمِكَ وَتُؤَخِّرُ العُقُوبَةَ بِحِلْمِكَ... وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي يَحْلُمُ عَنِّي حَتَّىٰ كَأَنِّي لاذَنْبَ لِي)[3].

وذلك كله لسعة رحمة الله، وطول أناته على ذنوب عباده، رحمة بالعباد، وإعطاءهم مزيداً من الفرص للندم، والرجوع، والإقلاع عن الذنب، وحبّاً من الله لعباده، وشفقة عليهم، فيتمادى الإنسان ويغتر، ظاناً أن الفرصة مفتوحة على

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة- الإمام زين العابدين (عليه السلام): ١٨٤/الدعاء٣٧.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ١٠٢/٧٤.- مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٤٥٣.

(٣) من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام)، المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي. مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي: ٥٨٤.- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٢٣٩.

الدوام، ولا يعلم أنه قد يوصله تماديه واغتراره إلى حد هتك الستر، وانغلاق الباب، وسدّ الفرصة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (النساء:١٧-١٨).

٦- **استصغار الذنب والاستخفاف به:** لما ارتكز في الذهن من أن الذنوب الموعود بها النار هي الكبائر، أما غيرها فيمكن ارتكابها، وهذا التفكير بحد ذاته من الكبائر؛ لما فيه من الجرأة على الله تعالى، وعدم الاعتبار بعظمته، وعلو شأنه، وهو موجب لسخط الله، وسلب اللطف عن العبد، فتؤدي به هذه الصغائر إلى الوقوع في الكبائر والعياذ بالله.

لذا كثر التحذير من استصغار أي ذنب، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تستصغروا قليل الآثام، فإن الصغير يُحصى ويرجع إلى الكبير)[1]، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال: إياكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه

(١) الخصال- الشيخ الصدوق: ٦١٦/ح١٠.

في إمام مبين)[١]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أعظم الذنوب عند الله سبحانه ذنب صغر عند صاحبه)[٢]، وعنه (عليه السلام): (إن الله أخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغروا شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه وأنت لا تعلم)[٣].

٧- **الغفلة:** فإن كثيراً من الذنوب - وبعضها من الكبائر - تُرتكب لا للجهل بها وإنما للغفلة، كالغيبة، التي يُعلم أنها من الكبائر، ووصفها الله عز وجل بأشنع الأوصاف، وهي إدام أهل النار، ومع ذلك فقد أصبحت الغيبة فاكهة المجالس، والمادة الرئيسية للأحاديث، فينبغي للمؤمن أن يتجنب الغفلة؛ بترك المقدمات الموجبة لها، وإذا عُرضت عليه فليخرج منها فور التفاته؛ بذكر الله تعالى، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١)، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الغفلة ضلالة)[٤]، وعنه (عليه السلام): (إياك والغفلة والاغترار بالمهلة، فإن الغفلة تفسد الأعمال)[٥]، ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر: (همَّ بالحسنة وإن لم تعملها، لكيلا تُكتب من الغافلين)[٦].

٨- **سوء الخلق:** عن النبي (صلى الله عليه وآله): (لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق، فإن

---

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٢/٢٨٨/ح٣.

(٢) جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي: ١٣/ ٣٣٤.

(٣) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١١٣.

(٤) غرر الحكم - الآمدي: ٢٥/ حكمة: ٢٤٨.

(٥) عيون الحكم والمواعظ - علي بن محمد الليثي (من أعلام القرن السادس): ٩٩.

(٦) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٥٣٦. - مكارم الأخلاق - الشيخ الطبرسي: ٤٦٩.

صاحبه كلما خرج من ذنب دخل في ذنب)[١].

٩- **الاختلاط الكثير مع الناس**: ومجالسة البطّالين، والخوض في فضول الكلام، فهذه الأمور كلها مظنة الوقوع في الذنوب، والمحرمات؛ لذا ورد التحذير من حضور هذه المجالس، والمشاركة في اللغو الباطل، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (المدثر:٤٥)، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ[٢]، لِلْإِيمَانِ وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ)[٣]، وفي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما لا يعينه)[٤].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إياك والهذر، فمن كثر كلامه كثرت آثامه)[٥]، وعنه (عليه السلام): (الْكَلاَمُ فِي وَثَاقِكَ[٦]، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُنْ[٧]، لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ[٨]، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً)[٩].

---

(١) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٤٣٤.- وسائل الشيعة (آل البيت)- العاملي: ٢٨/١٦.

(٢) منسأة بفتح الميم والهمزة: أي تأخير وتأجيل.

(٣) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ١٥٠/١/الخطبة٨٦.

(٤) كنز العمال- المتقي الهندي: ٦٤١/٣.

(٥) عيون الحكم والمواعظ- علي بن محمد الليثي (من أعلام القرن السادس): ٩٧.

(٦) الوَثَاق - كَسَحَاب-: ما يُشَدّ به ويُرْبَط، أي: أنت مالك لكلامك قبل أن يصدر عنك، فإذا تكلّمْت به صرْتَ مملوكاً له.

(٧) خَزَنَ - كنَصر-: حَفِظ ومنع الغيرَ من الوصول إلى مخزونه.

(٨) الوَرِق - بفتح فكسر-: الفِضّة.

(٩) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٩١/٤/الحكمة٣٧٨.

١٠- سوء فهم بعض ما ورد في الروايات الشريفة من الثواب على بعض الأفعال: كدخول الجنة بالبكاء على الحسين (عليه السلام) وإقامة شعائره وشفاعة أهل البيت (عليهم السلام)، فقد أعطى الله تعالى هذه الكرامات لأهل البيت (عليهم السلام)، رحمة بالعباد لكي تسدّ الخلل، والتقصير، والقصور مع حسن النية، والعزم على فعل الخير، والطاعة، وبذل الوسع في ذلك، وليس بأن تكون سبباً للتمادي، والجرأة، والعناد، واللجاجة، قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء:٢٨) وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٥٦)، وكما عبّر الإمام الرضا (عليه السلام) عن إعطاء هذه الدرجات أنه (بشرطها وشروطها)[١]، في حديث سلسلة الذهب المعروف.

وقد حذّر الإمام الصادق (عليه السلام) في وصيته عند وفاته، وقد جمع أقرباءه ومتعلقيه: (إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة)[٢]، وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (لا تتهاون بصلاتك، فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قال عند موته: ليس مني من استخف بصلاته)[٣].

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق: ٢٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٢٠٦/١.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٦٩/٣/ح٧.

تلخيص بأسباب الذنوب:

وقد لخّص الإمام السجاد (عليه السلام) ذكر هذه الأسباب لمقارفة الذنوب بما ورد عنه، في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة - الذي يُدعى به في أسحار شهر رمضان-، قال (عليه السلام): (إلهِي، لَمْ أَعْصِكَ حِيْنَ عَصَيْتُكَ وَأَنا بِرُبُوبِيَّتِكَ جاحِدٌ، وَلا بِأَمْرِكَ مُسْتَخِفٌ، وَلا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلا لِوَعِيدِكَ مُتَهاوِنٌ، لكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَغَلَبَنِي هَوَايَ، وَأَعانَنِي عَلَيْها شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِتْرُكَ المُرْخَى عَلَيَّ... مالِي كُلَّما قُلْتُ قَدْ صَلُحَتْ سَرِيرَتِي وَقَرُبَ مِنْ مَجالِس التَّوّابِينَ مَجْلِسِي، عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزالَتْ قَدْمِي وَحالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ؟

سَيِّدِي لَعَلَّكَ عَنْ بابِكَ طَرَدْتَنِي، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخِفا بِحَقِّكَ فَأَقْصَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُعْرِضا عَنْكَ فَقَلَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقامِ الكاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شاكِرٍ لِنَعْمائِكَ فَحَرَمْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجالِسِ العُلَماءِ فَخَذَلْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي فِي الغافِلِينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي آلِفُ مَجالِسَ البَطَّالِينَ فَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خَلَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تَسْمَعَ دُعائِي فَباعَدْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ بِجُرْمِي وَجَرِيرَتِي كافَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيائِي مِنْكَ جازَيْتَنِي)[1].

كيف نحصل القدرة على اجتناب الذنوب؟

إن اجتناب الذنوب يحتاج **أولاً: إلى معرفة تفصيلية بها**؛ لأن بعضها وإن كان معلوماً كالكبائر، إلا أن الكثير منها غير معلوم، وبعضها لا يلتفت إليها أحد، كعدم قضاء حوائج المؤمنين، والاهتمام بها، ففي رواية عن الإمام الصادق وولده

(١) مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي: ٥٨٤.- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٢٣٩.

الكاظم (عليه السلام): (من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له سُلّط عليه شجاعاً[١] ينهش إبهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً)[٢].

وهكذا غيرها – سيأتي في ملحق القبس[٣] ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة:٦) ان شاء الله تعالى- وذكرنا أمثلة عليها من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في الاستغفار من كل نعمة لم يشكرها، أو ظُلم أحدٌ عنده فلم ينصره، وهكذا، ناهيك بالمحرمات المعروفة، وهذا يتطلب تفقهاً، واطلاعاً مستمراً على كتب السلف الصالح، والاستماع دائماً إلى المحاضرات الإرشادية، والوعظيّة.

ومما يُقلل فرصة ارتكاب الذنب **زيادة المعرفة بالله تعالى، وتقوية العلاقة به تبارك وتعالى**، كتذكر أنه محسن إلينا بما لا يُعد ولا يُحصى من النعم، و﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) و﴿أَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧)، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يُعصى شكراً لنعمته)[٤]، وعن الإمام الرضا (عليه السلام) في حديث قال: (ولو لم يخوِّف الله الناس بجنة ولا نار لكان الواجب عليهم أن يطيعوه ولا يعصوه لتفضله عليهم وإحسانه إليهم وما بدأهم به من إنعامه الذي ما استحقوه)[٥].

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١٩٤/٢.

(٢) الشجاع كغراب وكتاب: الحيّة.

(٣) أنظر: ملحق قبس قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة:٦) في تفسير من نور القرآن.

(٤) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٦٤/٧٠.

(٥) الخصال- الشيخ الصدوق: ٦١٤.

أو الالتفات إلى أن الذنوب تمنع بعض عطاء الله تبارك وتعالى، ونحن محتاجون إليه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو لم يرغّب الله سبحانه في طاعته لوجب أن يطاع رجاء رحمته)[1].

أو تذّكر أنك بمحضر الله تبارك وتعالى، وتحت نظره، ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٩) ، فمعصيته والحال هذه جرأة على جبار السماوات والأرض، وتحدٍ لعظمته، من وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر: (يا أبا ذر لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت)[2]، ومن كلماته (صلى الله عليه وآله): (لا تنظروا إلى صغر الذنب ولكن انظروا إلى من اجترأتم)[3].

أو أن يلتفت إلى أن هذا الذنب قد يوجب هتك الستر؛ الذي ضربه الله تعالى عليه، فتفضحه الذنوب، أو أن ينال به سخط الله تعالى، وغضبه بحيث لا تنفعه توبة، ولا تدركه الألطاف الإلهية، فقد أخفى الله غضبه في معصيته، فلا يُعلم أي معصية توجب ذلك، فعلى العبد أن يتوقاها جميعاً، من دعاء الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ، فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلانُكَ إِلىٰ حَيْثُ النَّصَبِ وَالْحِرْمانِ)[4].

في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (للمؤمن اثنان وسبعون ستراً فإذا

---

(١) غرر الحكم- الآمدي: ٥٦٨/ حكمة: ٢٧.

(٢) الأمالي- الشيخ الطوسي:٥٢٨.

(٣) بحار الأنوار- المجلسي: ١٦٨/٧٤.

(٤) مقطع من دعاء الصباح. مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٩٤.

أذنب ذنباً انهتك عنه ستر، فإن تاب رده الله إليه، وسبعةً معه، فإن أبى إلا قدما في المعاصي، تهتك عنه أستاره، فإن تاب ردها الله ومع كل ستر منها سبعة أستار، فإن أبى إلا قدما قدما في المعاصي، تهتكت أستاره وبقي بلا ستر، وأوحى الله عزوجل إلى الملائكة: أن استروا عبدي بأجنحتكم)[١].

وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من هم بسيئة فلا يعملها فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً)[٢].

ومما يُساعد على تجنب المعاصي أن يعلم بأن في ارتكاب الذنب إيذاءً، وإساءة لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولأمير المؤمنين (عليه السلام)، ولفاطمة (عليها السلام) والأئمة المعصومين (عليهم السلام).

ونحن نحبهم ولا نريد إيذاءهم، وهم مطّلعون على أعمال العباد، كما نطقت به الآية الكريمة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، روى سماعة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (مالكم تسوؤن رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟! فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤا رسول الله وسروه)[٣].

ومن المعرفة الموجبة لتجنب المعاصي الالتفات إلى الهدف من

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري: ٣٢٥/١١.- بحار الأنوار- المجلسي: ٦٣/٧٣.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٢/٢.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٢١٩/١.

وجودنا في هذه الدنيا، وما ينبغي أن نصرف أعمارنا فيه، مما يُوصل إلى الغاية، وحينئذٍ سوف لا يكون للإنسان مجال للعب، والعبث، واللهو، فضلاً عن ارتكاب المعاصي، عن الإمام الكاظم (عليه السلام): (إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض)[1].

آثار الذنوب في الدنيا والآخرة:

ومما يُحفّز على ترك الذنوب معرفة آثارها في الدنيا، والآخرة، ونتعرض هنا لبعض آثارها في الدنيا، أما في الآخرة ابتداءً من الموت وما بعده من أهوال البرزخ، والحساب ويوم القيامة، فإن في القرآن الكريم ما يكفي لبيان تلك العظائم، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:٢)، ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ (المزمل:١٧)، ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨١)، ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام:١٥)، ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٩٠)، وأهون ما يُذكر من تلكم الآثار الحجب عن النعيم مدة قد تطول كثيراً، في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن العبد ليُحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٨٧.- بحار الأنوار- المجلسي: ٣٠١/٧٨/ح١.

يتنعمن)[١].

إن معرفة هذه الآثار الوخيمة للذنوب توجب على كل عاقل اجتنابها، عن الإمام علي (عليه السلام): (عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار)[٢]، وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (عجبت لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار)[٣].

وقد حصلنا من الروايات على جملة من تلك الآثار:

١- **قصر العمر وتعجيل الفناء:** بحيث يظهر من أقوال المعصومين (عليهم السلام) شيء عجيب، وهو: أن أكثر الناس لا يبلغون أعمارهم المقدرة بسبب الذنوب، مما يسمى بالأجل المخروم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبر أكثر من حياته بالعمر)[٤]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار)[٥]، وعنه (عليه السلام) قال: (تجنبوا البوائق يُمَدُّ لكم في الأعمار)[٦].

ومن الذنوب التي اشتهر أنها تعجل الفناء قطيعة الرحم، عن رسول الله

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٢/٢/ح١٩.

(٢) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٢٠٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٣٥٩/٣.

(٤) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٣٦٢.- كشف الغمة- الإربلي: ١٤٢/٣.

(٥) الأمالي- الشيخ الطوسي: ٣٠٥.

(٦) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)- الشيخ الصدوق: ٤٠/١.

(صلى الله عليه وآله): (ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها ولا تؤخَّر إلى الآخرة، عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان)[١].

٢- **إن الذنوب سبب للمصائب والآلام والنكبات** التي يتعرض لها الفرد والمجتمع[٢]: في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (أما إنه ليس من عرق يُضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠)، ثم قال (عليه السلام): (وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به)[٣]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (إن أحدكم ليكثر به الخوف من السلطان وما ذلك إلا بالذنوب فتوقوها ما استطعتم ولا تمادوا فيها)[٤].

وقد تُستحدث لهم بلاءات لم يكن يعرفونها من قبل، في الكافي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)[٥].

٣- **إنها توجب اسوداد القلب وانغلاقه فلا يستجيب للهداية:** عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان أبي يقول: ما من شيء أفسد من خطيئة، إن

---

(١) الأمالي- الشيخ المفيد: ٢٣٧.- الأمالي- الشيخ الطوسي: ١٤.

(٢) للمزيد من الاطلاع: راجع قائمة بالذنوب التي تغيّر النعم، والتي تنزل النقم. والتي تهتك العصم، والتي تعجل الفناء، والتي ترد الدعاء. بحار الأنوار: ٣٧٥/٧٣-٣٧٦، عن معاني الأخبار للصدوق: ٢٧٠-٢٧١.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٦٩/٢.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٥/٢.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٢/٢.

القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله)[١]، أي يصبح كالإناء المقلوب، فلا يحتفظ بشيء من الحق، والهدى، ولا تؤثر فيه الموعظة، وفيه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً)[٢]، وشاهده من كتاب الله قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤).

٤- **نقص الرزق:** عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن العبد ليذنب الذنب فيُزوى - أي يُقبض ويُصرف- عنه الرزق)[٣]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا غضب الله عز وجل على أمة ولم يُنزل بها العذاب غلت أسعارها وقصرت أعمارها ولم تربح تجّارها ولم تُزك ثمارها ولم تغزر أنهارها وحبس عنها أمطارها وسُلّط عليها شرارها)[٤].

٥- **الحرمان من الطاعات:** خصوصاً المهمة منها، كصلاة الليل، أو النوم عن صلاة الصبح، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الرجل يذنب الذنب فيُحرم من صلاة الليل، وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)[٥].

٦- **زوال النعم:** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا

---

(١) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٤٨١.- الكافي- الشيخ الكليني: ٢٦٨/٢.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧١/٢.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٠/٢.

(٤) الخصال- الشيخ الصدوق: ٣٦٠.- الكافي- الشيخ الكليني: ٣١٧/٥.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني: ٢٧٢/٢.

بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله قضى قضاءً حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها، حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة)[1]، وعنه (عليه السلام): (إن الله عز وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه، أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا ناس، كانوا على طاعتي، فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عما أحب إلى ما أكره، إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء، فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون)[2].

وضرب القرآن الكريم مثلاً في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٢٧٣/٢.

(٢) الكافي – الشيخ الكليني: ٢٧٤/٢.

مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1]

وقد ورد في الأحاديث الشريفة أن من الذنوب التي تغيِّر النعم وتعجِّل عقوبتها البغي على الناس.

٧- **عدم استجابة الدعاء والإبطاء في تحقيق ما يطلبه الداعي**، قال الباقر (عليه السلام): (إن العبد ليسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاؤها إلى أجل قريب، أو وقت بطيء، فيذنب العبد عند ذلك ذنباً، فيقول الله للملَك الموكَّل بحاجته: لا تنجز له حاجته، واحرمه إياها، فإنه تعرَّض لسخطي واستوجب الحرمان مني)[2].

٨- **نكد الحياة وشقاؤها وتعاستها**: قال تعالى: ﴿وَمَن أَعرَضَ عَنْ ذِكرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أعمَى﴾ (طه:١٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۞ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ

---

(١) بيان الشاهد: أنه كان لأهل سبأ بساتين، ورياض غنّاء؛ عن يمين بلادهم وشمالها، وطلب منهم ربّهم أن يشكروا نعمه، فأعرضوا، فأرسل عليهم سيلاً من المطر الشديد، والجرذ الذي نقب السد جزاءً لتمردهم، وجعل لهم على طول المسافة بينهم وبين الشام قرىً ليستريحوا، ويتزودوا لسفرهم، فكانوا يقيلون في قرية، ويبيتون في أخرى، حتى يصلوا آمنين من المخاوف، والمضار، فقال العصاة: باعد بين أسفارنا - أي أزل القرى واجعل المسافات شاسعة في الصحراء- ليصعب على غير التجار، والمتمولين، والمترفين، السفر والتجارة، ويحرموا الفقراء، ويتباهون عليهم باتخاذ المراكب.

(٢) الاختصاص- الشيخ المفيد: ٣١.

ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف:٣٦-٣٩)، فمن يتعامى عن الحق، واتباعه، يخلّي الله تعالى بينه وبين شيطانه، يغويه ويصده سبيل الله، ويكون ملازماً له فيشقيه، ويتعبه، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت:٢٥).

٩- تشوّش الفكر، وانشغال الذهن، وسوء الحفظ، والحرمان من العلم النافع المقرِّب إلى الله تعالى: بسبب الصراع الذي يعيشه، ووخز الضمير، وخوف الفضيحة، والعقاب، والذلة الباطنية التي يحسّ بها، ولحرمانه من لطف الله تعالى، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (اتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات، إن العبد ليذنب الذنب؛ فينسى به العلم الذي كان قد علمه)[1]، وهو ما عبّر عنه قول:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ ... ونور الله لا يؤتى لعاصي[2]

١٠- ويعم أثر الذنوب حتى يتضرر به الآخرون: وربما المجتمع كله، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الأنفال:٢٥)، وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيَّره ابتلي، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه)[3].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٧٧/٧٣/ح١٤.

(٢) يُنسب هذا الشعر الى الإمام الشافعي. أنظر: تفسير الآلوسي- الآلوسي: ٩٠/٦.- موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني:٤٨٠/١.

(٣) الجامع الصغير- جلال الدين السيوطي: ٦٦٨/١.

والخلاصة:

أنه إذا أراد الإنسان أن يوفقه الله للمزيد من طاعته فليترك الذنوب.

وإذا أراد أن يحيى حياة مطمئنة سعيدة صافي البال فليترك الذنوب.

وإذا أراد طول العمر بخير وعافية وسعة رزق فليترك الذنوب.

وإذا أراد أن تدوم عليه نعم الله وتقل عليه المصائب فليترك الذنوب.

وإذا أراد سلامة القلب واللحاق بالصالحين فليترك الذنوب.

ولذا كان يوم العيد الحقيقي، هو كل يوم لم تجترح فيه ما يكرهه الله تبارك وتعالى، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض الأعياد: (إنما هو عيدٌ لمن قِبل الله صيامه وشكر قيامه، وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد)[1].

العواصم من الذنوب:

على رأس العواصم من الذنوب - وهو الأصل فيها- **اللطف الإلهي، الذي به عصم الله تعالى** أنبياءه، ورسله، والصالحين من عباده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٧٤).

عن أبي حمزة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داوود النبي (عليه السلام)، أن ائت عبدي دانيال فقل له: إنك عصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، فإن أنت عصيتني الرابعة لم أغفر

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٣٦/٨٨.

لك، قال: فأتاه داوود (عليه السلام) فقال له: يا دانيال، إني رسول الله إليك، وهو يقول لك: إنك عصيتني فغفرت لك وعصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، فإن أنت عصيتني الرابعة لم أغفر لك. فقال له دانيال: قد بلغت يا نبي الله. قال: فلما كان في السَحَر قام دانيال وناجى ربه، فقال: يا رب إن داوود نبيك أخبرني عنك: إني عصيتك فغفرت لي، وعصيتك فغفرت لي، وأخبرني عنك أني إن عصيتك الرابعة لم تغفر لي، فوعزتك لأعصينك ثم لأعصينك، ثم لأعصينك، إن لم تعصمني)[1].

أي: يا رب إنك إن وكلتني إلى نفسي فإني لا أستطيع أن أعصمها من الذنوب، إلا أن تعصمني أنت برحمتك.

ومن العواصم الدعاء، والذكر، واليقظة كلما اعترته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:٩٩)، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أكثر الدعاء تسلم من سَورة الشيطان)[2]، وقال (عليه السلام): (تحرّز من إبليس بالخوف الصادق)[3].

ومنها: تجنب الحضور، والتواجد في الأجواء المساعدة على المعصية، لقطع منافذ الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، بحيث يصبح ارتكاب المعصية متعذراً، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ثلاث من حفظهن كان معصوماً من الشيطان الرجيم ومن كل بليةٍ: من لم يخلُ بامرأة ليس يملك منها شيئاً، ولم يدخل

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٣٥/٢.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٩/٧٨/ح٦٤.

(٣) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٢٨٥.

على سلطان، ولم يُعِن صاحب بدعة ببدعته)[١]؛ والإكثار من الوجود في المساجد ومجالس الصالحين فإنها تمنع من الوقوع في الذنب، قال علي (عليه السلام): (من العصمة تعذر المعاصي)[٢]، وعنه (عليه السلام): (من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان:... أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً)[٣].

ومنها: المراقبة، والمحاسبة الدقيقة والمستمرة للنفس، والأحاديث الآمرة بذلك كثيرة، روى الشيخ الطوسي (قدس سره) في كتاب الغيبة بسنده إلى أبي هاشم الجعفري قال: (سمعت أبا محمد (عليه السلام) يقول: من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل: ليتني لا أؤاخذ إلا بهذا، فقلت في نفسي: إن هذا لهو الدقيق ينبغي للرجل أن يتفقد من أمره، ومن نفسه كل شيء، فأقبل عليَّ أبو محمد (عليه السلام) فقال: يا أبا هاشم صدقت، فالزم ما حدثت به نفسك، فإن الإشراك في الناس أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء، ومن دبيب الذر على المسح الأسود)[٤].

ومنها: استعظام الذنب واستفضاع عاقبته، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلة، والإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبدٍ شراً أنساه ذنوبه)[٥]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مرَّ على

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٩٧/٧١.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٦٤/٧٠.

(٣) ثواب الأعمال- الشيخ الصدوق: ٢٧.- النهاية- الشيخ الطوسي: ١٠٨.

(٤) الغيبة- الشيخ الطوسي: ٢٣١/١.- مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٥٣٨/٣.

(٥) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٤٦٠.

أنفه)[١].

ومنها: عدم الإعجاب بالنفس، وما يصدر منها من طاعات؛ لأن ذلك يوجب إيكال العبد إلى نفسه فيذنب، حتى يكون له واعظاً، ومؤدباً من نفسه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب؛ ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً)[٢].

مكفرات الذنوب:

إن الله تعالى يعلم ضعف العبد عن مسك زمام نفسه الأمّارة بالسوء، ومقاومة غواية الشيطان، وتزيين الشهوات، ويعلم بجهل الإنسان بعواقب أفعاله، وهو أشفق على عباده وأرحم بهم من أنفسهم، وأكرم من أن يقابلهم على سيئاتهم بمثلها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (فاطر:٤٥)، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به)[٣]، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أَيدِيكُم وَيَعفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

فضاعف سبحانه وتعالى لهم الحسنات، وتمهل في تسجيل السيئات، في الخصال عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا همّ العبد بحسنة كُتبت له حسنة، فإذا

---

(١) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٥٢٧.

(٢) علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ٥٧٩/٢. - الكافي - الشيخ الكليني: ٣١٣/٢.

(٣) الكافي - الشيخ الكليني: ٢٦٩/٢.

عملها كُتبت له عشر حسنات، وإذا همّ بسيئةٍ لم تُكتب عليه، فإذا عملها أُجّل تسع ساعات، فإن ندم عليها، واستغفر، وتاب، لم تُكتب عليه، وإن لم يندم، ولم يتب، كتبت عليه سيئة واحدة)[1]، وفي رواية أخرى: قال الله تبارك وتعالى: (جعلت لهم التوبة - أو قال «بسطت لهم التوبة»- حتى تبلغ النفس هذه، قال يا رب حسبي)[2]، أي قال آدم (عليه السلام) حسبي تلك الفضائل لذريتي مما كان للشيطان من التأثير عليهم.

ثم لم يكتف سبحانه بكرمه، ورحمته، بذلك بل جعل لهم مكفرات لذنوبهم، حتى يخفف عنهم أوزارهم التي احتملوها على ظهورهم بسوء أفعالهم.

ويلاحظ على تلك المكفرات: أن بعضها اختيارية، وبعضها غير اختيارية.

فالاختيارية: أفعال ينبغي للإنسان أن يقوم بها ليكفّر بها عن سيئاته، وإن لم يفعل، ابتلي بغير الاختيارية: وهي أشق عليه، لذا ورد في بداية دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام السجاد (عليه السلام): (إلهي لا تُؤَدِّبْني بِعُقُوبَتِكَ).

أما غير الاختيارية: - كالأمراض- فهي أمور تعرض للإنسان بسبب منه، أو من غيره، فيعتبرها الله تعالى بكرمه كفارة لذنوب من تعرض لها.

فعلى الإنسان أن يسعى بجد في طلب المغفرة والتكفير عن ذنوبه بالأسباب الاختيارية، وأن لا يجزع إذا حصل له ما يكفّر الذنوب، فإن بقاء ذنب واحد عليه إلى يوم القيامة كافٍ لفضيحته وإيلامه.

لذا ورد في أدعية شهر رمضان الاستعاذة من انقضائه أو انقضاء الليلة التي هو

---

(١) الخصال- الشيخ الصدوق: ٤١٨.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٤٩/٦٨.

فيها وقد بقي عليه ذنب أو تبعة يؤاخذه بها: (إِلٰهِي وَأَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ، وَبِجَلالِكَ العَظِيمِ، أَنْ يَنْقَضِيَ أَيّامُ شَهْرِ رَمَضانَ، وَلَيالِيهِ، وَلَكَ قِبَلِي تَبِعَةٌ، أَوْ ذَنْبٌ تُؤاخِذُنِي بِهِ، أَوْ خَطِيئَةٌ تُرِيدُ أَنْ تَقْتَصَّها مِنِّي لَمْ تَغْفِرْها لِي، سَيِّدِي سَيِّدِي سَيِّدِي)[1].

ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لابن مسعود: (يا ابن مسعود: لا تحقرن ذنباً ولا تصغّرنّه، واجتنب الكبائر، فإن العبد إذا نظر يوم القيامة إلى ذنوبه دمعت عيناه قيحاً، ودماً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (آل عمران:٣٠)، يا ابن مسعود: إذا قيل لك: اتق الله فلا تغضب، فإنه يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّه أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ (البقرة:٢٠٦))[2].

أما مكفرات الذنوب فهي:

١- **التوبة والاستغفار بصدق:** والتي تتضمن بحسب بيان أمير المؤمنين (عليه السلام) لمعنى الاستغفار الندم على ما صدر منه، وعقد العزم بصدق على عدم العود، ورد المظالم إلى أهلها، وتدارك ما فاته من التقصير[3]، وحينئذٍ يكفّر الله سيئاته، وينسي الملائكة الحافظين ما كتبوا، وكل الشهود بما فيهم جوارحه، ويمحو عنه آثار تلك الذنوب والخطايا، ويكتب له بدل ذلك كله حسنات، قال

---

(١) مفاتيح - الشيخ عباس: ٣٠٤، من أدعية العشر الأواخر في شهر رمضان.

(٢) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٤٥٢.

(٣) أنظر: نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٩٧/٤.- مكارم الأخلاق- الطبرسي: ٣١٤.

تعالى: ﴿إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان:٧٠).

٢- القيام بالأعمال الصالحة والطاعات: قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود:١١٤)، ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ (الطلاق:٥).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحها)[١]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أُوصِيكُمْ بِتَقْوى اللّه... وَ اِرْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ وَدَاوُوا بِهَا اَلْأَسْقَامَ)[٢].

وورد هذا الأثر في أعمال كثيرة، كزيارة الحسين (عليه السلام)، وإحياء ليلة القدر، وصوم بعض الأيام المعينة، وبعض الصلوات المستحبة، وهي مذكورة في كتب السنن، والمستحبات، نذكر منها ما روي عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: (ثلاث ليالي من زار فيها الحسين (عليه السلام) غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ليلة النصف من شعبان، والليلة الثالثة والعشرون من رمضان، وليلة العيد)[٣]، وورد في صوم ثلاث أيام الخميس والجمعة والسبت من الأشهر الحرم وهي (محرم ورجب

---

(١) الأمالي- الشيخ الطوسي: ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ١٥/٢.

(٣) بحار الأنوار- المجلسي: ١٠١/٩٨.

وذو القعدة وذو الحجة) أنها كفارة ذنوب تسعمائة عام[١]، وهكذا.

٣- الصلاة في أوقاتها: عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لو كان على باب أحدكم نهر فاغتسل منه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى على جسده من الدرن شيء؟ إنما الصلاة مثل النهر الذي ينقي، كلما صلى صلاة كان كفارة لذنوبه إلا ذنب أخرجه من الإيمان مقيم عليه)[٢].

وننبه دائماً إلى أن مثل هذه الأمور تلحظ مع شروطها كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لو صلّيتم حتى تكونوا كالأوتار، وصمتم حتى تكونوا كالحنايا لم يقبل الله منكم إلا بورع)[٣]، وكقول الإمام الصادق (عليه السلام): (من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما، انصرف وليس بينه وبين الله ذنب)[٤].

٤- الابتلاءات، والمصائب، والمصاعب، في الدنيا: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن المؤمن إذا قارف الذنوب ابتلي بها بالفقر، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ابتلي بالمرض، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ابتلي بالخوف من السلطان يطلبه، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيق عليه عند خروج نفسه، حتى يلقى الله حين يلقاه وما له من ذنب يدعيه عليه، فيأمر به إلى الجنة)[٥].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا أراد الله بعبد خيراً عجّل عقوبته في

---

(١) أنظر: إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس: ٢١/٢.- الدر المنثور- السيوطي: ٢٣٥/٣.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٣٦/٧٩.

(٣) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٥٨/٨١.

(٤) ثواب الأعمال- الشيخ الصدوق: ٤٤.- الكافي- الشيخ الكليني: ٢٦٦/٣.

(٥) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٣٧/٦٤.

الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة)[١].

٥- رعاية حرمة شهر رمضان: من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان (أَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَمْحَاكَ لِلذُّنُوبِ، وَأَسْتَرَكَ لأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ... أَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالْبَرَكَاتِ، وَغَسَلْتَ عَنَّا دَنَسَ الْخَطِيئَاتِ)[٢].

حتى روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (سمّي شوال شوالاً لأنّ فيه شالت - أي ارتفعت وذهبت- ذنوب المؤمنين، فلم يبق فيه ذنب إلا غفره الله تعالى ببركة صيام شهر رمضان، فإن أجر كل أجير يعطى عند ختمه للعمل)[٣].

٦- الأمراض: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (السقم يمحو الذنوب)[٤]، وقال (صلى الله عليه وآله): (ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا)[٥]، وقال (صلى الله عليه وآله): (حمى ليلة كفارة سنة)[٦].

٧- الأحزان والهموم: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يجد ما يكفرها به، ابتلاه الله عز وجل بالحزن في الدنيا ليكفرها به...)[٧]، وقال (صلى الله عليه وآله): (ساعات الهموم ساعات الكفارات، ولا يزال الهم بالمؤمن حتى يدعه

---

(١) الخصال- الشيخ الصدوق: ٢٠.- الكافي- الشيخ الكليني: ٤٤٥/٢.

(٢) الصحيفة السجادية (ابطحي)- الإمام زين العابدين (عليه السلام): ٢٩٢.

(٣) إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس: ١٤/٢.

(٤) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٤٤/٦٤.

(٥) الدر المنثور- جلال الدين السيوطي: ٢٢٩/٢.

(٦) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ٣٥٨.

(٧) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٣٧٠.

وما له من ذنب)[١].

٨- **إتيان المساجد:** عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بإتيان المساجد، فإنها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه، وكُتب من زوّاره، فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء)[٢].

٩- **العفو والصفح عن أخطاء الآخرين وتقصيراتهم:** لأن هذه من أخلاق الله تبارك وتعالى وهو يجازي من اتصف بها بأكثر منها، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (من عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم العسرة)[٣]، ولكن مع الالتفات إلى معنى العفو ومنه ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما عفا عن الذنب من قرَّع به)[٤]. وفي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام): (اللّهُمَّ إنّكَ أنْزَلْتَ فِي كِتابِكَ أنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنا وَقَدْ ظَلَمْنا أنْفُسَنا، فَاعْفُ عَنّا فَإنّكَ أوْلى بِذلِكَ مِنّا)[٥].

١٠- **اتباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) والاستنان بسنته الشريفة في الأفعال والأقوال:** قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١).

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٤٤/٦٤.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٤٤٠.

(٣) كنز العمال- المتقي الهندي: ٣٧٣/٣.

(٤) عيون الحكم والمواعظ- علي بن محمد الليثي: ٤٧٧.

(٥) من دعاء أبي حمزة الثمالي. الصحيفة السجادية (ابطحي)- الإمام زين العابدين (عليه السلام): ٢٣٤.

١١- إغاثة الملهوف: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من كفارات الذنوب العظام: إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب)[١].

١٢- كفارات خاصة: إن بعض الذنوب والتقصيرات لها كفارات خاصة، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها صلاة ولا صوم، قيل يا رسول الله، فما يكفرها؟ قال: الهموم في طلب المعيشة)[٢].

وما ورد في القول المشهور عن الإمام الكاظم (عليه السلام) لعلي بن يقطين: (كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان)[٣].

وما في قول النبي (صلى الله عليه وآله): (من الذنوب ذنوب لا تغفر إلا بعرفات)[٤].

ومن الكفّارات الخاصة ما ورد عند القيام من أي مجلس، أو انفضاض أي لقاء، أو اجتماع كان مشوباً بالغفلة عن الله تعالى، فيقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات:﴿١٨٢﴾).

١٣- حسن الخُلُق: قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل)[٥].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢١/٧٢.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ١٥٧/٧٠.

(٣) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤١٠.

(٤) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ٥٠/٩٦.

(٥) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ٣٩٥/٦٨.

١٤- **كثرة السجود:** قال الإمام الصادق (عليه السلام): (جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أكثر من السجود، فإنه يحط الذنوب كما تحط الريح ورق الشجر)[١].

١٥- **الحج والعمرة:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحجة المتقبلة ثوابها الجنة، ومن الذنوب ذنوب لا تغفر إلا بعرفات)[٢]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ اَلْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اَللّهِ سُبْحَانَهُ... حَجُّ اَلْبَيْتِ وَاِعْتِمَارُهُ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ اَلْفَقْرَ، وَيَرْحَضَانِ اَلذَّنْبَ)[٣].

١٦- **افتتاح صحيفة العمل واختتامها بالخير:** قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): (إن الملك الموكل على العبد يكتب في صحيفة أعماله فأملوا بأولها وآخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك)[٤].

١٧- **الصلاة على محمد وآله:** قال الإمام الرضا (عليه السلام): (من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً)[٥].

١٨- **سكرات الموت:** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الموت كفارة لذنوب المؤمنين)[٦].

---

(١) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٥٨٩.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٥٠/٩٦.

(٣) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٢١٥/١.

(٤) الأمالي- الشيخ المفيد: ٢.

(٥) الأمالي- الشيخ الصدوق: ١٣١.

(٦) الأمالي- الشيخ المفيد: ٢٨٣.

١٩- الصدقة: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الصدقة تطفئ غضب الرب)[١]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتمحو الذنب العظيم)[٢].

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٨٠/٩٣.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٩/٤.

القبس/١١

سورة البقرة:﴿٢١٧﴾

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

موضوع القبس: المواجهة مستمرة لحروب أعداء الإسلام

﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ إن أعداء الإسلام - بتشكيلاتهم المختلفة فكرياً وعقائدياً - مستمرون بشنّ الحروب عليكم بلا هوادة، وإن تظاهروا بالسلام أحياناً وبالصداقة أخرى أو بالتحالفات السياسية والأمنية والاقتصادية وغير ذلك، فلا تغفلوا واحذروا أن يخدعوكم أو يستدرجوكم.

﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ هذا هو جوهر الصراع مع أعداء الإسلام، وسرّ استمرارهم الدائب على شنّ الحروب عليكم في كل زمان ومكان، إنهم يريدون انتزاع الدين منكم، لأنه يغيظهم ويثير حسدهم ويكشف انحطاطهم، ويرعبهم ويفشل مشاريعهم، فلا يستقر لهم قرار حتى يحرموكم من هذه الجوهرة الثمينة التي هي اعظم نعم الله تعالى على الناس، وإعادتكم إلى حياة الجاهلية المنافية للمبادئ السامية والفطرة الإنسانية النظيفة، وهذه هي الفتنة الكبرى التي تزيد على قتل النفس، وقد أشارت إليها الآية الكريمة في جزئها السابق ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لأن فيها إزهاقاً للحياة الباقية الخالدة، وحرماناً من جنات النعيم، وهي شاملة لكل فتنة تبعد عن الدين سواء كانت فكرية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية حتى لو غُلِفت بغطاء ديني لخداع الناس.

وهذه الحقيقة نبّه عليها القرآن الكريم في مواضيع عديدة كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ (البقرة:١٠٩) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٠٠) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٩) وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء:٨٩).

وهم مهما غلّفوا خططهم بعناوين مغرية كالحرية والتقدم والديمقراطية وحقوق الإنسان، وتمكين المرأة ورعاية الطفل ومكافحة العنف الأسري وغير ذلك، بل حتى لو أعلنوا إن حربهم اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو استعمارية أو لضرورة الأمن القومي ومكافحة الإرهاب أو تحرير الأراضي او البحث عن أسلحة الدمار الشامل أو إزالة الأنظمة الاستبدادية، وغير ذلك، فإن هدفهم واحد وهو إطفاء نور الإيمان في قلوبكم والاستقامة في سلوككم وتحويل الناس إلى قطيع من البهائم همّها شهواتها ليسوقوهم بلا وعي ولا بصيرة إلى ما يريد هؤلاء الشياطين وهو ما أوصلوا إليه الشعوب الغربية.

وفي الآية دلالة واضحة على أنهم هم من يبدؤون الحرب ويريدون استمرارها، وليس الإسلام دين حرب وإكراه كما يتقولون لتشويه صوره الإسلام، لأن همّ الإسلام هو تحرير الإنسان وفكّ قيود الجاهلية التي تكبّل عقله وتقسي قلبه

وتلوث فطرته ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وحروبهم لا تقتصر على العسكرية وإرسال الجيوش وآلات القتال، وإنما يشنّون عليكم حروباً أخطر وأخفى وأعقد وهي الحرب الناعمة بأشكالها العديدة التي أشرنا إليها في قبس سابق[1]، فبالخمر والنساء والحفلات الماجنة وإلقاء الخلافات والمنازعات بين الحكام قضوا على وجود الإسلام في بلاد الأندلس الذي أستمر ثمانمائة عام، ومن أساليبهم الناعمة غسيل الدماغ والتخريب الثقافي والأخلاقي وتحريف الدين وتحويله إلى طقوس شكليه لا أثر لها في سلوك المجتمع وتسويق صورة جديدة له تلائم رؤيتهم والترويج لها ودعم مؤيديها، كمشروع الدين الابراهيمي مثلاً، أو الإسلام على طريقة الفاتيكان، لأن خصمهم الذي يخشونه هو الإسلام المحمدي الأصيل الذي تقوم حياة الناس على أساسه ويزيد في وعيهم وبصيرتهم لا دين الجهل والخرافات والدجل.

وقد طوروا أدواتهم وأساليبهم اليوم بشكل مذهل وخطير ومؤثر وأوصلوا مكرهم وشيطنتهم إلى كل دار وأصبحت أجهزتهم الفتّاكة وبرامجهم السامة في متناول الطفل الصغير قبل الشخص الكبير.

﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧) تحذير للمسلمين لغلق أي فرصة تمكنّهم من تحقيق أغراضهم، وبنفس الوقت فانه تعبير لا يخلو من تحدٍّ للأعداء وتعجيز لهم عن بلوغ مرامهم، كقول الحمزة لأبي جهل بعد أن صفعه (ردَّها علي إن

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة:٦٤)، في تفسير من نور القرآن.

استطعت)[1] وإنهم مهما شنوا من حروب ظالمة فإنهم لا يستطيعون إطفاء نور الحق، وزعزعة المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان وأشربوا حب الله تعالى في قلبوهم ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩) ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢).

ثم بيّنت الآية الكريمة في جزئها اللاحق عاقبة من تغريه الدنيا ويخضع للشهوات ويبتعد عن دينه فإنه يخسر دنياه لأنه سيُنبذ من المجتمع ويحرم من الحقوق والامتيازات المادية والمعنوية التي يتمتع بها المؤمنون، ويخسر آخرته أكيداً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧) فلينتبه إلى هذه الآية الكريمة الذين تغريهم الحياة في الغرب فيذوبوا في انحطاطهم، أو من تفتنهم الأموال والمناصب والشهرة فيتخلوَنّ عن دينهم، وغيرهم كثير ممن يتّبعون شهواتهم ويزيّن لهم الشيطان قبيح الأفعال.

وتذكر الآية التالية الفئة المقابلة وهم المؤمنون الصالحون الثابتون على الإيمان والاستقامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:٢١٨).

فأشحذوا هممكم أيها الأحبّة، وأنهضوا بحركة دؤوبة تقاوم حركة الأعداء وتتغلب عليها لنصرة الإسلام وإنقاذ أهلكم من مخالب الشياطين التي غرزوها في عقولهم ونفوسهم، ولا يشغلكم شيء عن هذه المنازلة الكبرى وأنتم تشغلون

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٢٨٦.

مواقع القيادة في الأمة، وتجعلون من المساجد التي هي بيوت الله تعالى منطلقاً لحركتكم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (النور:٣٦)، كما نهض العلماء الواعون المخلصون بعد أن أدركوا حيل الشياطين ووعوا أهدافهم في إبعاد الناس عن دينهم وقادتهم الحقيقيين، وفي ذلك نظم المرحوم السيد صدر الدين الصدر (قدس سره) بيتين شطرهما عدد من الأعلام ومنهم الشيخ جعفر نقدي (رحمه الله تعالى):

(فوّقت الأعداءُ سهم حقدهِا) على الهدى والحقدُ في القوم مرض

وبالجديد سترت أغراضّها (وقلبُ دين المصطفى هو الغرض)

(فيا حماةَ الدين حولوا بينه) وبين مَن بغياً عليه قد نهض

وأبلغوها يا حماة حينَها (وبينها قبل بلوغها الغرض)[1]

---

(١) السيد صدر الدين الصدر، حياته وسيرته بقلم الشهيد السعيد السيد محمد الصدر (قدس سره) وهو عمّ أبيه، ص١٠٤، والسيد صدر الدين الصدر أحد كبار مراجع الدين في قم المقدسة، توفي عام ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م.

ملحق: حقائق في الصراع بين الإسلام وأعدائه

قال الله تبارك وتعالى في كتابة الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧).

تبيّن الآية الكريمة عدّة حقائق يجب على المسلمين الانتباه إليها واليقظة لوعيها واتخاذ التدابير اللازمة إزاءها وهي:

١- إن حرب الأعداء عليكم مستمرة لا تتوقف على مدى الأجيال مهما تعددت وتناقضت عقائدهم وأنظمتهم وتوجهاتهم كالماركسية والرأسمالية والليبرالية وغيرها فإنهم يجتمعون على رفض الإسلام، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، وهذا طبع متأصّل فيهم لأنهم أتباع الشيطان وجنده، وقد أقسم إبليس (لعنه الله تعالى) بهذه الحرب الدائمة ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧).

نعم قد لا تكون حربهم بالطريقة الظاهرة المكشوفة وهي الحرب العسكرية وباستخدام أدوات القتال المعروفة بين الجيوش، وإنما قد تكون حرباً ثقافية أو

أخلاقية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية وغير ذلك من أساليب الحرب الناعمة[1] فهي صور متنوعة للحرب.

٢- إن الإسلام ليس دين حرب وعدوان وعنف، بل دين سلام وأمان وصلاح وحكمة واعتدال ووسطية وعمران للحياة الصالحة الطيبة، وإن الآخرين هم الذين يبدأون القتال ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وحينئذٍ لا يكون أمام المسلمين إلا الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم.

٣- إن غرضهم الحقيقي من مقاتلتكم هو نزع نور الإيمان من قلوبكم وفتنتكم عن دينكم، وتخليكم عن أخلاقكم ونهجكم الصالح القويم، ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ لأنهم يرون في هذا الدين عدواً لهم وعائقاً دون تنفيذ مشاريعهم وتحقيق رغباتهم، سواء فهمنا من ﴿حَتَّى﴾ التعليل أي: لكي يردّوكم عن دينكم، أو الغاية أي إلى أن يردّوكم عن دينكم، فهذا هو غرضهم الحقيقي، وإن أخفوا حربهم تحت عناوين متعددة، كتحرير الشعوب وتخليصها من الأنظمة المستبدة، أو مكافحة الإرهاب، أو نزع أسلحة الدمار الشامل، أو الدفاع عن حقوق الإنسان، أو تأمين الاقتصاد العالمي، أو حفظ الأمن والسلم الاجتماعيين ونحو ذلك، لأن كل ذلك تمويه وإخفاء لغرضهم الحقيقي الذي ذكرته الآية الكريمة.

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة:٦٤) في تفسير من نور القرآن.

وهذا المعنى أكدته آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة:١٠٩) وقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (آل عمران:٦٩) وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (النساء:٨٩).

٤- إن هذه الحرب المستمرة من قبلهم تلزمنا بالتأهب والاستعداد لها دائماً وعلى جميع المستويات وفي جميع الاتجاهات خصوصاً العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠) وأن نكون حذرين يقظين ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾ (الأنفال:٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾ (النساء:٧١) ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (النساء:١٠٢).

٥- يفهم من لحن قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧) التي تستبطن نبرة التعجيز والتحدي، إن الأعداء مهما استمروا في حروبهم العدوانية بأسلحتها المتنوعة وأشكالها المتعددة فإنهم لا يستطيعون النيل من هذا الدين، وهذا وعدٌ من الله تعالى كتبه على نفسه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:٨) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) كما أنهم لا يتمكنون من فتنة المخلصين الصادقين، ورد في الحديث

الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يُستقَل منه، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء)[1].

٦- إن هذه الحرب المستمرة من الأعداء وتكلفتها الباهظة لا يجوز أن تكون مبرراً للتنازل عن دين الحق؛ لأن الحياة تكتسب قيمتها إذا تزينت بالدين، ولأن الالتزام بالدين هو الذي يضمن الفوز والفلاح في الحياة الآخرة الباقية فالتذرع بقوة الأعداء وعدم أمكان مواجهتها لتبرير إن الذوبان في مشاريع أعداء الإسلام والوقوع في شراك مكائدهم وخدعهم غير مقبول ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (المائدة:٥٢) وإن ذلك يوجب حبط الأعمال، وإن كان لصاحبها تأريخ حافل بالالتزام الديني ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٧- إننا أولى الناس بالمبادئ الإنسانية وأشدهم حرصاً على التمسك بالأخلاق الفاضلة، ومنها حرمة القتال في الأشهر الحرم، ولا يرضى الدين بقضية (الغاية تبرر الوسيلة)، لكن الأعداء ليس لهم أن يطالبوكم بالالتزام بالقوانين والأعراف الجارية بين الشعوب ما داموا هم قد انتهكوها أولاً، فنحن أولى بالالتزام بحرمة القتل والقتال في الأشهر الحرم لأننا حريصون على حقن الدماء وحفظ الحرمات وأن يسود السلام والعدل، لكنهم إذا انتهكوا هذه الحرمة بتعذيبكم وفتنتكم عن دينكم وحرمانكم من عبادة الله الأحد فلا يحق لهم مطالبتكم بالامتناع عن القتال

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٤١/ ح٣٧.

في الأشهر الحرم، فإن للأشهر الحرم حرمة لا يجوز انتهاكها لكنهم ارتكبوا ما هو أعظم وهو فتنتكم عن دينكم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧)، والالتزام بطرف واحد يعني تجريدكم من كل قوة، بينما هم لا يتورعون عن استخدام كل سلاح للقضاء على دينكم وسلب عزّتكم، فلا بد من مقابلتهم بالمثل ليرتدعوا، قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء:١٠٢)، وأهم أسلحتكم وأقواها وأمضاها هو إيمانكم بالله تعالى ووحدة كلمتكم وأخلاقكم الفاضلة.

روي[1] في سبب نزول الآية أن سرية من المسلمين قتلت كافراً في يوم مشتبه بين كونه الأخير من جمادي الثانية والأول من رجب الذي هو شهر حرام اتفق العرب على حرمة القتال فيه، فقام المشركون بحملة إعلامية مضللة للتشكيك في الدين الجديد وأن المسلمين لا يراعون هذه الحرمة، مما أربك بعض المسلمين وأفقدهم الثقة بقيادتهم، فنزلت الآية الكريمة لدفع الشبهة بأن المشركين هم من بدأوا بانتهاك هذه الأعراف حين اعتدوا على المسلمين ولم يراعوا فيهم ذمة ولا كونهم في الحرم الآمن مكة ولا الشهر الحرام وعذّبوهم وقتلوهم وهجّروهم وصادروا أموالهم، وفتنوهم عن دينهم والفتنة أشدّ وأكبر من القتل والقتال، فكيف يطالبونكم بالالتزام بمراعاة الأشهر الحرم من طرف واحد؟ وهل هذه إلا قسمة ضيزى يأباها كل حر غيور شريف؟.

---

(١) أنظر: ابن كثير- البداية والنهاية : ٣٠٤/٣، ط. احياء التراث.

وهذا ما يحصل في زماننا الحاضر وكل زمان فيطالبون المسلمين بالالتزام بالقوانين الدولية وما تقتضيه العلاقات بين الدول من طرف واحد وتقوم الدنيا ولا تقعد إذا حصل شيء سيئ لفرد منهم في بلاد المسلمين، بينما يعطون لأنفسهم الحق في الاعتداء على الشعوب ونهب خيراتها وانتهاك مقدساتها وقتل النساء والأطفال بالجملة وهدم دورهم عليهم، وبالتدخل في شؤونهم، فيطالبون الحكومات بتشريع قوانين لإباحة المثلية والشذوذ الجنسي والبغاء، ويفرضون عليهم الحصار الخانق، ويعترضون على أي قانون يحمي عقيدة غالبية الشعب كتهديدهم بالعقوبات السياسية والاقتصادية إن أقرّوا قانوناً يتيح للمسلم أن يطبق الأحكام الشرعية في أحواله الشخصية من دون فرضه على الآخر، ويطالبون بتمكين المرأة وخروجها عن السلوك العفيف النظيف المؤدي إلى تخريب الأسرة وضياع المرأة، ويطالبون بقوانين تمنع الوالدين من تربية الأطفال تحت عنوان منع العنف الأسري ونحو ذلك، في حين رأينا همجيتهم ووحشيتهم في استهداف النساء والأطفال باليورانيوم المنضب في أكثر من حرب من عام ١٩٩١م حتى ٢٠٠٣م في العراق، وذهب ضحيتها حوالي مليون ونصف المليون عراقي ولا زال تأثير سمومها ممتداً إلى اليوم في مساحات شاسعة، ورأينا استهدافهم الوحشي للنساء والأطفال العزّل الآمنين في غزة معتبرين إياهم أهدافاً استراتيجية!!!

فلا بد من الانتباه إلى هذه الحقائق وإن ساحات المواجهة مع العدو الذي يريد نقض ديننا ومسخ هويتنا متعددة بتنوع حروبه علينا، ولا بد من توسيع معنى المواجهة وإعداد القوة المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠) ليشمل كل إشكال المواجهة الإعلامية والثقافية والاقتصادية والأخلاقية والعقائدية مع الأعداء.

إن رأس الحربة في حربهم الناعمة لتدمير عقيدة المجتمع المسلم وتفكيكه ومسخ هويته وسوقه نحو الانحطاط والحيوانية والهمجية هي المرأة فإنها إن صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسد المجتمع، لذا فهي أداتهم الفعالة إذا استطاعوا إقناعها بالتخلي عن عفافها وحجابها وقيمها النبيلة وحوّلوها إلى أداة للاستمتاع مشغولة بالتباهي بأدوات الزينة وأحدث موديلات الملابس واللهو والعبث والتفاهات، كما يدفعونها باتجاه تخريب الأسرة والنظام الاجتماعي باسم تمكين المرأة والتحضر والحرية ونبذ العفاف لأنه كبت وتخلف ورجعية، وازدياد حالات الطلاق والخيانة الزوجية والعنف الأسري شاهد على نتائج هذه الخطة الخبيثة، فلا بد أن نستلهم من نساء الإسلام العظيمات[1] دروس الوعي والإصلاح والشجاعة والعفاف والعز والكرامة.

ولنا في العقيلة زينب (صلوات الله عليها) مثل أعلى في شكل من أشكال الجهاد يعجز عنه أشداء الرجال حيث أطارت فرحه يزيد والأمويين وأذنابهم وأجبرتهم على الصحو من سكر الانتصار المزعوم، حتى اضطر إلى البراءة من الفعل وإلقاء اللوم على ابن زياد في قتل الحسين[2].

---

(١) طُبع مؤخراً كتاب (أم المؤمنين أم سلمة: قدوة الفضائل والولاء) وهو يقدّم هذه الأسوة الشامخة.

(٢) قال مؤرخو الواقعة (إن يزيداً أمر أن يصلب الرأس الشريف على باب داره، وأمر أن يُدخِلوا أهل بيت الحسين داره، فلما دخلت النسوة دار يزيد خرجت هند بنت عبد الله بن عامر بن كُريز امرأة يزيد، فشقّت الستر وهي حاسرة، فوثبت على يزيد وقالت: أرأس ابن فاطمة مصلوب على باب

وقد تمثل جهاد العقيلة زينب (عليها السلام) في بيان حقائق الدين وإرساء دعائمه، وهداية الناس إلى القادة الحقيقيين وهم أهل بيت النبي الأطهار (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) وفضح الحكّام الفاسدين، وإيقاظ الناس من الجهل والغفلة والتضليل الإعلامي وغسل الدماغ وتشويه المفاهيم التي كرّسها الإعلام الأموي.

فعلينا أن نستلهم الدروس والعبر من حركة العقيلة زينب (عليها السلام) ونتدبر في خطبها ونتعرف على سر الوثوق بالنصر النهائي الذي أطلقته في كلماتها (كدْ كيدك واسعَ سعيك، وناصبْ جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم يناد المناد ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل)[1].

إن أعداء الإسلام يرون في منهج العقيلة زينب (عليها السلام) تهديداً لسلطاتهم الاستكبارية وخطراً عليهم جميعاً، لأنها لم تتحدَّ يزيد الشخص فقط وإنما يزيد السلوك والمنهج الذي هم سائرون عليه والقائم على اتباع الشهوات، وتبديد ثروة الشعب، واستعباد الناس والاستخفاف بالمقدسات، وتشويه الحقائق والطبقية وهو

داري؟ فغطّاها يزيد، وقال: نعم فأعولي عليه يا هند وابك على ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصريخة قريش، عجّل عليه ابن زياد فقتله، قتله الله) (مقتل الحسين للخوارزمي: ٢/ ٧٣، بحار الأنوار: ٤٥/ ١٤٢) ومصادر أخرى في كتاب (الصحيح من مقتل سيد الشهداء للريشهري: ١١٣٨).

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٥.

ما اشترطه يزيد على أهل المدينة بعد استباحتها في واقعة الحرة وفيهم بقية أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)[1].

إن وجودنا في صف العاملين لإعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام والتعريف بفضائل أهل البيت (عليهم السلام) وسمو مقامهم ومعالم مدرستهم الشامخة يحتّم علينا إدامة الشكر لله تعالى مع الاعتراف بالعجز عن شكر هذه النعمة التي منّ الله تعالى بها علينا، فهي استجابة للدعاء وتحقيق لأمنية (يا ليتنا كنا معك)، وها نحن بفضل الله تعالى في معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) ونعمل لتحقيق الأهداف التي خرج الإمام الحسين (عليه السلام) من أجلها، وضحى بنفسه الشريفة ومن معه لتحقيقها (حتى بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة)[2].

---

(١) أنظر: ابن كثير- البداية والنهاية : ٢٦٢/٦، ط. احياء التراث.

(٢) زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم الأربعين. مفاتيح الجنان: ٥٤٣.

القبس/١٢

سورة البقرة:﴿٢٤٥﴾

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾

موضوع القبس: دعوة كريمة إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى من كل ما يتيسَّر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:﴿٢٤٥﴾).

دعوة من الله تبارك وتعالى مع حثٍّ وترغيب على إقراض الله تعالى، وقد تكرّر في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:﴿١١﴾) وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:﴿١٨﴾) وقوله تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن:﴿١٧﴾) وغيرها، ويصل في بعضها إلى صيغة الأمر ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (المزمل:﴿٢٠﴾).

ومعنى القرض لغةً هو القطع، وعرفاً ما تقتطعه من مالك وتملّكه إلى آخر لتقضاه أي مشروطاً بإرجاعه - كما عن ابن فارس[1] - وقال الراغب: ((سُمّي ما

(١) معجم مقائيس اللغة- ابن فارس: ٧١/٥.

يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضاً))[1]، ويراد بالقرض في هذه الآيات الكريمة بحسب الروايات الشريفة مطلق الإنفاق في سبيل الله تعالى لتحقق معناه، وهو أن تقطع شيئاً من مالك وتهبه لله تبارك وتعالى لتستوفي أجره وجزاءه يوم القيامة؛ فتكون الآية من قبيل قوله تعالى ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١).

والقرض من مصاديق الدَين الذي هو أعم منه لأنه يشمل كل في الذمة كالشراء بالآجل أو الضمان، وقد عبّرت جميع الآيات الكريمة التي تعرضت لهذه الدعوة المباركة بالقرض وليس بالدين، ولعل نكتةً لطيفة في ذلك هي أن القرض لوحظ فيه حال المقرض وهو عمل صالح يقوم به طلباً للأجر فيُضاعف الثواب لفاعله، أما الدين فلوحظ فيه جانب المدين وهو من الإدانة وفيه حالة من الإذعان لإرادة الدائن، والاستسلام لشروط الجزاء.

وزادها لطافة وصف القرض بالحسن في كل الموارد لتقييد الفعل بكونه مخلصاً لله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧) خالياً من شوائب المنة والاستعلاء والإهانة والرياء والتنافس مع الآخرين ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ (البقرة:٢٦٤) وأن يكون المال طيباً من كسب حلال ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ (البقرة:٢٦٧) وأن لا يكون مقترناً بمحرم وأشنعه الربا ﴿الَّذِينَ

(١) المفردات في غريب القرآن: ١/٤٠٠.

يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة:٢٧٥) ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة:٢٧٦) وأن يكون من أحسن المال وأكثره نفعاً للقابض لأنه من البر فلا بد أن يتصف بأوصافه ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢) واختصرها قوله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

فإذا كان الإنفاق حسناً فقد وعد الله تعالى فاعله بجزاء حسن لا حدود له ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾، روى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) بسنده عن أبي أيوب الخزاز قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي(صلى الله عليه وآله): ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيرٌ مِنهَا﴾ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اللهم زدني، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثَالِها﴾ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اللهم زدني، فأنزل الله عز وجل ﴿مَنْ ذَا الذِى يُقرِضُ اللهَ قَرضاً حَسَناً فيُضاعِفَهُ لَهُ أَضعَافاً كَثِيرةً﴾ فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله): أن الكثير من الله عز وجل لا يحصى وليس له منتهى)[1].

وروى الشيخ الصدوق في الخصال عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (قال الله جل جلاله: إني أعطيت الدنيا بين عبادي قيضاً - أي مقايضة، وفي نسخة فيضاً، وفي

(١) معاني الأخبار: ٣٩٧، نور الثقلين: ١/ ٢٤٣.

الكافي: قرضاً - فمن أقرضني منها قرضاً أعطيته بكل واحدة منهن عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك)[١].

إن المؤمن الواعي ليشعر بالخجل أمام الله تبارك وتعالى الذي وهبه ألوان النعم بلا مقابل كرماً منه وتفضّلاً، ثم يحثه ويستثيره ويستنهضه ليقرض العبد ربه بعض ما وهبه له ﴿أَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:٧) وفي الدعاء (وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ لِمَا وَهَبْتَ لَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ)[٢]، وفوق ذلك فإنه يعده بمضاعفة الأجر على ذلك أضعافاً كثيرة، فهو تبارك وتعالى يأخذ من عباده هذا القليل وينميه اضعافاً مضاعفة ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة:٢٧٦) ويعيده اليهم أضعافاً كثيرة يوم الفاقة والحاجة إليه، وأن الله تعالى قادر على أن يكفي ذلك المحتاج ويغنيه كما أغنى غيره لكنه تبارك وتعالى اراد أن يجري الخير على يد الغني ليثيبه ويرفع درجته شفقة منه ورحمة بعباده، فنعم الرب ربنا اللطيف الكريم العطوف، وبئس العبيد نحن إن لم نستجب لدعوته إلى ما يحيينا ونسعى لرضاه تبارك وتعالى.

روى العلامة الطبرسي في مجمع البيان عن الكلبي في سبب نزول الآية قال: ((إن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: (من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة) فقال أبو الدحداح الأنصاري، واسمه عمرو[٣] بن الدحداح: يارسول الله، إن لي حديقتين إن تصدقت

---

(١) الخصال: ١٣٠/ ح١٣٥.

(٢) من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٣) اسمه في المعاجم: ثابت من بني عمر بن عوف.

بإحداهما [١]، فإن لي مثليها في الجنة؟ قال: نعم. قال: وأم الدحداح معي؟ قال: نعم. قال: والصبية معي؟ قال: نعم. فتصدق بأفضل حديقتيه، فدفعها إلى رسول الله. فنزلت الآية، فضاعف الله له صدقته ألفي ألف، وذلك قوله: ﴿أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾. قال: فرجع أبو الدحداح، فوجد أم الدحداح والصبية في الحديقة التي جعلها صدقة، فقام على باب الحديقة، وتحرج أن يدخلها فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك يا أبا الدحداح. قال: إني قد جعلت حديقتي هذه صدقة، واشتريت مثليها في الجنة، وأم الدحداح معي، والصبية معي. قالت: بارك الله لك فيما شريت، وفيما اشتريت، فخرجوا منها، وأسلموا الحديقة إلى النبي. فقال النبي: (كم نخلة متدل عذوقها لأبي الدحداح في الجنة)))[٢]. وفي رواية القرطبي عن زيد ابن أسلم ((ثم اقبلت ام الدحداح على صبيانها تخرج ما في افواههم وتنفض ما في اكمامهم حتى افضت إلى الحائط الاخر)) أقول: هذه من الأمثلة السامية لعظمة تأثير القرآن الكريم والقيادة الحكيمة للنبي (صلى الله عليه وآله) في أمة كانت في حضيض الجاهلية.

---

(١) في رواية القرطبي:((قال أبو الدحداح: أن لي حديقتين احداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا املك غيرهما قد جعلتهما قرضاً لله تعالى، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اجعل أحدهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك)) (تفسير القرطبي: ٣/ ٢٣٨).

أقول: لأن النفقة على العيال من أعظم الصدقة، ولكيلا يبقى ابو الدحداح معدماً يطلب من الناس.

(٢) مجمع البيان: ٢/ ٧٨، ط. مؤسسة التأريخ العربي، وتوجد روايات عديدة عن القضية في الدر المنثور، المجلد الأول: ٧٤٦، ط. دار الفكر.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّه يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥) وفيه رد على زعم اليهود الذي حكته الاية الكريمة ﴿لقدْ سَمِعَ اللَّه قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّه فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ (ال عمران:١٨١)، روى الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (القبض من الله تعالى المنع، والبسط منه الاعطاء والتوسيع، كما قال الله عز وجل ﴿وَاللَّه يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ ترجعون﴾ (البقرة:٢٤٥) يعني يعطي ويوسع، ويمنع ويقبض)[1] فإن الله تعالى هو ﴿الرَّزَّاقُ﴾ فهو يقبض الرزق عن قوم ويبسطه لآخرين، فليعلم من عنده فضل من المال هذه الحقيقة وأن ما عنده هو من الله تعالى حتى لا يتوقف عن العطاء في سبيل الله تعالى، وإن الله تعالى هو الذي يقبض العطاء من المنفق وهو الذي يبسط الجزاء الأوفى له عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الاخرة، فلا يتخوّف من الإنفاق ولا يدع الشيطان يوسوس له بأن الإنفاق تلف للمال وضياع، وأن الأحجى هو ادخار المال للفاقة والحاجة حتى اشتهر المثل العامي (الفلس الأحمر ينفع في اليوم الأسود) وهو صحيح بلحاظ الإسراف وصرف المال في غير الأمور الراجحة، وليس لتعطيل الإنفاق في سبيل الله تعالى.

﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ فإنكم جميعاً مبعوثون يوم القيامة وراجعون الى ربكم ﴿إنَّا لله وانا إلَيهِ رَاجِعُونَ﴾ وحينئذٍ ﴿تُوفّى كُلُّ نَفسٍ مَا كَسَبت﴾ (البقرة:٢٨١) و﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف:٣٠) ومادامت الامور ترجع إلى

(١) التّوحيد - الشيخ الصدوق: ١٦١/ ح٢.

الله تبارك وتعالى وبيده فان الجزاء بالأضعاف المضاعفة متوقع ومرجو ممن له ﴿خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (المنافقون:٧).

وستجدون أن ما أعطيتم في سبيل الله هو الباقي الذي تنتفعون به، أما ما بخلتم به فقد تلف ولم تستفيدوا منه، روي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء، فسأل عائشة عما بقي منها، فقالت: ما بقي منها إلا كتفها، فقال (صلى الله عليه وآله): بقي كلها إلا كتفها)[1].

وهنا يثار سؤال، بأن الله تعالى ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧) فالله هو الغني المطلق ووصفه في دعاء الافتتاح (الباسِطِ بالجودِ يَدَهُ، الَّذي لا تَنقُصُ خَزائِنُهُ وَلا تَزيدُهُ كَثرَةُ العَطاءِ إلاّ جوداً وَكَرَماً)[2] وفي أدعية شهر رجب (يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنّناً منه ورحمة)[3] فما حاجته تبارك وتعالى إلى طلب القرض من عبده الفقير المطلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥) وكيف نفهم هذه الدعوة الكريمة من الله تبارك وتعالى؟.

وقبل الإجابة لا بد أن نسلّم بالحقيقة المذكورة في السؤال، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:١١) ... ولم يستقرضكم من قُلٍّ، ....، واستقرضكم

---

(١) صحيح الترمذي: حديث رقم ٢٤٧٠.

(٢) مصابيح الجنان: ٥٣٩.

(٣) مفاتيح الجنان: ١٨٦.

وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد. وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً)[١].

ويمكن أن يكون الجواب بوجوه:

١- بلحاظ المعنى المتبادر من مثل هذه الآيات المباركة وبيّنته الأحاديث الشريفة حيث يراد من الإقراض مطلق الإنفاق في سبيل الله تعالى، وقد نسب الله تعالى قبض المال إليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّه هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (التوبة:١٠٤) وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (إن الله تبارك وتعالى يقول: ما من شيء إلا وقد وكلت من يقبضه غيري إلا الصدقة، فإني أتلقفها بيدي تلقّفاً)[٢].

والجواب بأنَّ في هذه النسبة إلى الله تبارك وتعالى تعظيماً لشأن هذا العمل الصالح حيث شرّفه الله بنسبته إليه، وعلى المنفق أن يلتفت إلى هذه الحقيقة ليبادر إلى الانفاق، وأن يعلم بأنه إنما يعطي إلى الله تعالى فلا يشعر بالمن والاستعلاء، كما أن في هذه النسبة تكريماً للمؤمن وصون مكانته حينما جعل الله تعالى نفسه قابضاً نيابة عن المؤمن، فإكرام المؤمن من إكرام الله تعالى، وتؤيده الأحاديث الشريفة مثل قول النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يشير إلى الكعبة المشرفة: (والله للمؤمن أعظم حرمة منك)[٣].

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١١٤.

(٢) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٣٤.

(٣) بحار الأنوار: ٦٤/ ٧١، عن مشكاة الأنوار.

٢- بتقدير مضاف، وهو أن العطاء يكون حقيقة لولي الله تعالى، وفي ذلك روايات عديدة، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما من شيء أحب لله من اخراج الدراهم إلى الإمام، وإن الله ليجعل له الدرهم في الجنة مثل جبل أحد، ثم قرأ الآية الكريمة وقال: هو والله في صلة الإمام)[1]، وروى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه (سُئل عن قول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال (عليه السلام): نزلت في صلة الإمام)[2].

٣- بالنظر إلى المعنى اللغوي للإقراض وهو أن تقطع شيئاً منك وتعطيه للآخر لتستوفيه وتقضاه لاحقاً وهو لا يختص بالإنفاق المالي، فإن المراد بإقراض الله تعالى كل الطاعات المقرّبة إليه سبحانه، فكل ما تقدمه من جهد بدني أو مالي أو علمي أو فكرة أو خطة أو معلومة أو نشاط اجتماعي أو أخلاقي وغيرها في سبيل الله تعالى فهو إقراض لله تعالى لأنك تطلب استيفاء أجره من الله تعالى، لذلك اقترنت دعوة الإقراض بهذا المعنى العام من تقديم الاعمال الصالحة في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ (المزمل:٢٠)، وإن الآية محل البحث جاءت في سياق الحث على الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد قال عز من قائل في الآية السابقة: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٤) حيث

---

(١) اصول الكافي ٤٥١/١/ ح٢، تفسير البرهان ١٣٨/٢

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٧٢/ ح١٧٦٣.

أن التضحية بالنفس في سبيل الله تعالى أعظم وجوه الإنفاق والبر، قال: (فوق كل ذي بر بر حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر)[١].

واقترنت في الآية الأخيرة من سورة المزّمّل بتلاوة القرآن وقيام الليل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاستغفار، وقد فهمها اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذا المعنى الواسع لذا طبقوها على طاعات كثيرة كالتوسعة على العيال وقول (سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله اكبر) وقراءة سورة التوحيد[٢].

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ أي قدموا بين يدي الله تعالى كل عطاء من أنفسكم وأموالكم وجهودكم وتفكيركم ليجزيكم به اضعافا مضاعفة لا حدود لها، فالقرض المطلوب ليس ناشئاً من حاجة وانما هو لإرباحكم واستثمار لما وهبكم الله تعالى من النعم، كمن يودع في المصارف لأجل الفائدة بغض النظر عن الحكم الشرعي.

ومن وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الإمام الحسن (عليه السلام): (وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ)[٣].

---

(١) الكافي: ٥/ ٥٣.

(٢) الدر المنثور: ١/ ٧٤٧.

(٣) نهج البلاغة: ٣١.

واخرج البيهقي في شعب الايمان عن الحسن قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) يروي ذلك عن ربه عز وجل انه يقول: يابن ادم أودع من كنزك عندي ولا حرق ولا غرق ولا سرق اوفيك احوج ما تكون إليه)[١].

ومن هذه الطاعات القرض بالمعنى الأخصّ أي المعروف في المصطلح الفقهي والعرفي، وقد حثّت عليه الأحاديث الشريفة كالآيات الكريمة، ففي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فقلت: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة)[٢] وعنه (صلى الله عليه وآله): (من أقرض مؤمناً قرضاً ينتظر به ميسوره كان ماله في زكاة، وكان هو في صلاة من الملائكة حتى يؤديه إليه)[٣] وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر)[٤].

ومما يؤسف له انحسار هذا العمل الإنساني وعدم اقدام أهل السعة على انشاء (صندوق القرض الحسن) الذي له بركات عظيمة على المجتمع، وفي هذا العزوف خسارة لطاعة عظيمة، وإن وجدت بعض الأسباب لقطع سبيل المعروف عديدة (منها) الأرباح المغرية التي يعطيها بعض المضاربين في السوق لمن يستثمر

---

(١) الدر المنثور: ١/ ٧٤٨.

(٢) كنز العمال: رقم ١٥٣٧٤، وكثرت رواية الحديث في مصادرنا كما في ثواب الأعمال: ١٦٧، وفي بحار الأنوار: ١٠٣/١٣٨-١٣٩.

(٣) ثواب الأعمال: ١٦٦/ ح١.

(٤) كنز العمال: ١٥٣٩٨.

أمواله عندهم وهم غالباً مغامرون لا يهمهم مصير المال لأنهم لم يشقوا باكتسابه، فيخسرون هذه الأموال وتكون نهايتهم في السجون أو الهروب إلى خارج البلد.

(ومنها) مماطلة المقترضين وعدم تسديد ما بذمتهم خصوصاً إذا أمنوا العقوبة، وبفعلهم هذا يقطعون سبيل المعروف.

ونحن نستقبل شهر رجب الأصب وايام الله تبارك وتعالى ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ﴾ (إبراهيم:٥) وهو ما يليه من شعبان وشهر رمضان من اعظم مواسم الطاعة والتقرب إلى الله تبارك وتعالى وتتأكد فيها الدعوة إلى اقراض الله تبارك وتعالى بكل عمل صالح مثمر، ومن كلٍّ بما يتيسر له ويحسنه ويناسبه والله ولي التوفيق.

القبس/١٣

سورة البقرة:﴿٢٥٦﴾

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾

موضوع القبس: الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف

﴿لَآ﴾ النافية للجنس والجملة يمكن ان تكون خبرية فيخبر الله تعالى ان ارادته لن تتعلق باكراه الناس على اعتقاد الحق قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، وتنفي الآية وجود أي حكم اكراهي في الدين يُجبر عليه الانسان من غير رضاه، فاذا تعرّض الإنسان لحكم اكراهي فليعلم انه ليس من الدين، كحديث (لا ضرر ولا ضرار)[1]، الذي ينفي وجود حكم ضرري في الشريعة.

ويمكن ان تكون العبارة انشائية فتدعوا الآية الى عدم اعتماد أسلوب الاكراه لجلب الاخرين الى الدين وتنهى عنه:

أولاً: لأنه قد تَبيّن الرشد والطريق الموصل الى الهداية والإيمان وأصبح متميّزاً عن الغي وطريق الضلال ويبقى الامر متروكا لاختيار الإنسان وارادته في سلوك اي منهما وليتحمل مسؤولية قراره ثواباً وعقاباً.

ثانياً: لان العقيدة امر عقلي وقلبي فلا يمكن فرضه بالقوة على الإنسان وانما يأتي عن قناعة به، والذي يتعرض للإكراه ويظهر ما يُريده المُكره

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٥/٢٨٠.

فانه يرجع عنه مباشرة بعد زوال الاكراه، وانما يتصور الاكراه في الأفعال والاعمال الخارجية وقد يلجا اليه العقلاء لإقرار النظام الاجتماعي ولحماية الانسان من الضرر ونحو ذلك مما سياتي.

والحقيقة ان المعنى الثاني مستند الى الأول لان حاصلهما: النهي عن اجبار شخص على الاعتقاد بالحق، لعدم إمكانية تحقيق هذه النتيجة بالإكراه، وانما بالإقناع ونستفيد من الآية عدة أمور:

١- ان الإسلام يحترم كرامة الانسان وحريته وحقه في اعتناق العقيدة التي يقتنع بها ويعتمد أسلوب الحجة والبرهان والبيان لتحصيل القناعة التامة لدى الاخر فحرية الاعتقاد أوضح علامة على انسانية الانسان فمن يسلب هذه الحرية انما يجرد الانسان من انسانيته.

ولأجل احترام هذه الحرية ومبدا الاختيار نفى ونهى عن الاكراه في الدين، والاختيار سنة إلهيّة جارية في خلقه ويتحمل الانسان مسؤولية اختياره ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٤٢).

٢- وقد كفل الإسلام مضافاً إلى ذلك حرية ممارسة الشعائر الدينية، وفي بعض الروايات (أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان سيدهم الاهتم والعاقب والسيد، وحضرت صلواتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وصلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم، فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا: إلى ما تدعوا؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأن

عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث قالوا: فمن أبوه؟) وكأنهم أرادوا أن يحرجوه (صلى الله عليه وآله) بهذا السؤال ليثبتوا أنه ابن الله (فنزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: قل لهم: ما يقولون في آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي (صلى الله عليه وآله) فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فبقوا ساكتين، فأنزل الله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم)[1].

وكان أصحاب الديانات والملل المختلفة يعيشون في ظل دولة الإسلام ويمارسون شعائرهم بكل حرية، ومن ارقى مظاهر الإنسانية تعاطف امير المؤمنين (عليه السلام) مع بعض غير المسلمين الذين تعرضوا للسلب في احدى غارات معاوية على غرب العراق بحيث يشرف (عليه السلام) على الموت ألماً وأسفاً قال: (وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى المُعَاهَدَةِ[2]، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا[3] وَقُلْبَهَا[4] وَقَلاَئِدَهَا، وَرِعَاثَهَا[5]، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالْإِسْتِرْجَاعِ وَالْإِسْتِرْحَامِ[6]، ثُمَّ انْصَرَفُوا

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٤٠/٢١.

(٢) المعاهَدَة: الذميّة.

(٣) الحِجْل ـ بالكسر وبالفتح وبكسرين ـ: الخلخال.

(٤) القُلُب ـ بضمتين ـ: جمع قُلْب ـ بالضم فسكون ـ: السوار المُصْمَت.

(٥) الرعاث ـ جمع رَعثة ـ وهو: ضرب من الخرز.

(٦) الاسترجاع: ترديد الصوت بالبكاء مع القول: إنّا لله وإنا اليه راجعون، والاسترحام: أن تناشده الرحمة.

وَافِرِينَ[١]، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ[٢]، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً)[٣].

٣- ان الاكراه المنفي ليس فقط على مستوى استعمال القوة العنيفة بل ترفَّع الإسلام أيضاً عن كل الأساليب غير الشفافة والاكراه بالقوى الناعمة كممارسة الخداع والتضليل والتمويه والتجهيل والادعاءات الباطلة، واستخدام الوسائل والظواهر الخادعة والخارقة للعادة ظاهراً التي تقود المسحور بها الى التسليم، فهذه كلها أساليب مرفوضة لأنها تصادر العقل والادراك والوعي والتدبر.

فان قلتَ: أن هذا ليس إكراهاً لغة وعرقاً.

قلنا: يمكن أن يكون المعنى القرآني أوسع منهما أو نقول ان مناط الاكراه موجود فيها وهو مصادرة الوعي والبصيرة والتدبر.

٤- تفريعاً على هذه النقطة، فان الآية الكريمة تدعو الناس الى ترك التقليد في العقائد واتباع طريق الحجة والبرهان، لان التقليد من غير تدبر وادراك ووعي هو شكل من اشكال الاكراه والمورد لا يقبله.

٥- ان الآية خير رد على من يتهم الإسلام بالتوسع بالقوة العسكرية واجبار الاخرين على اعتناقه، فان من يترفع عما ذكرناه في النقطة الثالثة يكون من باب أولى رافضاً لأساليب القهر والتهديد بالقوة، وانما جاز

---

(١) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم، ويروى (موفورين).

(٢) الكَلْم ـ بالفتح ـ: الجرح.

(٣) نهج البلاغة: ٦٧، الخطبة ٢٧- الكافي- الشيخ الكليني: ٥/٥.

القتال في بعض الموارد للدفاع عن النفس او لحماية المجتمع من الفتنة والضلال او لإزالة قبضة الطواغيت الذين يمنعون الناس من الاستماع الى الحق واتباعه ويصادرون حريتهم في الاعتقاد والممارسة ونحو ذلك من الدوافع التي ذكرناها في اكثر من موضع.

٦- مما تقدم يظهر ان موضوع هذه الآية مختلف عن موضوع آيات القتال لذا فما قيل من ان هذه الآية منسوخة بتلك الآيات غير صحيح، وإنَّ علة الحكم بعدم الاكراه في الدين وهو تبيّن الرشد من الغي موجودة ومستمرة ولا تتأثر بآية القتال.

٧- إن هذا المبدأ دليل على عظمة الإسلام، وثقته بنفسه، وقدرته على اقناع البشرية، ولذا فهو لا يحتاج الى القوة، وهكذا كل أصحاب المشاريع الناجحة الرصينة، وانما يتوسل بالقوة الفاشلون من اصحاب الأيدولوجيات البشرية، غير القادرين على اقناع الناس بمشروعهم أو أنهم لا يمتلكون مشروعاً حضارياً أصلاً.

والمفارقة الغريبة ان الله تعالى خالق البشر ومدبرهم وولي أمورهم ينهى عن الاكراه في العقيدة لكن الطواغيت والمستكبرين وهم مخلوقون عاجزون فاشلون يعطون لأنفسهم الحق في اجبار الناس على متابعتهم وتنفيذ ما يُريدون.

٨- والآية لا تنافي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لان الغرض من هذه الفريضة هو إلزام المعتقد للحق بالعمل بما أعتقده صحيحاً وليس اجبار غير المعتقد للحق على اعتقاده، مضافا الى ان هذه

الفريضة انما شُرّعت لحفظ النظام الاجتماعي العام من المفسدين والمنحرفين والمضلين، ولضمان تطبيق القوانين التي يدين بها الناس ومن واجب العقلاء فعل ذلك، وإلزام الناس بالنظام العام وعدم التجاوز على حقوق الآخرين.

٩- يفهم البعض من الآية فهماً مغلوطاً فيتصور ان الآية تدل على ان الإسلام لا يتدخل في عقيدة الانسان وسواءٌ عنده ان يؤمن او لا يؤمن، ويجيز لكل انسان ان يعتقد ما يشاء حتى عبادة الاصنام من دون أي يلحق به أي مسؤولية، وان الإسلام يقف على مسافة واحدة من الجميع.

وهذا الفهم يناقض أساس الإسلام المبني على التوحيد ونبذ الشرك والكفر قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩)، وقال ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)، وهذ الفهم يشبه من يضع القوانين لحفظ مصالح العباد والبلاد ثم يقول لهم انتم احرار في الالتزام وعدم الالتزام بها.

فالصحيح ان الله تعالى لا يأذن بعقيدة غير التوحيد وان معنى الآية إعطاء الانسان حرية اختيار العقيدة على أن يتحمل مسؤولية قراره بعد اتضاح الحق والطريق الموصل اليه.

القبس/١٤

سورة البقرة:﴿٢٦٩﴾

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾

موضوع القبس: بيان معنى الحكمة وحقيقتها

نحاول فهم معنى الآية الشريفة والاستفادة منها عمليّاً في حياتنا من خلال توضيح عدّة نقاط:

معنى الحكمة:

١- معنى الحكمة وحقيقتها:

الحكمة أخذت من (الحَكَمة) وهو لجام الدابة الذي يمنعها من التقّحم والاضطراب ويضبط حركتها[1].

فكذلك الحكمة لجام للنفس الامارة بالسوء والشهوات والنزوات والانفعالات وترشّد افعال الانسان بما يوافق العقل والفطرة.

وأصل الكلمة (حَكَم) بمعنى (مَنَع) ولكن ليس مطلق المنع وإنما ما كان لإصلاح وسمي الحكم حكماً لان الحاكم العادل يمنع الظلم وسمي العلم حكمة لأنه يمنع المتصف به من الجهل، لذا فهي تعني الاتقان والإحكام وإحسان العمل وسميت الآيات محكمات لأنهن متقنات لا تقبل الاختراق.

---

(١) لسان العرب ابن منظور: ١٢ / ١٤٤

الحكمة في القرآن واللغة:

فالحكمة - بحسب ظاهر القرآن الكريم واللغة لا ما شيّده الفلاسفة واضافوا فيه من عندياتهم - ما يضبط تفكير الانسان وإرادته وتوجهاته وسلوكه في الاتجاه الصحيح وتكون له بوصلة حياته، فتبدأ بالعلم النافع والمعرفة الحقة وتنتهي بالعمل بمقتضاهما والأخذ بهداهما ثم اتمامها بالثبات على ذلك.

وقد قيل في تعريف الحكمة اقوال عديدة تندرج ضمن هذا الاطار فقيل بأنها (إصابة الحق بالعلم والعقل)، وانها (تحقيق العلم وإتقان العمل)، أو (ما يمنع من الجهل والاصابة في القول)، (وقال ابن دريد كل ما يؤدي الى مكرمة او يمنع من قبيح، وقد يطلق على العلوم الفائضة من جنابه تعالى على العبد بعد العمل بما يعلم)[1].

كل ما يوصل الى الأهداف السامية من الخلقة:

وكذلك فسرَّت الروايات الشريفة الحكمة الواردة في الآيات القرآنية بتفاسير عديدة، هي عبارة عن مصاديق وآليات لهذا الإطار العام، أي كل ماله دخل في الوصول الى الهدف، ففي الكافي والمحاسن للبرقي وتفسير العياشي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في (قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩)، فقال (عليه السلام): طاعة الله ومعرفة الإمام)[2].

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (سمعته يقول (عليه السلام): ﴿وَمَنْ

(١) أنظر: بحار الانوار- المجلسي: ٢١٥/١- لسان العرب- ابن منظور: ١٤٠/١٢.

(٢) المحاسن- البرقي: ١٤٨/١.- الكافي- الشيخ الكليني: ١٨٥/١.

يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال (عليه السلام): معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار)[1].

وفسرّها الإمام الباقر (عليه السلام) بالمعرفة[2]، وعن سليمان بن خالد قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقال (عليه السلام): ان الحكمة المعرفة والتفقه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم، وما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من فقيه)[3].

وفي الحديث النبوي الشريف (القرآن منار الحكمة)[4].

شرف الحكمة:

٢- شرف الحكمة وفضلها:

وقد اكتسبت الحكمة أهمية كبرى في حياة الساعين الى الكمال والراغبين في رضوان الله عز وجل، لما ورد فيها من الفضل والشرف حيث وصفتها الآية الكريمة بانها خير كثير، وجعل تحصيلها الغرض من بعث النبيين (عليهم السلام) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ (آل عمران:٨١)، وعن نبينا (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:١٦٤).

---

(١)الكافي- الشيخ الكليني: ٢٨٤/٢.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٢١٥/١.

(٣) تفسير العياشي- العياشي: ١٥١/١.

(٤) تفسير نور الثقلين- الشيخ الحويزي: ٢٨٧/١.

وفي الحديث النبوي الشريف: (كلمة الحكمة يسمعها المؤمن خير من عبادة سنة)[١]، وفي مواعظ عيسى (عليه السلام) (إن الحكمة نور كل قلب)[٢]، وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (كاد الحكيم أن يكون نبياً)[٣]، وفي كتاب منية المريد للشهيد الاول (قدس سره) أنه مكتوب في التوراة قول الله تبارك وتعالى (عظّم الحكمة فأني لا أجعل الحكمة في قلب أحد إلا وأردت أن أغفر له فتعلمها ثم أعمل بها ثم ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة)[٤].

لانها كما وصفها الإمام الصادق (عليه السلام) (الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمرة الصدق، وما انعم الله على عبد من عباده نعمة انعم واعظم وأرفع اجزل وابهى من الحكمة للقلب، قال الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:٢٦٩)، أي لا يعلم ما أودعت وهُيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسي وخصصته بها، والحكمة هي النجاة وصفة الحكمة الثبات عند اوائل الامور والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله الى الله تعالى، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) (لأن يهدي الله على يديك عبداً من عباد الله خير لك مما طلعت عليه الشمس من مشارقها الى مغاربها))[٥].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٧٢/٧٤.- ميزان الحكمة- الريشهري: ٤٣١/٢.

(٢) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٥١٢.- ميزان الحكمة- الريشهري: ٤٣١/٢.

(٣) كنز العمال- المتقي الهندي: ١١٧/١٦.- ميزان الحكمة- الريشهري: ٤٣١/٢.

(٤) بحار الأنوار- المجلسي: ١/ ٢٢٠/ح٥٧.

(٥) مصباح الشريعة- المنسوب للإمام الصادق(عليه السلام):١٩٨- بحار الأنوار- المجلسي:٢١٥/١.

ولأهمية طلب الحكمة الموصلة الى الله تعالى التي فسرتها بعض الروايات بالتفقه بالدين لم يجد الأئمة (عليهم السلام) عذراً لتارك طلبها، روى البرقي في المحاسن عن الإمامين الصادقين (عليهما السلام) (لو اتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدّبته)[1]، قال وكان أبو جعفر (عليه السلام) يقول: (تفقّهوا وإلا فأنتم اعراب)[2].

ضالة المؤمن:

٣- الحكمة ضالة المؤمن:

ولذا اصبح طلب الحكمة والبحث عنها من صفات المؤمنين بغض النظر عن مصدرها انطلاقاً من كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام) (لا تنظر الى من قال وأنظر الى ما قال)[3]، وعنه أيضاً انه قال: (الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)[4]، وفي كلمة أخرى (فأطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها)[5].

وهذا الطلب للحكمة من اي مصدر كان له ما يبرّره، من مواعظ عيسى (عليه السلام) قال: (لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة لأستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح نتِنه، كذلك ينبغي لكم ان تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه

---

(١) المحاسن- البرقي: ٢٢٨/١.- بحار الأنوار- المجلسي: ٢١٤/١.

(٢) المحاسن- البرقي: ٢٢٨/١.- بحار الأنوار- المجلسي: ٢١٤/١.

(٣) كنز العمال- المتقي الهندي: ٢٦٩/١٦- غرر الحكم: ح١٠١٨٩.

(٤) نهج البلاغة: ١٨/٤/ خطب الإمام علي (عليه السلام).

(٥) الأمالي- الشيخ الطوسي: ٦٢٥.- بحار الأنوار- المجلسي: ٩٧/٢.

ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها)[١].

ووصف الحكمة بانها ضالة المؤمن يحمل عدّة معانٍ منها:

أ- ان صاحب الضالّة - وهو الحيوان الشارد التائه- كما لا يستقر له قرار حتى يجد ضالته، كذلك المؤمن عليه ان لا يتوقف عن السعي لطلب الحكمة، حتى يقتنصها من اي مصدر كان.

ب- إن الضالة ملك لصاحبها فيأخذها من دون منازع، وعلى كل من يجدها أن يعيدها الى صاحبها، وكذلك الحكمة فأن المؤمن أحق بها فلابد من إيصالها اليه، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (كلمة الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها)[٢].

ت- كما ان الضالة تبقى قلقة مضطربة عند من يلتقطها حتى تعود الى صاحبها وراعيها لأنسها به وبرعايته ورفيقاتها في الحضيرة، كذلك الحكمة لا تستقر عند غير صاحبها فيخرجها ليلتقطها المؤمن الذي هو صاحبها وبهذا المعنى وردت كلمات عديدة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (خذ الحكمة أنّى كانت، فان الحكمة تكون في صدر المنافق فتلّجلجُ في صدره حتى تخرج فتسكن الى صواحبها في صدر المؤمن)[٣].

تحروا الحكمة:

المطلوب تحري الحكمة والموعظة واقتناصها من كل شيء حولك وتحويلها

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٠٧/٧٥.- تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٩٢.

(٢) كنز العمال- المتقي الهندي: ١١٢/١٦.

(٣) نهج البلاغة: ١٨/٤/ خطب الإمام علي (عليه السلام).

الى سلوك عملي (قيل للقمان:ممن تعلمت الحكمة؟ قال: من العميان: لأنهم لا يضعون أقدامهم في محل حتى يختبروه. وقيل للقمان ممن تعلمت الأدب؟ فقال: ممن لا ادب لهم فأجتنبت كل ما استهجنته منهم)[1].

وهذا وجه لفهم سبب ورود الفعل في الآية مبنيّاً للمجهول ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾ ﴿أُوتِيَ﴾ رغم ان الواهب معروف وهو الله تعالى لكن في ذلك اشارة الى ان الحكمة امر مرغوب ومطلوب بغّض النظر عن مصدرها.

تقسيمات الحكمة:

٤- تقسيمات الحكمة:

وفي ضوء ما تقدم ومن استقراء الآيات الكريمة والروايات الشريفة نتوصل الى ان الحكمة على ثلاثة اقسام[2]، وهي في الحقيقة ثلاث مراتب ومراحل ودرجات تفضي الواحدة الى الاخرى بفضل الله تبارك وتعالى.

الأولى: الحكمة العلمية:

وهي العلوم والمعارف التي اتى بها الانبياء والمرسلون والائمة (عليهم السلام) لتكميل نفوس الناس وتشمل علوم العقائد والاخلاق والشريعة والمواعظ والامثال والسنن الالهية والآيات الكونية ونحو ذلك، وقد تضمّنها القرآن الكريم لذا وصف بالحكيم ووصفته آياته بقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:٣٩)، وجعل ايصال هذه الحكمة وتعليمها هدف بعثه النبيين،

---

(١) حكم لقمان- الريشهري: ٨.

(٢) ذكر العلماء تقسيمات اخرى، وانما ذكرنا ما يرتبط بفكرة البحث.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)، ومثلها (الجمعة:٢) و(البقرة:١٢٩-١٥١).

الثانية: الحكمة العملية:

وهي الممارسة العملية المؤدية الى التكامل من خلال الالتزام وتطبيق تلك الحكمة العلمية، وسياتي في روايات كثيرة اطلاق الحكمة على جملة من هذه الممارسات.

الثالثة: الحكمة الحقيقيّة:

وهي حالة الانكشاف والنورانية التي يهبها الله تعالى لمن نجح في المرحلتين السابقتين وهو العلم والفقه الحقيقي المقصود في الآيات والروايات كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٨).

ونتيجته حصول المعرفة بحقائق الاشياء هبة من الله تعالى، ففي الآية محل البحث ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، وقال في حق لقمان الحكيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان:١٢).

كيفية الحصول على الحكمة:

٥- مقدمات الحصول على الحكمة:

الآية صريحة بأن الحكمة فضل من الله يؤتيه من يشاء، وفي الحديث عن امير

المؤمنين (عليه السلام) (لا حكمة الا بعصمة)[١]، اي من الله تعالى، ومع هذا فان لتحصيل الحكمة مقدّمات ومقومات فينبغي تحقيقها، وموانع تجب ازالتها.

اي ان لتحصيلها ركنين اشارت اليها الروايات الشريفة:

أ- ايجاد المقدمات مثل ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (رأس الحكمة مخافة الله)[٢].

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (حفظ الدين ثمرة المعرفة ورأس الحكمة)، وعنه (عليه السلام) قال: (رأس الحكمة تجنب الخداع)، وعنه (عليه السلام) (رأس الحكمة لزوم الحق وطاعة المحق)[٣].

ب- ازالة الموانع مثل ما ورد عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (اغلب الشهوة تكمل لك الحكمة)[٤]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من زهد في الدنيا اثبت الله الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه)[٥].

وفي الحديث القدسي في المعراج: (يا احمد ان العبد اذا أجاع بطنه وحفظ لسانه[٦] علمته الحكمة، وان كان كافرا تكون حكمته حجة عليه ووبالاً، وان كان

---

(١) غرر الحكم - الآمدي: ٥٩/ حكمة: ٦١٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٣٧٦/٤.

(٣) غرر الحكم - الآمدي: ٣٧٨/ حكمة: ٣٦.

(٤) غرر الحكم - الآمدي: ١٣٢/ حكمة: ٤٩.

(٥) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٣/٢.

(٦) ليس فقط عن المحرمات بل عن فضول الكلام ايضا، روي في عدة مصادر: ان لقمان كان عبداً لداوود (عليه السلام) وهو يسرد الدرع فجعل يُفتله هكذا بيده، فجعل لقمان (عليه السلام) يتعجب ويريد ان يساله، وتمنعه حكمته ان يساله، فلما فرغ منها صبّها على نفسه وقال: نعم درع الحرب هذه، فقال

مؤمناً تكون حكمته له نوراً وبرهاناً وشفاءاً ورحمةً، فيعلم مالم يكن يعلم ويبصر مالم يكن يبصر، فأوّل ما ابصّره عيوب نفسه حتى يشتغل عن عيوب غيره، وابصّره دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان)[١].

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) (التخمة تفسد الحكمة، البطنة تحجب الفطنة) وعنه (عليه السلام) (لا تجتمع الشهوة والحكمة)[٢].

وفي كلام منسوب لأمير المؤمنين (عليه السلام) (من اخلص لله اربعين صباحا يأكل الحلال صائما نهاره وقائما ليله اجرى الله سبحانه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[٣].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (الغضب ممحقة لقلب الحكيم، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله)[٤].

وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) (إن الزرع ينبُتُ في السَّهل ولا ينبُتُ في الصَّفا، فكذلك الحكمة تعمرُ في قلب المتواضع، ولا تعمرُ في قلب المتكبّر الجبّار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل)[٥].

لقمان: الصمت من الحكمة وقليل فاعله، كنت اردت ان اسالك فسكت حتى كفيتني) الدر المنثور- السيوطي: ٥١٣/٦، ومصادر اخرى، ذكرها في الهامش مفردات الراغب: ٤٥٠.

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٩/٧٤.

(٢) غرر الحكم - الآمدي: ٧٧٢/ حكمة: ١٣٩.

(٣) حكم لقمان- الريشهري: ٢٦، عن مسند زيد بن علي: ٣٨٤.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٠٥/٢.

(٥) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٩٦.

وعن عيسى (عليه السلام) (إنه ليس على كل حال يصلح العسلُ في الزِّقاق[١]، وكذلك القلوب ليس على كل حال تعمر الحكمة فيها، إن الزِّقَّ ما لم ينخرق أو يَقحَل- اي ييبس - أويَتْفَلْ - اي تكون فيه رائحة نتنة - فسوف يكون للعسل وعاء، وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات ويدّنسها الطمع ويقسِها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة)[٢].

وعن الإمام الهادي (عليه السلام): (الحكمة لا تنجعً في الطباع الفاسدة)[٣].

وعن الإمام علي (عليه السلام): (غير منتفع بالحكمة عقل معلول بالغضب والشهوة)، وعنه (عليه السلام): (غير منتفع بالعِظات قلب متعلِّق بالشهوات)[٤].

آثار الحكمة:

٦- من اثار الحكمة على السلوك:

وقد نبّهت الروايات الى عدد من السلوكيات التي تُعتبر من آثار وجود مرتبة من مراتب الحكمة لدى الانسان، اي ان الحكمة لابد ان تظهر لها آثار على صاحبها، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لابد له من معاشرته، حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً)[٥].

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ليس الحكيم من لم يدارِ من لا يجدُ بداً من

---

(١) الزِّق وعاء من الجلد كالقربة يُتخذ لحفظ ونقل المائعات كالعسل والدبس ونحو ذلك.

(٢) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٥٠٤.

(٣) أعلام الدين في صفات المؤمنين- الديلمي: ٣١١.- بحار الأنوار- المجلسي: ٣٧٠/٧٥.

(٤) غرر الحكم - الآمدي: ٤٧٢/ حكمة: ٢٦.

(٥) كنز العمال- المتقي الهندي: ٢٧/٩.

مداراته)[١]، وعنه (عليه السلام) قال: (ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضّي بثناء الجاهل عليه)[٢]، وعنه (عليه السلام) (الحكماء اشرف الناس انفساً، واكثرهم صبرا، واسرعهم عفوا واوسعهم اخلاقاً)[٣].

لقمان الحكيم:

٧- لقمان ينال الحكمة:

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان:١٢)، فهو ممن وصل مرتبة الحكمة الحقيقية، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (حقا اقول: لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، احبَّ الله فاحبَّهُ، ومنّ عليه بالحكمة)[٤].

ومن كلماته الحكمية التي رواها الائمة المعصومون (عليهم السلام) وهو يوصي ابنه: (يا بني ان الدنيا بحر عميق قد هلك فيه عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الايمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فان نجوت فبرحمة الله ، وان هلكت فبذنوبك.

يا بني: خفِ الله خوفا لو اتيت القيامة ببرّ الثقلين خفت ان يعذبَّك، وارجُ الله رجاءاً لو وافيتَ القيامة بأثم الثقلين رجوت ان يغفرك لك.

واعلم: انَّك ستسأل غداً اذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن اربعة: شبابك

---

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٢١٨.

(٢) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٢٠٨.

(٣) غرر الحكم - الآمدي: ١٢٠/ حكمة: ٢١٢٩.

(٤) بحار الأنوار- المجلسي: ٤٢٤/١٣.

فيما ابليته، وعمرك فيما افنيته، ومالك فيما اكتسبته وفيما انفقته، فتأهب لذلك واعدَّ له جوابا، ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فان قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذركّ وجدَّ في امرك)[1].

ومثل هذه الكلمات لا يكفي ان نقراها او نسمعها ونمَّر عليها بل لابد من الاحتفاظ بها ومراجعتها باستمرار وتكفلت كتب بجمع هذه الحكم كموسوعة (ميزان الحكمة)[2].

التأسي بلقمان الحكيم:

٨- هل يمكن ان تكون مثل لقمان الحكيم:

والجواب: نعم، لان ايتاء الحكمة فضل من الله تعالى مفتوح ومعروض لكل من يستحقه، ولذا حثّت الآية الكريمة على ان نكون من اهلها، وذلك اذا سرت على المنهاج المؤدي لتحصيلها كالذي وصفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) آنفاً عن لقمان الحكيم، علماً وعملاً.

وقد ورد في عدّة روايات توصيف عدد من اصحاب اهل البيت (عليهم السلام) انهم مثل لقمان الحكيم، فقد روي عن الإمام علي (عليه السلام) في وصف سلمان الفارسي، قوله: (من لكم بمثل لقمان الحكيم، وذلك امرؤ منّا اهل البيت، ادرك العلم الاول وادرك العلم الاخر، وقرأ الكتاب الاول وقراء الكتاب الاخير بحر لاينزف)[3].

---

(١) تفسير القمي: ١٦٤/٢.- الكافي- الكليني: ١٣٥/٢.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الريشهري: ٦٢٢/١.

(٣) بحار الانوار: ١٢٣/١٠/ح٢.- تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر: ٤٢٢/٢١.

بل عن الإمام الصادق (عليه السلام) (سلمان خير من لقمان)[١]، وورد مثل ذلك في ابي حمزة الثمالي ويونس بن عبد الرحمن فقد روى الفضل بن شاذان قال: سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: (ابو حمزة الثمالي في زمانه كلقمان في زمانه، وذلك انه خدم اربعة منا: علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وبرهة من عصر موسى بن جعفر (عليهما السلام)، ويونس بن عبد الرحمن كذلك هو سلمان زمانه)[٢].

هذه هي الحكمة التي فيها خير كثير، فاطلبوها طول عمركم ودوّنوا ما ترزقون منها في دفتر خاص لتستفيدوا منها دائما وتراجعوها وتتعظوا بها وتتخذوها برنامجاً لحياتكم.

التحلي بالحكمة لا بالعبادة فقط:

٩- الحكمة اساس لتقييم الاشخاص:

صحيح ان التدين اساس تقييم الاشخاص فيُعطى قيمة اكبر كلما كان التزامه باحكام الشريعة ادّق واكثر، إلا ان الدين لا يقتصر على العبادات المعروفة، فاذا اردنا التعامل مع شخص كمصاحبته ومصادقته او تزويجه ومصاهرته، فانه لا يكفي ان يكون ملتزماً بالواجبات الدينية المعروفة كالصلاة والصوم وتجنب الكبائر كشرب الخمر والزنا، وان كان في هذا خير كثير، وانما نبحث ايضاً عن حكمته وتعقّله، لان الحكمة عُبر عنها في الكثير من الاحاديث بالعقل.

وذلك يعني ان نختبر حسن تصرفه ومعاشرته وتعامله، وانه يضع الامور في

---

(١) بحار الانوار: ٣٣١/٢٢/ح٤٢.

(٢) رجال الكشي: ٣٠٢، ترجمة يونس بن عبد الرحمن.

مواضعها، ويتحلى بالحكمة والاخلاق الفاضلة، وقد وردت في ذلك احاديث شريفة، منها ما اشتهر عن اهل البيت (عليهم السلام) روايتهم لحديث جدهم المصطفى (صلى الله عليه وآله) (اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجّوه الا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير)[1]. فلم يكتفِ الحديث بان يكون دينه مرضيّاً بل ان تكون له حكمة في تصرفاته.

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٤٧/٥.

القبس/١٥

سورة آل عمران:﴿١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾

الدين كاصطلاح: هو منظومة العقائد والقواعد والأفكار التي يلتزم بها الانسان ويتعبّد بها، وما يتفرع عنها من سلوك، وكل انسان في هذه الدنيا لابد أن يكون له دين حتى أكثر الشعوب تخلفاً وهمجية.

وقد يكون هذا الدين الهيّاً وقد يكون ماديّاً من صنع البشر وابتداعهم، حتى الذين يسمون باللادينيّين فان لهم ما يعتقدون به من حريات منفلتة وإباحية وزواج مثليّين وقمع للقيم الدينيّة السامية.

والآية الكريمة تكشف عن هذه الحالة الطبيعية لدى الانسان وتأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار فلا تتحدث عن ضرورة ان يكون للإنسان دين، وانما تنتقل إلى السؤال الثاني مباشرة، وهو معرفة الدين الذي يجب ان يعتقده الانسان وتوجيه بوصلته إليه، وتنظيم حياته على أساسه، لان الله تعالى بفضله وإحسانه وشفقته لا يترك الانسان تائهاً أو يقضي عمره بالتجربة والخطأ ليصل إلى الصواب وإنما قرَّر له الحقيقة التي تقوده إلى السعادة والفلاح ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾، ولسانها الحصر أي تنفي سلامة وصحة أي دين آخر وإن اتعب الناس أنفسهم في صياغته واحكامه.

والإسلام يعني الانقياد والتسليم لله تبارك وتعالى وهو عنوان عام، الا انه اختص بالدين الإسلامي الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) وختم به الديانات والنبوات، لانه اكملها وادقها في تحقيق معنى الإسلام الذي يغطي كل شؤون الحياة الفردية

والاجتماعية ولم يستوعبها دين غير دين الاسلام ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة:٣)، وهو يتضمن الايمان بصدق كل الأنبياء السابقين وصحة ما أتوا به ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦)، الا أن التعبد والتدين لابد أن يكون وفق هذه الشريعة الخاتمة.

وهذه الحقيقة يُذعن بها العقل وتؤمن بها الفطرة من دون الحاجة إلى دليل ولا يشكك فيها الا مكابر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل:١٤)، لان الله تعالى خالق هذا الانسان والعارف بخلجات نفسه ومكنونات ضميره وكل ما يصلح شأنه فمن الطبيعي التوجه إليه لمعرفة ما ينظم حياته ويكفل له سعادته وصلاحه.

وتضيف آية في نفس السورة سبباً آخر يدعو الانسان إلى اعتناق الإسلام دون أي دين او نظام غيره، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران:٨٣)، فالكون كله منقاد لمشيئة الله تعالى وارادته ويسير وفق النظام الدقيق الذي وضعه الله تعالى له، والانسان ما هو الا ذرة ضئيلة في هذا الكون وخاضع لنظامه فهو يولد بشكله وتركيبته من دون ارادته، ويكبر ويهرم ويموت وتعمل أجهزة جسمه بلا إرادة منه.

فهذا الإسلام والانقياد التكويني لابد ان يقترن معه انقياد تشريعي لتنسجم حركته مع الكون كله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

(النساء:١٢٥)، والا تعرض لكوارث وصعوبات.

وقد التفت العلم الحديث قريباً إلى هذه الحقيقة، فأذعن بأن الانسان اذا خرج عن السنن الكونيّة الطبيعيّة، فانه يُسبب لنفسه الدمار والهلاك، وكذا على صعيد المجتمعات والدول.

فالسؤال هنا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ﴾، فيه استنكار واستهجان وتوبيخ لخروجه من هذا النظام الكوني المتناسق.

ويأتي الجواب: بعد آيتين ليسجل العاقبة الأليمة لهذا الخروج ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥)، فمن طلب ديناً غير الإسلام فهو خاسر، لانه أضاع هذه الثروة العظيمة التي منَّ الله تبارك وتعالى عليّه بها، واستبدل بها اوهاماً وضلالات، وافنى عمره الثمين في متع زائلة واتبع هواه وانانيته.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دَيْناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ[1]، وَيَكُنْ مَآبُهُ[2]، إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ[3]، إِلَيْهِ وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ)[4]، وقوله: (ايها الناس: دينكم دينكم تمسكوا به لا يزيننكم ولا يردنكم احد عنه فأن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره لان

---

(١) الكَبْوَة: السقطة.

(٢) الإنابة: الرجوع.

(٣) أسْبَغَ: أي أحاط بجميع وجوه الترغيب.

(٤) نهج البلاغة: ١٦١، ومن خطبة له (عليه السلام) في صفة النبي وأهل بيته وأتباع دينه وفيها يعظ بالتقوى.

السيئة فيه تغفر والحسنة في غيره لا تقبل)[١].

فلنلتفت إلى هذه الحقيقة مادمنا في هذه الدنيا وفرصة العمل مفتوحة امامنا ونتمسك بديننا ونجعله أهم شيء عندنا، والا فان هذه الحقيقة ستنكشف للغافلين يوم القيامة حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥)، وحينئذٍ يعلم العلمانيون والملحدون واللادينيون من الفائز بالسعادة؟

ولابد ان نلتفت إلى ان الإسلام ليس مجرد نطق بالشهادتين ولا يكفي فيه أداء العبادات الشخصية الواجبة، فان الانقياد والطاعة لا تتحقق بذلك لوحده، وإنما بالتطبيق الشامل للشريعة والالتزام بالدين في شؤون الحياة كافة، فهذا هو الإسلام وليس المظاهر والشكليات أو النسخ المحرَّفة او النماذج المنعزلة في الزوايا والكهوف.

لان من اهم علامات الصدق في الدين التحرك به ونشره وادخال الناس فيه، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (لا دين لمن لا يدين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[٢]، ويذمّ أمير المؤمنين (عليه السلام) المتقاعسين الذين جعلوا دينهم تبعاً لدنياهم قال: (وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَى سَيِّدِهِ)[٣].

أي ان قلة اهتمامكم بدينكم يوحي وكأنكم أنجزتم ما عليكم تجاه خالقكم واحرزتم رضا الله تبارك وتعالى فلم تعودوا محتاجين إلى عمل والأمر ليس

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٢/٤٦٤.

(٢) بحار الانوار: ١٠٠/ ٨٦/ ح٥٩.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة/١١٣.

كذلك أكيداً، وعنه (عليه السلام) قال: (إن جعلت دينك تبعاً لدنياك أهلكت دينك ودنياك وكنت في الآخرة من الخاسرين، إن جعلت دنياك تبعاً لدينك أحرزت دينك ودنياك وكنت في الآخرة من الفائزين)[1].

وقد اعطى القرآن الكريم القيمة العظمى للدين وقدّمه على كل شيء قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:١٩١)، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧)، فإزهاق النفس والتضحية بها يهون في سبيل التمسك بالدين وعدم الفتنة عنه، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ (غافر:٤٥) قوله (عليه السلام): (يعني مؤمن آل فرعون، والله لقد قطعوه إربا إربا، ولكن وقاه الله أن يفتنوه في دينه)[2].

وفي هذا وردت روايات المعصومين (عليهم السلام) فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (وإذا نزلت نازله فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أن الهالك من هلك دينه والحريب من حُرب دينه)[3].

وقد ادرك من وفّقهم الله تعالى لمرضاته هذه الحقيقة فتمسكوا بدينهم وثبتوا عليه رغم الاغراءات التي عرضت عليهم، والعقوبات الصارمة التي هُددّوا بها.

ويحكي القرآن الكريم قصص جملة منهم للتأسي بهم كاصحاب الأخدود الذين حفر لهم خندق واضرمت فيه النار وأُلقوا فيها ولم يعطوا للظالم ما يريد من تركهم لدينهم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

---

(١) عيون الحكم والمواعظ- علي بن محمد الليثي: ١٦١.- غرر الحكم: ٣٧٥١، ٣٧٥٠

(٢) تفسير القمي- القمي: ٢٥٨/٢.

(٣) الكافي: ٢١٦/٢/ح٢.

(البروج:﴿٨﴾)، وكسحرة فرعون الذين هدّدهم بقطع الايدي والارجل ثم القتل فأجابوه ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا﴾ (طه:﴿٧٣﴾)، وكامرأة فرعون التي لم ترضخ تحت تعذيب فرعون الوحشي وكان نظرها إلى الله تبارك وتعالى ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ (التحريم:﴿١١﴾)، وكأصحاب الكهف الذين لم تغرهم مكانتهم كأُمراء في الممالك الرومانية ولا أخافهم بطش القياصرة الرومان ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ (الكهف:﴿١٤﴾).

وبالمقابل فان الخاسرين الذين أغراهم الشيطان وغرّتهم الدنيا كثر أيضاً، كقاضي قضاة الدولة العباسية[1] - وهو أعلى مرجعية دينية في الدولة- الذي سعى لدى المعتصم العباسي بقتل الإمام الجواد (عليه السلام) حسداً، لانه اخذ بحكم الإمام (عليه السلام) في قطع يد السارق وهو يعلم ان في ذلك النار[2].

وكحميد بن قحطبة الوالي والقائد العباسي في الرواية التالية التي تكشف عن جانب من وحشية بني العباس وحقدّهم على أهل بيت النبوة، وإصرار الطواغيت وشياطين الانس والجن على سلب الدين وعدم اكتفائهم بما دون ذلك.

ففي كتاب اخبار الرضا للشيخ الصدوق بسنده (عن عبيد الله البزاز النيسابوري

---

(١) قاضي بغداد محمد بن أحمد بن أبي داود، أبو الوليد الإيادي القاضي. تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي: ٣١٣/١.

(٢) راجع: تفسير العياشي- العياشي: ١:٣١٩.

- وكان مُسناً- قال: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيام، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم أغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر؛ فلما دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست فاتي بطست وإبريق فغسل يديه، ثم أمرني فغسلت يدي وأُحضرت المائدة، وذهب عني أنّي صائم، وأنّي في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟ فقلت: أيّها الأمير هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علة توجب الافطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك أو علة توجب الافطار، فقال: ما بي علة توجب الافطار وإني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى؛ فقلت له بعد ما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟ فقال: أنفذ إليّ هارون[1] الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب، فلما دخلت عليه رأيت بين يديّه شمعة تتقد وسيفاً أخضر مسلولاً وبين يديّه خادم واقف فلما قمتُ بين يديّه رفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال، فأطرق ثم أذن لي في الانصراف؛ فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنا لله أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وإنه لما رآني استحيا مني فعدت إلى بين يديّه فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل

---

(١) لعله اشتباه، والصحيح أنه أبو جعفر المنصور، لأن وفاة أبو جعفر المنصور كانت سنة (١٥٢هـ)، وحميد بن قحطبة مات سنة (١٥٩هـ)، وهارون الرشيد تولى الخلافة سنة (١٧٠هـ). انظر: البداية والنهاية- ابن كثير: ١٣٠/١٠.- تاريخ الطبري- الطبري: ٤٢١/٦.- الأعلام - خير الدين الزركلي: ٢٨٣/٢.

والولد، فتبسم ضاحكا - لان الأمير علم ان ابن قحطبة فهم الرسالة وان المطلوب منه عرض سخي اكبر من هذا-، ثم أذن لي في الانصراف؛ فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد الرسول إلي فقال: أجب أمير المؤمنين فحضرت بين يديّه وهو على حاله، فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين فضحك، ثم قال لي: خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم؛ قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه، وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه، حتى أتيتُ على آخرهم، ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر؛ ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) مقيدون فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه، ويرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على آخرهم، ثم فتح باب البيت الثالث، فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة (عليهم السلام) مقيدون عليهم الشعور والذوائب فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضاً فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي: تبا لك يا مشوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمتَ على جدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقد قتلتَ من أولاده ستين نفساً، قد ولدهم علي وفاطمة (عليهم السلام)، فارتعشتْ يدي وارتعدتْ فرائصي فنظر إلي

الخادم مغضباً وزبرني، فأتيتُ على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته، ورمى به في تلك البئر، فإذا كان فعليّ هذا وقد قتلتُ ستين نفساً من ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فما ينفعني صومي وصلاتي وأنا لا أشك أني مخلد في النار)[1].

وتضمنت واقعة كربلاء مشاهد للفريقين:

فمن الأول: الحر الرياحي الذي كان يرتعد وهو يرى جيش ابن زياد عازماً على قتل الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته، ولما سأله صاحبه عن السبب قال: (إني أخيِّر نفسي بين الجنة والنار ولا أختار على الجنة شيئاً)[2].

ومن الثاني: عمر بن سعد بن ابي وقاص وهو قرشي وذو رحم بالحسين (عليه السلام) ويعرفه حق المعرفة، ولكن أنانيته وطمعه وولعه بولاية الري وجرجان دفعه إلى الاقدام على هذه الجريمة الشنيعة، فخسر الدنيا والآخرة، وكان يردد ليلة اتخاذ القرار:

أأترك ملك الري والري منيتي ... ام أرجع مأثوماً بقتل حسين
حسين ابن عمي والحوادث جمة ... لعمرك ملك الري قرة عين[3]

(١) عيون أخبار الرضا(عليه السلام)- الصدوق:١٠٨/١.- بحار الأنوار- المجلسي: ٤٨ /١٧٨.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف- السيد ابن طاووس: ٦٢.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف- السيد ابن طاووس: ١٩٣.

القبس/١٦

سورة آل عمران:﴿٣٨﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

موضوع القبس: الحث على تكثير النسل

استحباب تكثير النسل:

قال الله تبارك وتعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ﴿٣٨﴾).

﴿هُنَالِكَ﴾ مرتبطة بالآيات التي سبقتها عن الصديّقة مريم ونشأتها وتفّرغها لعبادة ربها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ﴿٣٧﴾).

وعند ذلك هاجت في قلب النبي الكريم زكريا (عليه السلام) رغبة جامحة لتحصيل ولد صالح كريم ولم يكن ذلك ممكناً بالاسباب الطبيعية لانه كان قد بلغ من الكبر عتيا ووهن عظمه وضعفت قوته وأمراته عاقر فتوجه بالطلب الى الله تعالى لانقطاع الأسباب المرجوة الا منه تبارك وتعالى.

وتوجّه (عليه السلام) بنداء ﴿رَبِّ﴾ أي اطلب منك بصفتك ربي الذي توليّت تربيتي والعناية به وإكرامي حتى انعمت عليَّ بمقام النبّوة فسأله ان يهبه ذرية طيبة.

﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي بالرحمة اللدنية الخاصة الخارقة للعادة لانعدام الوسائل الطبيعية وكان واثقاً بقدرة الله تعالى مطمئناً الى رحمته فاستجاب له ربّه ﴿فَنَادَتْهُ

الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:﴿٣٩﴾).

روى الشيخ الصدوق عن الريان بن شبيب قال: (دخلت على الرضا (عليه السلام) في أول يوم من المحرم فقال: يا ابن شبيب أصائم أنت؟ قلت:لا، فقال: ان هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريا (عليه السلام) ربه عز وجل فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فاستجاب الله له وأمر الملائكة فنادت زكريا ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب الله لزكريا)[1].

ومما تفيده الآية الكريمة الحث على طلب الذرية الصالحة الطيبة والسعي لتحصيلها وعدم فقدان الامل بالله تبارك وتعالى، وهو امر فطري ينبع عن غريزة قوية للانجاب لان الولد امتداد لوجود الانسان وبقاء لذكره وحفظ لانجازاته التي حققها في حياته ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم:﴿٥﴾-﴿٦﴾) مع مافيه من الانس والسعادة والبهجة، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:﴿٤٦﴾) فاذا انضمت هذه الدوافع الفطرية والغريزية الى حث الشريعة المقدسة على الزواج وتحصيل الولد وتكثير النسل وجعلته من المستحبات الاكيدة التي تدخل السرور على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله)،كانت مبررات كافية للدعوة الى تكثير النسل.

---

(١) عيون أخبار الرضا(عليه السلام):ج٢/ ٢٦٨.

وتوجد أحاديث كثيرة للحثّ عليه، كرواية الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): تزوّجوا فإنّي مكاثرٌ بكم الأمم غداً في القيامة حتّى أن السقط ليجئ محبنطئا[1]، على باب الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: لا حتى يدخل أبواي الجنة قبلي)[2].

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: (ميراث الله من عبده المؤمن الولد الصالح يستغفر له)[3].

وروي عن بكر بن صالح قال: (كتبت إلى أبي الحسن (عليه السلام): أني اجتنبت طلب الولد منذ خمس سنين وذلك أن أهلي كرهت ذلك وقالت: إنّه يشتد عليّ تربيتهم لقلّة الشئ فما ترى؟ فكتب (عليه السلام) إليّ: اطلب "الولد" فإن الله عز وجل يرزقهم)[4].

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن أولاد المسلمين موسومون عند الله شافع ومشفع، فإذا بلغوا اثنتي عشرة سنة كانت لهم الحسنات، فإذا بلغوا الحلم كتبت عليهم السيئات)[5].

وفي حديث عن الرضا (عليه السلام) (اما علمت أن الولدان تحت العرش يستغفرون

---

(١) قال أبو عبيدة: المحبنطي - بغير همز - المتغضب المستبطئ للشئ، والمحبنطئ - بالهمز - العظيم البطن المنتفخ. قال: ومنه قيل لعظيم البطن: "حبنطأ" ويقال: السقط والسقط. وقال أبو عبيدة: يقال: سقط وسقط. معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ٢٩١.

(٢) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ٣٨٣/٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ٤٨١/٣.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ٣/٦.

(٥) الكافي - الشيخ الكليني: ٣/٦.

لآبائهم، يحضنهم ابراهيم وتربّيهم سارة في جبل من مسك وعنبر وزعفران)[١].

الوجه في تفسير كثرة الزوجات عند المعصومين (عليهم السلام):

ولعل هذا أحد الوجوه التي تُفسّر اقدام المعصومين(عليهم السلام) على تكثير الزوجات حتّى بلغت عند النبي (صلى الله عليه وآله) تسعاً[٢]، وعند أمير المؤمنين (عليه السلام) ثمان[٣]، وإنّما سُمّيت الزهراء (عليها السلام) بالكوثر لأنّ الله تعالى أكثر ذريّة رسول الله (صلى الله عليه وآله) منها، واستشهدت وهي في الثامنة عشرة من عمرها[٤]، ولها الحسن والحسين والعقيلة زينب (عليهم السلام) وأسقطت المحسن.

فالإمام الكاظم (عليه السلام) جرى على سنّة أجداده الطاهرين وهو أولى الناس بهم.

ويضاف إلى هذا الوجه العام وجه خاص وهو وجود عدة شواهد تشير إلى خطة استراتيجية وضعها الأئمة المعصومون (عليهم السلام) وساروا عليها تستهدف تكثير نسل آل أبي طالب بعد واقعة كربلاء، ردّاً على سياسة الاستئصال والاجتثاث التي اتّبعها معهم أعداءهم تحت شعار (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية) بحيث خلت بيوت بأكملها من الرجال كدور عقيل بن أبي طالب والعباس بن أمير المؤمنين

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٣٤/٥.- الطبقات الكبرى- ابن سعد: ١٩/٣.

(٢) وقيل اكثر من ذلك. راجع: زوجات النبي (صلى الله عليه وآله) سعيد أيوب.- أزواج النبي وبناته- الشيخ نجاح الطائي.

(٣) وقيل اكثر من ذلك. راجع: الطبقات الكبرى- ابن سعد: ١٩/٣.- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ- الريشهري: ١٠٨/١.

(٤) تاج المواليد (المجموعة) الشيخ الطبرسي: ٢٢.

وأخوته الذين استشهدوا جميعاً في كربلاء.

سُئل الإمام السجاد (عليه السلام) عن سبب حنوّه الزائد على آل عقيل فقال (عليه السلام) (إنّي اذكر يومهم مع أبي عبد الله (عليه السلام) فأرقّ لهم)[١]، ولما قدّم له المختار أموالاً كثيرة بنى بها دور عقيل التي هدّمها الأمويّون[٢].

منهجية الإمام الكاظم (عليه السلام) في تكثير النسل:

فكان للإمام السجاد (عليه السلام) خمسة عشر ولداً بين ذكر وأنثى[٣]، وتولّى (عليه السلام) تربية الولد الوحيد الذي تركه عمّه العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو عبيدالله، وزوّجه بنته خديجة وجمع له معها ثلاث حرائر من بنات الأشراف يقصد بذلك تنمية نسل عمّه العبّاس[٤].

وكان الإمام الكاظم (عليه السلام) يقبل هدايا هارون العباسي ويقول: (والله لولا إني أرى من أزوّجه بها من عزّاب بني أبي طالب لئلاّ ينقطع نسله ما قبلتُها أبداً)[٥].

هذه شواهد على السياسة الممنهجة أو الإستراتجية التي خطط لها الإمام الكاظم (عليه السلام) ليحبط مشروع الأعداء في إنهاء هذا البيت الطاهر وأثمرت خطوات الإمام الكاظم (عليه السلام) عن هذا العدد الهائل من السادة الأشراف، وفيهم الكثير من مراجع الدين والعلماء والقادة والمفكّرين والصلحاء وأعلام الأمّة.

---

(١) كامل الزيارات- ابن قولويه: ١٠٧.

(٢) سيرة أهل البيت (عليهم السلام)- الشيخ القرشي: ١٥/ ٢٠١.

(٣) الإرشاد- الشيخ المفيد: ١٥٥/٢.

(٤) بطل العلقمي- للشيخ المظفّر: ٣/ ٣٦٩.

(٥) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ١٧/ ٢١٦/ح١١.

مبررات تكثير النسل لشيعة أهل البيت (عليهم السلام):

إنّ شيعة أهل البيت (عليهم السلام) مدعوّون لبذل الوسع في تكثير النسل لعدّة مبررات منها:

١- الأخذ بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) وتلبية رغبتهم التي نقلتها الأحاديث الشريفة المتقدمة.

٢- إنّ فيها استجابة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤).

وفي الذريّة حياة مستمرة للإنسان حتّى يوم القيامة قال الشيخ الصدوق في الفقيه: (روي أنّ من مات بلا خلف فكأنّ لم يكن بين الناس، ومن مات وله خلف فكأنّه لم يمت)[١].

٣- الذرية مصدر لكثير من الطاعات للوالدين حتى بعد موتهم كحديث السقط الذي تقدم في الروايات الشريفة، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في المرض يصيب الصبي، قال(عليه السلام): (إنّه كفّارة لوالديه)[٢]، ويلخص النبي (صلى الله عليه وآله) بعض هذه الطاعات بقوله (إنّ ولد أحدكم إذا مات أُجر فيه، وإن بقي بعده استغفر له بعد موته)[٣]، والحديث النبوي المشهور (إذا مات المرء انقطع عمله إلاّ من ثلاث)[٤]، أحدها ولد صالح يدعو ويستغفر له.

---

(١) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٤٨١/٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٤٨٢/٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ٤٨٣/٣.

(٤) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٣/٢- صحيح ابن حبان- ابن حبان: ٢٨٦/٧.

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله ليرحم الرجل لشدة حبّه لولده)[١]، وروى الإمام الصادق (عليه السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مرّ عيسى بن مريم (عليه السلام) بقبر يعذّب صاحبه، ثمّ مرّ به من قابل فإذا هو لا يُعذّب، فقال: يا ربّ مررت بهذا القبر عام أوّل وهو يعذّب، ومررت به العام فإذا هو ليس يُعذّب، فأوحى الله إليه أنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً فلهذا غفرت له بما عمل ابنه)[٢].

٤- إن اتباع أهل البيت (عليهم السلام) هم الجماعة الخيّرة الطيّبة التي اختارها الله تعالى لتحتضن ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وتحافظ على الإسلام الأصيل فتكثيرهم اعزاز للدين والولاية وتثبيت لقيم الخير والإنسانية في هذه الأرض فالخير منهم مأمول والشر منهم مأمون، فهم كالشجرة الطيبة المثمرة التي تكون هي أولى بالتكثير.

٥- إن في تكثير الشيعة نصرة للإمام الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وتقوية لأركانه وتمهيداً لظهوره المبارك، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠)، وأعظم قوة نعدّها لنصرة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هي هذا النسل المبارك، لأنّ الموارد البشرية هي أعظم الموارد التي تحرص الدول على تحصيلها فاستكثروا منه ما استطعتم.

٦- إنّ الشيعة في المنطقة مستهدفون بحرب إبادة واجتثاث كما تشهد به الوقائع الجارية خصوصاً عندنا في العراق وقد فقدنا خلال العقود الأربعة الماضية

---

(١) ثواب الأعمال- الشيخ الصدوق: ٢٠١.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٣٥٩/٢١/ح٥.

أكثر من مليون ونصف المليون من الرجال الذين تزهو بهم الحياة في حروب عبثية وإعدامات ومقابر جماعية في عهد النظام المقبور ثمّ في المفخّخات والتفجيرات وأنواع آلات القتل والتدمير.

بأي عدد من الذرية يتحقق تكثير النسل؟

وفي ضوء المعطيات المتقدمة لا يسع اتباع أهل البيت (عليهم السلام) السائرين على نهجهم من الرجال والنساء إلاّ أن يبذلوا وسعهم في تحقيق هذه الغاية الشريفة والرغبة الأكيدة للمعصومين (عليهم السلام)، ومهما قيل من مبرّرات للإكتفاء بواحد أو اثنين من الأبناء فإنّها لا تصمد أمام هذه المعطيات، إلاّ أن يكون السبب خارجاً عن الإختيار، كما لو جرى القضاء الإلهي بذلك، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً﴾ (الشورى:٥٠)، أو حصلت موانع صحيّة قاهرة ونحوها.

والسؤال الآن: هو بأي عدد من الذرية يتحقّق معنى تكثير النسل؟ والجواب: إنّه يتحقق بأربعة على الأقل، لأنّ الزوجين إذا أنجبا اثنين -ذكوراً او اناثاً- فإنّهما لم يزيدا شيئاً فإن اثنين ولدا اثنين.

ثمّ هما يحتاجان إلى واحد آخر لتعويض حالات النقص في المجتمع لأنّ كثيراً يموتون في عمر الطفولة أو الصبى أو الشباب قبل الزواج بالموت الطبيعي أو الحوادث كالتفجيرات وحوادث السير أو في الحروب ونحوها، أو يتزوّجون ولكن لا ينجبون أو ينجبون دون العدد، فيحصل نقص في المعدّل يسدّه انجاب الثالث، ويتحقق التكثير بالرابع، وكلما زاد على ذلك كان أفضل وأقرّ لعين رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الغرب وتقليل النسل:

لقد حاولت حكومات الغرب إقناع الشعوب بتحديد النسل وتقليله لكنهم أصيبوا بكارثة حيث بدأ عدد السكّان ينخفض وارتفع عدد المسنين في المجتمع، والجدل الآن دائر عندهم عن كيفية معالجة هذه المشكلة.

واتّبعوا سياسة (التعقيم) في بلاد المسلمين قبل عقدين أو أكثر وفق آليات معيّنة كشفت عنها بعض الوثائق السريّة المسرّبة وحدّدوا مدداً معيّنة حتى يثمر مشروعهم الشيطاني.

وسارت على هذا المنهج بعض الدول الإسلامية - كالجمهورية الإسلامية في إيران- حيث تبنّت الحكومة[1]، في نهاية الثمانينات سياسة تقليل الإنجاب لمنع الانفجار السكّاني - كما قيل- الذي أعتبر السبب في ارتفاع نسبة البطالة وانخفاض مستويات التعليم ونوعية المعيشة - بحسب التقرير- حيث أن معدل النمو تجاوز الذروة بما يقدر بـ (٣،٢ ٪) بعد انتصار الثورة الإسلامية وتشجيع الإمام الخميني الراحل (قدس سره) على كثرة الإنجاب لبناء جيش الـ(٢٠) مليون مسلم.

لكن بعد عشرين عاماً أظهرت الإحصاءات أن معدل عدد الأطفال المولودين لكل امرأة يصل إلى (١،٦) أي أقل من(٢،١) الذي يُعتبر الحد الأدنى المطلوب في الدول الصناعية لتجنب الانخفاض في عدد السكان، لذا تحرّكت القيادات الإيرانية منذ العام الماضي للتشجيع على الإنجاب من جديد.

المباركة في تكثير النسل:

ونحن نعتقد أنّ تكثير النسل ليس السبب في تلك المشاكل التي أشار اليها

---

(١) المعلومات من تقرير نُشر على المواقع الالكترونية بتاريخ: ٢٠١٣/٤/٢٢م.

التقرير، لأنّه عملية مباركة مثمرة تعود بالازدهار على الفرد والمجتمع، وأنّ أقوى الموارد التي تمتلكها الدول هي الموارد البشرية، خذ الصين مثلاً فإنّ سكّانها تجاوز المليار ومئتي مليون، واقتصادها في نمو مضطرد أقلق الدول الصناعية الكبرى.

والغريب أن الزوجين يبذلان كل ما عندهما من أجل تحصيل الولد، وقد يسافران إلى دول بعيدة لتحقيق ذلك، لكن من يرزقهما الله تعالى الولد يتوقفان عن إنجاب المزيد مراعاة لأوضاع معيّنة، كالوضع الاقتصادي والمعيشي، وقد تقدم في الرواية عن الإمام الكاظم (عليه السلام) عدم الإصغاء لمثل هذه المبرّرات، وقال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٢).

والوارد في الروايات عكس ذلك، فإن الرجل يُرزق إذا تزوج وأنجب، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (الرزق مع النساء والعيال)[1]، فتكثير الإنجاب أحد أسباب الرزق للفرد والازدهار للدولة، وتقليل الإنجاب لأجل تخفيف الأعباء الاقتصادية وغيرها تفكير خاطئ لدى الدولة والفرد على حد سواء.

منع الانجاب كقتل الإنسان:

إن المنع من الإنجاب سواء كان بالطرق الطبيعية أو بالعلاجات بلا مسوِّغ معقول ومقبول يتطابق بالنتيجة مع قتل الإنسان الموجود، فكلاهما يحرم الأمة من هذا الوجود الذي جعله الله تعالى خليفته في أرضه قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ (الإسراء:٣١)، ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٥/٣٣٠.

أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١).

إهمال تربية الأطفال قتل معنوي بحقهم:

ولا نغفل أيضاً عن قتل معنوي آخر من خلال إهمال تربية الأطفال تربية صالحة فيصبحوا أفراداً سيئين منحرفين وربما يتحولون إلى مجرمين ويجلبون الشر للمجتمع، ومن أمثلة القتل المعنوي أيضاً، الهجرة إلى الغرب وعموم بلاد الكفر وتعريض الأبناء لتلك الضغوط والمغريات والشهوات فيبتعدون عن الدين ويلتحقون بالمجتمعات الضالة فهذا كله قتل معنوي للإنسان على خلاف ما أراده الله تعالى ورسوله.

تعليمات الأئمة (عليهم السلام) لتكثير النسل:

ولأجل تحقيق الإنجاب لمن ليس عنده ذرية ولتكثير النسل فقد علَّم الأئمة (عليهم السلام) شيعتهم أعمالاً لعلّها تكون سبباً لرزقهم بالأولاد منها:

١- رفع الصوت بالآذان في المنزل، روى هشام بن ابراهيم صاحب الإمام الرضا(عليه السلام) (أنه شكى إلى أبي الحسن (عليه السلام) سقمه، وأنه لا يولد له، فأمره أن يرفع صوته بالآذان في منزله، فقال: ففعلت، فأذهب الله عني سقمي وكثر ولدي)[1].

٢- الاستغفار، ففي الكافي شكا الابرش الكليني إلى أبي جعفر- الباقر- (عليه السلام) أنه لا يولد له وقال له علمني شيئاً، فقال له: استغفر الله في كل يوم (أو) في كل ليلة مائة مرة، فإن الله عز وجل يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۞

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٠٨/٣.

يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح:١٠-١٢)[1]، وفي رواية أخرى (فإن نسيته فاقضه).

٣- الدعاء، سواء بالنصوص المذكورة في القرآن الكريم أو كتب الأدعية لطلب الولد كقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان:٧٤)، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء:٨٩)، أو تدعو بأي شيء يعبّر عمّا في قلبك.

٤- التوسّل بالمعصومين (عليهم السلام) وتوجد حكايات موثوقة كثيرة لمؤمنين توسّلوا إلى الله تعالى بالزهراء (عليها السلام) أو بالحسين (عليه السلام) أو بالإمام الرضا (عليه السلام) فتحقّق مرادهم فيما طلبوا.

هذا درس نستفيده من حياة الإمام الكاظم (عليه السلام) أحببنا بيانه، لأن فيه إدخالاً للسرور على النبي وآله الأطهار (عليهم السلام)، ولأنه يدلّنا على تكليف مهم موجّهٍ إلينا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٨/٦.

القبس/١٧

سورة آل عمران:﴿٧٩﴾

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

موضوع القبس: الغرض من بعثة الأنبياء هو صنع الإنسان الربّاني

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:﴿٧٩﴾).

الربانيون جمع ربّانيّ نسبة إلى الربّ، الذي هو مصدر يفيد معنى الفاعل أي المربّي، ويدلّ على المبالغة في الاتصاف وثبوت صفة الربّانيّة فيه، وهي هنا التعلّق بالربّ وشدّة معرفته وإخلاص الطاعة له، والنون زائدة كقولنا جسماني نسبة إلى الجسم ولحياني لكثيف اللحية، وأضيفت لإفادة المبالغة في النسبة، وقال سيبويه: زادوا ألفاً ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الربِّ دون غيره من العلوم[1]، وقد وردت النسبة من دون زيادة النون في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران:﴿١٤٦﴾)، وقرأت بالفتح أيضاً.

ولا يُقال الرَبّ مطلقاً من دون إضافة إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، لأن اللام تفيد العموم، والمخلوق لا يملك جميع المخلوقات، نعم يطلق على المخلوق على نحو محدود بإضافته إلى شيء فيقال ربّ الأسرة وربّ

(١) لسان العرب، مادة (ربب).

المال وربّ العبد لأنه يقوم بتدبيرهم وإصلاحهم وكذا ربّة البيت قال تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ (يوسف:٤١) وفي حديث أشراط الساعة: (أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها)[1] وفي رواية (ربّها)[2]، أي تلد لسيدها وسيدتها، والله تعالى هو ربّ الأرباب ومالك المخلوقات.

و(رَبَّ) الشيء إذا ساسه وقام بتدبيره وإصلاحه، والتربية مأخوذة من المصدر (الرَبّ) فهي ممارسة عملية فاعلة ومستمرة وليست علمية لاكتساب المعارف فقط، وتتضمن رعاية المُربَّى وتدبير أموره وترشيد نموه وضبط مشاعره وميوله ورفع نقائصه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل والارتقاء به في سُلّم الصلاح والكمال اللائق به؛ لأن البشر على مراتب ومستويات، واستعداداتهم مختلفة ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧)، ويشهد المربّى من خلال التربية تحولاً في جميع جوانبه وتقلّباً في أحواله حتى يصل إلى الغاية المنشودة.

فالربّانيّ هو العالِم الراسخ في المعرفة بالله تبارك وتعالى وعلوم الدين، ولا يطلب بذلك إلا وجه الله تعالى، لذا فإنه يكون شديد الارتباط بالربّ بحيث يكون همّه وعمله مكرساً لرضا ربِّه فيحظى بعناية خاصة من ربِّه تُربِّيه على طريق الكمال.

والآية محل البحث ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ تشير إلى أن الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) لم يُبعثوا لتحصيل امتيازات دنيوية ولم يطلبوا بدعوتهم زعامة على الناس ولا استعبادهم كما يفعل الطواغيت، ولا من شأنهم ذلك، بل كان

---

(١) شرح سنن النسائي، جلال الدين السيوطي: ١٠٠/٨.

(٢) لسان العرب، مادة (الربب).

الغرض من بعثتهم أن يعلّموكم ويربّوكم لتكونوا علماء وحكماء ربانيين، فالهدف الذي يسعون من أجله هو تربية الإنسان والأخذ بيده في طريق الكمال والسعادة، وقد لهجت بهذا آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ وتستمر هذه التربية حتى يصبح الإنسان ربانياً، واستخدام لفظ منسوب إلى المصدر (الربّ) الذي يعني الرعاية والتدبير حتى الإيصال إلى الهدف المنشود، يتطلب وجود مربوب، وهذا يعني أن الربّاني لا يكتفي بإصلاح نفسه وتكميلها، بل يسعى إلى تربية الآخرين والأخذ بأيديهم ليكونوا ربانيين، وهو الذي يستحق أن يربّي الناس، وهو القائد الرسالي البصير بأمور الناس وأحوالهم، وقد أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: (الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق)[1].

ثم تذكر الآية وجه أولويتكم أيها العلماء والحوزة العلمية من غيركم في أن تكونوا ربّانيين ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:٧٩)، والباء هنا سببية وما مصدرية، أي كونوا ربانيين بسبب استمراركم - حيث استعمل فعل المضارع- في تعليم الناس الكتاب، ودراستكم إياه فيما بينكم،

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٣٥.

لأن هذا يدعوكم لأن تلتزموا بما في الكتاب وتتحلَّوا بالأخلاق الفاضلة التي تدعون إليها مما يؤدي إلى ارتقائكم وانقطاعكم إلى ربكم فتكونون بذلك علماء ربانيين.

وكأنَّ في الآية إشارة إلى أن هذا هو الطريق المنحصر للوصول إلى الله تعالى وليس ما يبتدعه المتصوفة وأمثالهم من طرق، كما أن فيها إشارة إلى أن العلم الذي لا يوصل صاحبه إلى الربّانيّة ليس بعلم لأنه غير نافع، ومن نتائج ذلك أن العلماء الربانيين مؤهلون لفهم أسرار القرآن وتدبّر معانيه وتفسيره وبيانه للناس.

وقد فضل الله تعالى العلماء الربّانيّين على العلماء الذين لا يقومون بهذه الوظيفة، في آيتي سورة المائدة الآتيتين، وروى العياشي في تفسيره عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (فهذه الأئمة دون الأنبياء الذين يربّون الناس بعلمهم وأما الأحبار فهم العلماء دون الربانيين)[1].

فالرباني مرّبي لا يكتفي بإراءة الطريق الموصل إلى الغاية المنشودة وبيان كيفيته من خلال الكتب والمنشورات والمحاضرات، وإنما وظيفته الأخذ بيد المتربي وإرشاده خطوة خطوة، وهذا يبرز أهمية كون المربي أسوة حسنة لا يخالف فعله قوله.

ولا بد أن تستند التربية الربانية إلى منهج رباني يتخذ من المعرفة بالله تعالى والعلم بالدين أساساً له قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أول الدين معرفته)[2]، لأن الله تعالى هو ربّ البشر فهو مربيهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان:٣١)، فلا

(١) تفسير العياشي، عند الآية ٤٤ من سورة المائدة.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ١٤.

بد أن يكون المنهج الرباني هو القيِّم والمهيمن والحاكم على حياة البشر، وأن تكون جميع فعاليات الإنسان وأنشطته مرتبطة بالله تعالى، وتستمد العون من لطفه وتأييده تبارك وتعالى، حتى يكون ربانياً وتتحقق فيه العبودية لله سبحانه وتعالى التي هي الغرض الأسمى والقيمة العليا للبشر جميعاً، لأن عقيدة الإنسان ومتبنياته الفكرية هي التي تحدّد نمط سلوكه ومنهجه في الحياة، وهذا هو سر الاختلاف بين سيرة المؤمنين الذين ينظرون إلى الحياة من زاوية الإيمان بالله تعالى ورجوع كل الأمور إليه ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق:٨) ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:٤٢) وبين سيرة غير المؤمنين الذين همّهم اتباع أهوائهم وإشباع شهواتهم وغرائزهم معتقدين أن سعادتهم في ذلك ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:٣٧).

لقد ذكر القرآن الكريم جملة من صفات الربانيين منها:

١- السعي الحثيث لإقامة دين الله تعالى في الأرض والعمل بشريعته، وصيانة الرسالة الإلهية وحفظها من جميع الجهات، والاستناد إليها في جميع شؤون الحياة فلا يُسنُّ قانون ولا عرف على خلافها، ولا يُقضى إلا بأحكامها، وهداية الناس حتى يكون المجتمع ربانياً تسوده العدالة الاجتماعية، وهذه هي مسؤولية الأمانة التي تحمّلوها، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يخشون التسقيط والمقاطعة والحصار وغيرها من الأساليب الظالمة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا

تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، فالعلماء الربانيون هم حفّاظ الدين والأمناء عليه وهم المسؤولون عن تطبيق الشريعة لا يعيقهم عن ذلك الخوف من الناس ولا يكتمون الحق طمعاً في الدنيا الفانية.

٢- يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهم المسؤولون أكثر من غيرهم عن هذه الفريضة وعقوبتهم أشدّ إذا تركوها[1] كأحبار اليهود وربّانيي النصارى، قال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٣).

وهنا نكتة دقيقة إذ وصفت الآية فعلهم بالصنع بينما قالت السابقة التي تتحدث عن معاصي عامة الناس ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٢) والفرق: أن العمل يطلق على أي فعل وأن كان عن غير تدبير وقصد، بينما يطلق الصنع على الفعل الصادر بإتقان وتدبير وإحكام، وهذا يكشف عن أن تخلّي هؤلاء عن مسؤوليتهم كان بمكر وخداع للعامة وتزييف وتحريف للحقائق ليحافظوا على قدسيتهم المصطنعة لدى الناس، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إنما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك وإنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك

---

(١) عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي (عليه السلام) إني معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي) (الكافي- الشيخ الكليني: ٥/ ٥٦).

نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلاً ولم يقطعا رزقاً)[1].

فسكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد، ويكون الخطر حينئذٍ أعظم، روى الشيخ الكليني بسنده عن عمر بن رياح عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قلت له: بلغني أنك تقول: من طلّق لغير السنة أنك لا ترى طلاقه شيئاً؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام): ما أقوله بل الله عز وجل يقوله، أمَا والله لو كنا نفتيكم بالجور لكنا شراً منكم لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ...﴾ إلى آخر الآية)[2] وروى العياشي مثله[3].

ولا تخلو الآية من إشارة إلى ضرورة أن يكون للعلماء الربانيين سلطة ونفوذ ليتمكنوا من خلالها نهي العاصين ومنع المنحرفين وإن كثروا.

٣- الصبر والمصابرة والثبات والاستمرار في بذل الجهد فلا كسل ولا إحباط ولا ضعف ولا مداهنة ولا تنازل، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٧).

---

(١) الكافي: ٥/ ٥٧، الدر المنثور: ٢/ ٢٩٦.

(٢) الكافي: ٦/ ٧٥/ ح١.

(٣) تفسير العياشي: ١/ ٣٣٠/ ح١٤٤.

والمصداق الأكمل للربانيين هم محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين)، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (أنَا ربّانيّ هذه الأمة)[١] ومن خطبة له: (أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه بكم الغياهب، وتخدعكم الكواذب ومن أين تؤتون وأنى تؤفكون. فلكل أجلٍ كتاب، ولكل غيبةٍ إياب، فاستمعوا من ربانيّكم، وأحضروا قلوبكم، واستيقظوا إن هتف بكم)[٢].

وروى في تفسير الصافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (الربانيون هم الأئمة)[٣].

وفي تفسير العياشي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال في الآية ٤٤ من سورة المائدة: (فينا نزلت)[٤].

وفي زيارة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف): (السَّلامُ عَلَيكَ يَا دَاعِيَ اللهِ وَرَبَّانيَّ آيَاتِهِ)[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥/ ١٥٠.

(٢) نهج البلاغة: ١ /٢٠٨.

(٣) التفسير الصافي: ٢/ ٣٨.

(٤) تفسير العياشي: ١/ ٣٢٢/ ح١١٨.

(٥) مفاتيح الجنان: زيارة آل ياسين.

القبس /١٨

سورة آل عمران:﴿١٠٣﴾

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾

موضوع القبس: أساس وحدة المسلمين

يتحدث المسلمون بجميع طوائفهم عن ضرورة الوحدة ونبذ الخلاف، ويعقدون المؤتمرات والندوات والحوارات تحت هذا العنوان، وتصرف الأموال الضخمة في هذا السبيل دون أن يتحقق تقدّم يذكر، وربما ازدادوا بعداً عن بعضهم، فأين الخلل ولماذا هذا العجز عن الوصول إلى الحل؟

يدلّنا القرآن الكريم على ما تتحقق به الوحدة بين المسلمين فانه يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:﴿١٠٣﴾).

وقد وردت الروايات في تفسير الآية بأن حبل الله هو القرآن الكريم وولاية علي بن أبي طالب والأئمة المعصومين (عليهم السلام) من ذريته[1]، وتشهد نفس الآية على هذا التفسير، لأنها ذكرت أن العرب كانوا أعداء متباغضين فوحدّهم الله تبارك وتعالى وجمع كلمتهم بنعمة الإسلام.

---

(١) أنظر: التفسير الأصفى- الفيض الكاشاني: ١٦٥/١- تفسير مجمع البيان- الشيخ الطبرسي: ٣٥٦/٢- بحار الأنوار- المجلسي: ١٩/٣٦- تفسير الرازي- الرازي: ١٧٣/٨.

وقد أشارت آية أخرى إلى أن تمام هذه النعمة ونظام عقدها ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة:٣).

وقد روى المفسرون من الطائفتين أنها نزلت بعد تنصيب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأخيه وابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة ووليا وهاديا للأمة بعده يوم الغدير بعد حجة الوداع[1].

وإلى هذا أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء(عليها السلام) في خطبتها في مسجد أبيها (صلى الله عليه وآله) (فجعل إمامتنا نظاماً للملة، وطاعتنا أماناً من الفرقة)[2].

وولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ليست قضية عاطفية تجاه شخصيته العظيمة، ولا عقيدة نظرية نؤمن بها، وإنما هي باب ينفتح منه ألف باب من الاعتقادات والأحكام والآداب، تكون برنامجاً كاملاً في المعتقد والسلوك على صعيد الفرد والأمة.

والأمة لم تقع فيما وقعت فيه من التخبّط والصراع والفتن المضلّة التي تسببت في إزهاق أرواح الأجيال بعد الأجيال من الأبرياء وخراب البلاد وانهيار الحضارة وعدم الاهتداء إلى الحق إلا بسبب عدم تمسكها بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها.

وهذا ما دعا عبد الله بن العباس وغيره من الصحابة العارفين يتأوه إلى نهاية

---

(١) أنظر: تفسير العياشي- العياشي: ٢٩٣/١- بحار الأنوار- المجلسي: ١٣٤/٣٧- مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام)- ابن مردويه الأصفهاني: ٢٣٢.

(٢) الاحتجاج - الشيخ الطبرسي: ١٣٤/١.

عمره مما حصل في رزية يوم الخميس التي سبقت وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأيام[1]، ويقول عن مسألة (العول) أي النقص في فرائض الميراث التي قال بها من لم يأخذ العلم من نميره الصافي وفندّها أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بعده (عليهم السلام) وفيها يقول عبد الله بن العباس بعد أن اثبت بطلان القول بالعول في رواية طويلة، قال فيها: (وأيمُ الله لو قدَّم من قدَّم الله وأُخّر من آخّر الله ما عالت فريضة)[2]، وهو يقصد بحسب الظاهر التقديم والتأخير في استحقاق الميراث، لكنه كان يُريد معنى أعمق من ذلك بأن الأمة لو قدّمت لولاية أمرها من قدّمه الله تبارك وتعالى واختاره لخلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما نقصت فريضة أو عُطّلت سُنّة.

إن استحقاق أمير المؤمنين (عليه السلام) للخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان سابقاً على يوم الغدير، أما الاحتفال الذي أقامه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غدير خم في طريق عودته إلى المدينة بعد حجة الوداع ودعا المسلمين إلى مبايعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالولاية والإمامة بعده (صلى الله عليه وآله) تلبية لأمر الجليل تبارك وتعالى حيث انزل الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧).

أقول: أما هذا الاحتفال فكان كاشفاً عن هذا الاستحقاق وإعلاناً رسمياً للتنصيب، وقد كان الكثير من الصحابة الأجلاء (رضوان الله تعالى عليهم) يعلمون أحقية أمير المؤمنين (عليه السلام) وبولايته وعُرفوا بتشيعهم له في وقتٍ مبكر من حياة

---

(١) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات- السيد شرف الدين: ٣٥٢.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٨٠/٧.

رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فالنقاش إذن في دلالة قول النبي (صلى الله عليه وآله) يوم الغدير (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)[1]، أو المناقشة في نزول الآية في قضية الغدير لا يقدّم ولا يؤخر، وهي شبهة مقابل البديهة - كما يقول العلماء- لأن حق أمير المؤمنين في خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكتسبه من ذلك اليوم، بل استحقه بما يحمل من صفات تؤهله لهذا المقام الشريف، وقد أعلن رسول الله (صلى الله عليه وآله) هذا الاستحقاق في مناسبات عديدة سبقت قضية الغدير بسنين وكان بعضها -كحديث الدار- في وقت مبكر من البعثة في مكة المكرمة وفي حياة أبيه أبي طالب (رضي الله عنه) حتى تهكم بعض مشركي قريش من أبي طالب وقال له أن محمداً يدعوك إلى طاعة ولدك الصغير عليّ.[2]

أيها الأحبة من كل طوائف المسلمين.

إنني أريد بهذا الكلام أن أقول: أن الوحدة بين المسلمين تتحقق بالعودة إلى كتاب الله تبارك وتعالى، وسنّته الشريفة الصحيحة بعد تنقيحها من التلاعب والتزوير والدس الذي قام به المنافقون، وحينئذ سيلتقي جميع المسلمين عند الحقائق التي يعلمها الله تبارك وتعالى.

والوصول إلى الحقيقة وكشفها للناس وظيفة العلماء الأجلاء، ولا نصل إلى الحقيقة إلا بتحرير العقول من التقليد والتعصب والتحجّر، وذلك بفتح باب الاجتهاد ودعوة العلماء الذين حصّلوا العلوم التي تؤهل لممارسة عملية استنباط

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٢٠/١.

(٢) علل الشرائع- الشيخ الصدوق: ١٧٠/١.

الحكم الشرعي من مصادره الأصلية إلى عدم الوقوف على المذاهب المعروفة وتطبيق فتاوى أئمة المذاهب على الحالات التي تعرض عليهم، وإنما يرتقون بمداركهم إلى استنباط الحكم الشرعي من الكتاب والسنة، وسيجد علماء المسلمين جميعاً أنفسهم عند تلك القمة السامقة متفقين متوحدين ينهلون من معين واحد ولا يختلفون إلا بالمقدار الطبيعي الذي يحصل بين علماء أي حقل من حقول العلم والمعرفة.

وقد وجدتُ خلال بحثي الفقهي الاستدلالي أن كثيراً من الروايات التي يستند إليها الفقهاء السنة والشيعة في استنباط الحكم الشرعي متطابقة الألفاظ فضلاً عن المعاني، ويعود الفضل في ذلك إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بنيه الطاهرين (عليهم السلام) حيث بثوا عدداً ممن حملوا جملة من أحكامهم ومعارفهم، ولا يجد المسلمون من غير أتباع أهل البيت(عليهم السلام) حزازة في الأخذ عنهم، كعبد الله بن العباس، ونقل هؤلاء إلى عموم المسلمين علوم الشريعة من معدنها الصافي، وهذا نابع من رحمتهم وحبّهم للناس جميعاً حتى وإن أعرضت الأمة عن إعطائهم المكانة التي يستحقونها.

أرجو أن يساهم السادة الحضور، وكل من يسمع هذا النداء المخلص لتفعيل هذه الدعوة المباركة في أروقة حواضر العلم صانها الله تبارك وتعالى في بلاد المسلمين.

وأسأل الله تعالى أن يأخذ بأيديكم لما فيه الصلاح والإصلاح وأن يثبت لكم قدم صدق عند مليك مقتدر، إنه ولي النعم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

القبس/١٩

سورة آل عمران:﴿١٠٤﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

موضوع القبس: وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] قرآنيا/١

دلّت الآية الشريفة على الوجوب، الذي تفيده هيأة: ﴿وَلْتَكُن﴾، وأكّده بجعل امتثال هذه الوظيفة سبيل الفلاح؛ إذ أن ذيل الآية ظاهر في الحصر.

مضافاً إلى وقوعها في سياق الأمر بالوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى وعدم التفرّق، فقبلها قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران:﴿١٠٣﴾)، وبعدها: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:﴿١٠٥﴾)، فكأنّ وضع الآية في السياق لإلفات نظر الأمة إلى ما تتحقق به وحدتهم وعزّتهم وقوة بنيانهم، من خلال الالتزام بأداء هذه الفريضة العظيمة.

إن قلتَ: إن استفادة الوجوب من الآية منافٍ لعموم الخير الشامل للواجب والمستحب فكيف تكون الدعوة إليه واجبة، فكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

---

(١) القبس يقع ضمن بحث استدلالي في وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من القرآن الكريم وقد تناول سماحته عدة آيات تدل على ذلك وقد فرقّناها بحسب ترتيب السور.

قلتُ: هذه شبهة مقابل البديهة لإجماع المسلمين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل إجماع العقلاء كافة فلا وجه للتشكيك فيه، ومع ذلك نقول في الجواب:

١- إن متعلق الوجوب هو أصل الوظيفة لا مصاديقها، أما المصاديق فلها حكمها، فالمطلوب في الآية أن تكون الأمة متصفة بهاتين الصفتين، أما التطبيق فيكون لكل مورد بحسبه من الوجوب أو الاستحباب، كما لو افترضنا وجوب قيام الأب بأمر ولده غير البالغ بالصلاة وهو فعل مستحب.

٢- ولو تنزّلنا ونظرنا إلى المصاديق فإنه يمكن الجواب بتقريبين:

أ- تقييد (الخير) بما هو واجب، كالدعوة إلى الإسلام كما في جملة من التفاسير، وكذا يقيَّد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو واجب.

ب- أن يؤخذ (الخير) ووظيفة الأمر والنهي على عمومها وفيها الواجب والمستحب، وحينئذٍ يُقال أن هذا المقدار من اتصاف المصاديق بالوجوب كافٍ لوصف العنوان بالوجوب.

إن قلتَ: تقييد الوظيفتين بالواجب ليس أولى من حمل الطلب على الاستحباب.

قلتُ: يرد عليه ما قلناه من كفاية الوجوب في الجملة للقول بالوجوب، مضافاً إلى إجماع المسلمين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والوجوب شامل للأمة كلها؛ لأن الظاهر كون (من) في ﴿مِّنكُمْ﴾ بيانيّة، فهي لبيان كون الطلب موجهاً لهذه الأمة أن تكون أمة تدعو إلى الخير وتأمر وتنهى لتكون هي الأمة المُفّلحة دون غيرها من الأمم، ومعنى شمول وجوبها

للأمة، أن الأمة بما هي أمة مخاطبة بالوجوب على نحو المجموع وليس على نحو الاستغراق لكل فرد فرد.

وتشهد له الآية التالية: ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَاسِ تَأمُرُونَ بِالمعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾ (آل عمران:١١٠)، والمورد يكون نظير قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ (الحج:٣٠)، إذ ليس عندنا أوثان رجس وأوثان غير رجس، فالأوثان كلها رجس، لكن المراد منشأ اجتناب الأوثان لكونها رجساً، أو المراد بيان نوع الرجس المأمور باجتنابه هنا وأن موضوعه الأوثان، ونحو ذلك.

ويؤيد هذا - أي كون (من) بيانية والخطاب موجه إلى الأمة جميعاً- أمران:

١- الآيات العدّيدة التي وصفت عموم المؤمنين والمؤمنات بهذه الصفة، وليس بعضهم، وقد تقدم ذكر جملة منها في الصنف الثاني من الآيات.

٢- ما رواه العياشي في تفسيره بسند غير تام عن الإمام الصادق (عليه السلام) في ذيل هذه الآية قال (عليه السلام): (لأنه من لم يكن يدعو إلى الخيرات ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من المسلمين فليس من الأمة التي وصفها الله، لأنكم تزعمون أن جميع المسلمين من أمة محمد (صلى الله عليه وآله) وقد بدت هذه الآية وقد وصفت أمة محمد (صلى الله عليه وآله) بالدعاء إلى الخير و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن لم يوجد فيه الصفة التي وصفت بها فكيف يكون من الأمة وهو على خلاف ما شرطه الله على الأمة ووصفها به)[1].

((وقد نسب الشيخ الطوسي (قدس سره) إلى الزجاج أن المراد من (من) هنا هو

(١) تفسير العياشي- العياشي: ١/١٩٥/ح٢١٧.

تخصيص المخاطبين من بين سائر الأجناس، ورتب عليه الأمر والنهي فرض عين لا كفاية))[1].

ومعنى الآية: اجعلوا منكم - أي من أمتكم- يا أمة الإسلام أمة تتصف بأنها تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما تقول للشخص اجعل من ولدك ابناً صالحاً متفوقاً، أي اجعل ولدك هكذا، أو تخاطب الحوزة العلمية وتقول: اجعلوا منكم حوزة رسالية عاملة مخلصة.

وهذا ما نفهمه من كونها بيانيّة، أما صاحب الميزان فقد حكى هذا القول عن البعض، وقال: ((الظاهر أن المراد بكون (من) بيانية كونها نشوئية ابتدائية))[2].

أقول: كقوله تعالى: ﴿هُوَ الذِى خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ﴾ (غافر:٦٧)، أي أن نشوءكم من التراب، كقوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم﴾ (طه:٥٥).

وقال الأكثر بأنها تبعيضية، وبنى على ذلك كون الوجوب كفائيّاً، وذكروا لذلك وجوهاً يمكن تحصيلها من كلام السيد الطباطبائي قال (قُدِّسَ سِرُّهُ) ((والذي ينبغي أن يُقال: أن البحث في كون (من) تبعيضية أو بيانية لا يرجع إلى ثمرة محصلة، فإن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائية، إذ لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكورات بعد حصول الغرض، فلو فرضت الأمة بأجمعهم داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية

---

(١) حكاه في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن التبيان: ٥٤١/٢ وفقه القرآن للراوندي: ٣٥٦/١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٤٢٧/٤، الأعلمي.

عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف، فالأمر قائم بالبعض على أي حال، والخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، وإن كان للكل كان أيضاً باعتبار البعض، وبعبارة أخرى المسؤول بها الكل والمثاب بها البعض، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فالظاهر أن (من) تبعيضية، وهو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين ولا يصار إليه إلى غيره إلا بدليل))[1].

أقول: بنى (قُدِّسَ سِرُّهُ) استظهاره كون (من) تبعيضية على عدة وجوه:

١- إن طبيعة مثل هذه الوظائف أن تكون كفائية (فالأمر قائم بالبعض) حتى لو كان الخطاب للكل.

٢- إن ظاهر هذه التراكيب ذلك ولا يصار إلى غيره إلا بدليل.

٣- تعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ويرد على الأول: بالتفريق بين مقام الخطاب ومقام الامتثال، وبحثنا في الأول، وهل أن الخطاب شامل للجميع أم لا؟ أما تحقق المطلوب بامتثال البعض فهذا من الثاني، وليس هو محل البحث، فالمطلوب من الأمة أن تكون كلها متصفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان الغرض يتحقق بامتثال البعض، وحينئذٍ يكون سقوط الفرض عند أداء البعض لانتفاء موضوعه، ولا يعني هذا عدم ثبوت الوجوب قبل هذا على البعض الآخر، فلا يستفاد منه الوجوب الكفائي.

وفرض الوجوب على الجميع مع الاكتفاء بقيام البعض واضح المصلحة في هذه الفريضة المهمة، ليرى كل فرد أنه مسؤول عن امتثالها، بينما لو كان الوجوب موجهاً إلى البعض، فإنه سيكون سبباً للتقاعس عن أدائها، باعتبار أن الوجوب غير

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٤٢٧/٤، الأعلمي.

متعين به، فيؤدّي إلى تعطيل الفريضة، كما يشهد به الواقع والتجارب؛ وكما ضُيِّعت صلاة الجمعة المباركة بسبب القول بوجوبها التخييري وهكذا.

ويظهر من قوله (قُدِّسَ سِرُّهُ): ((المسؤول بها الكل)) الاعتراف بذلك، وسنبحث مفصلاً في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

وأما الثاني: فإنها دعوى، ولو سلّمناها، فإن في المقام قرائن متصلة ومنفصلة – كقوله تعالى: ﴿كُنتُم خَيرَ أمَّةٍ﴾– على خلاف الظاهر المُدّعى.

أما الوجه الثالث: فتقريبه أنه يرى أن الحصر في قوله تعالى: ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾ إضافي، وبناءً على هذه القرينة فقد قرَّب بعض الأعلام (قُدِّسَ سِرُّهُ) كون (من) تبعيضية بأن قوله تعالى:﴿هُمُ المُفلِحُونَ﴾ (معناه أن أولئك كاملو الفلاح لوضوح أن الآتي بالواجب الكفائي أفضل من غيره، فقوله: ﴿هُمُ﴾ من قبيل ﴿هُمُ العَدُوُّ﴾ فليس معناه أن غيرهم ليس مفلحاً، بل معناه أكملية فلاح الآمر الناهي من فلاح غيره، كما أن معنى ﴿هُمُ العَدُوُّ﴾ أشدّيّة عداوة هؤلاء من عداوة غيرهم)[1].

أقول: يرد عليه:

١– اعتبار الحصر إضافياً دعوى على خلاف الظاهر، والقياس ممنوع، فالحصر مطلق، وإن غير الآمر الناهي لا يكون مفلحاً بهذا العنوان، وإن كان على خير بدرجة من الدرجات.

٢– لو تنزّلنا فإن هذا التفاضل والإضافة بلحاظ الامتثال، ونحن لا ننكره؛ لأن من المتفق عليه عدم حصول الامتثال من قبل الكل؛ لأن الموضوع ينتفي بامتثال البعض، فلا يبقى للوظيفة موضوع، لكن كلامنا ليس بلحاظ مقام الامتثال، وإنما

---

(١) الفقه– السيد محمد الشيرازي: ١٥٧/٤٨.

في مقام التكليف وإلقاء العهدة وما ذكره المستشكل لا يتعرض له.

ويمكن الاستدلال على كون (من) تبعيضية برواية مسعدة بن صدقة[١] عن أبي عبد الله (عليه السلام)[٢].

نعم يمكن قبول التبعيضية في مقام الامتثال لأنه ليس من المتوقع كون المطلوب أن يكون كل فرد فرد داعياً إلى الخير آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر؛ لوجود العصاة والجهلة بالحكم والموضوع والقاصرين والمقصّرين والعاجزين عن الامتثال ونحو ذلك، وهذا لا يضر بما استظهرناه من كون عهدة الوجوب ملقاة على الأمة كلها، لصدق اتصاف الأمة بهذا الوصف إذا تحقق الغرض بالبعض، كما تُوصف الأمم الغربية بأنها متقدمة تكنولوجياً، مع العلم بأن بعض أفرادها كذلك؛ لأن هذا البعض كافٍ في صدق العنوان وليس المطلوب أزيد، لوجود من هم في مهن لا ترتبط بهذا العنوان كالأعمال الخدمية.

ويمكن الاستدلال بالآية على رد القول بالوجوب الكفائي من وجهين:

---

(١) قال: سمعته يقول: وسُئل عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب هو على الأمة جميعاً؟ (فقال: لا، فقيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المُطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أي من أي يقول من الحق إلى الباطل، والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ﴿آل عمران: ١٠٤﴾، فهذا خاص غير عام، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٥٩﴾ ولم يقل: على أمة موسى ولا على كل قومه، وهم يومئذ أمم مختلفة، والأمة واحد فصاعداً، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ ﴿النحل: ١٢٠﴾ يقول: مطيعاً لله عز وجل، وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج إذا كان لا قوة له ولا عدد ولا طاعة...). وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ١٢٦/١٦/ح١.

(٢) راجع تفصيل مناقشتها في كتاب فقه الخلاف: ج١٠/ ص٢٠٠. ط. الثالثة.

١- التعبير بالأمة وهي (كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إما دينٌ واحد أو زمان واحد أو مكان واحد)[١]، فهي جماعة كبيرة، وعلى القول بالوجوب الكفائي فإن الأمر يتأدى بواحدٍ أو قريب منه، لذا يعرّفون هذا الواجب بأنه إذا قام به شخص سقط عن الآخرين، فهذا نقض بالآية عليهم.

٢- ولو تنزلنا وقلنا بالوجوب الكفائي على فئة معينة من المسلمين التي سمّيت بالأمة في الآية فإنه أخصّ من المدّعى الذي هو الوجوب الكفائي مطلقاً؛ لأن الظاهر من عمل مثل هذه الجماعة الخاصة القيام بالوظيفة بلحاظ المستوى الاجتماعي لأداء الفريضة، أي المعروف والمنكر، الذي يتحول إلى ظاهرة اجتماعية؛ لأن مثلهما يحتاج إلى جماعة متخصصة ولها مؤهلاتها وأدواتها، فتُكلَّف أمة أو جماعة بهذه الوظيفة على مستوى المجتمع كشرطة الخميس التي أسسها أمير المؤمنين (عليه السلام)، كالأمر الكفائي الصريح بنفر البعض للتفقه في الدين.

أما أداء الفريضة على المستوى الفردي فلا دليل على كونه كفائياً؛ لأنه ولو بأدنى مراتبه ممكن للجميع، فهو واجب عيني على الجميع، وقد بحثناه مفصلاً في كتاب مستقل[٢].

---

(١) غريب القرآن- الأصفهاني:٢٣_ مجمع البحرين- الشيخ الطريحي: ١٠٨/١.

(٢) للوقوف على تفصيل الكلام حول وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر راجع: فقه الخلاف: ج١٠،ج١١. ط. الثالثة.

القبس/٢٠

سورة آل عمران:﴿١١٠﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

موضوع القبس: وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرآنيا/٢

دلّت الآية على وجوب الوظيفة على الأمة حيث جعلتها أهم صفة تتميز بها، ولإبراز أهميتها فقد قُدّمت على الإيمان بالله تعالى.

و(كان) هنا تامة تفيد الوجود ولزوم الاتصاف وأن من شأنها ذلك فيكون المعنى وجدتم وفيكم شأنية أن تكونوا خير أمة، واستعمل الماضي لتأكيد الحصول والوقوع، وأنه مستمر إلى المستقبل، كلزوم الأسماء الحسنى للذات المقدسة في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء:١٥٨).

ويمكن أن تكون بمعنى أنتم خير أمة أُخرجت للناس نظير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ (مريم:٢٩)، أي من هو في المهد.

وليست كان الناقصة التي تقبل انتفاء الصفة وانفكاكها عن الموصوف، ولو اعتبرناها ناقصة فمعناها سبْق ذلك في علم الله تعالى والتعبير عنه بالماضي لتأكيد تحققه.

أما استعمال لفظ (كان) بالماضي فلا يخلو من تكريم لهذه الأمة؛ لأنه أُخذ بنظر الاعتبار مقارنتها بكل الأمم السابقة، وأن ذلك ثابت وواقع لا محالة، كوقوع أحداث الزمن الماضي.

ثم أفادت الآية شرط هذه الخيرية بأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر، فخيريتها على جميع الأمم مستمرة ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فالآية ظاهرة في الممارسة الفعلية لهذه الوظيفة والتحرك بها، وليس في شأنية الاتصاف أي أن خيريتها ليست من جهة أنها مأمورة بهذه الوظيفة، وأن من شأنها القيام بها، وأن هذه الوظيفة مشرّعة ومجعولة لها.

وهذا وجه أفضليتها على سائر الأمم؛ لأن هذه الوظيفة مجعولة في جميع الديانات السابقة كما تشير إليه جملة من الآيات الكريمة ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ (المائدة:٦٣)، ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (المائدة:٧٩) وغيرها، وكذا الأحاديث الشريفة كمخاطبة قوم شعيب وغيرها.

ولو لم تكن تلك الأمم مأمورة بها لما كان هناك وجه لأفضلية أمة الإسلام عليها، فخيّريّتُهم على سائر الأمم أنهم يواصلون التحرك بهذه الوظيفة الإلهية على مر الأجيال، وإن كان بمستويات متفاوتة من القوة والضعف، وبحسب كثرة العاملين وقلّتهم.

والوجوب هنا موجه إلى الأمة بما هي أمة على نحو ما قلّناه في الآية السابقة، ولا يضر باتصافها بهذا الوصف إذا تحقق الغرض بقيام البعض؛ لنفس البيان هناك.

نعم الخيّريّة على مستوى الأفراد تحصل بأداء هذه الوظيفة، ولو على نحو الشأنيّة، بمعنى أنه إذا كان صادقاً وجاداً في الامتثال، لكن الموضوع انتفى بقيام البعض، فلا يبعد شموله بالخيّريّة بلطف الله تعالى، وهو معنى موجود في الأحاديث الشريفة بخصوص عدد من الموارد.

والتعبير بـ﴿أُخْرِجَتْ﴾، فيه إشارة لطيفة لقيام اليدّ الإلهيّة بصنع هذه الأمة بهذه الأوصاف وإظهارها وتقديمها للبشرية لتكون خير أمة، والواقع يشهد أن ما تنعم به

الأمم المتحضرة اليوم من رقي وازدهار وأخلاق إنسانية هو من بركات هذه الأمة المرحومة ووجودها، حتى في الأزمنة التي عاشت اندحاراً، فعلى الأمة أن تلتفت إلى قيمتها هذه لتقوم بمسؤولياتها وتتفهم دورها الريادي والقيادي من الأمم الأخرى.

حل التنافي بين الآيتين:

وفي ضوء ما استظهرناه من كون (من) بيانية يتضح التطابق بين هذه الآية وسابقتها، إلا أن الأكثر لما بنوا على كون (من) تبعيضية في الآية السابقة فقد أوردوا إشكاليّة عدم التوافق بينهما.

ونحن لا نرى الإشكال وارداً حتّى على هذا الاحتمال؛ لأن آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾ ليس لها مفهوم ينفي خطاب آية ﴿كُنْتُمْ﴾، ولا مانع من كون التكليف موجّهاً للأمة جميعاً، وتفهمه جماعة معيّنة على أنها مخاطبة أكثر من غيّرها لخصوصيّة فيها، كالحوزة العلميّة أو الوجهاء المتنفذين أو السلطات التنفيذية ونحوها، فيكون خطاب ﴿وَلْتَكُنْ﴾، تذكيراً وتأكيداً للوجوب العام، وإشعاراً لهذه الجماعة بالوجوب الخاص عليها.

هذا على الفرض المشهوري من وجود إشكال في اجتماع وجوبين على موضوع واحد، وإلا فإننا لا نرى مانعاً من توجه خطاب بالوجوب لعموم الأمة، وخطاب لجماعة خاصة بالوجوب؛ لتذكيرها بالمسؤولية الخاصة، وموارده في الفقه كثيرة.

وعلى تقدير التنافي بين آية ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾، وآية ﴿كُنْتُمْ﴾، فقد بُذلت

عدّة محاولات لرفع هذا الإشكال، وما قيل أو يمكن أن يقال منها:-

١- إن الآية ﴿كُنْتُمْ﴾، بلحاظ توجه التكليف إلى مجموع الأمة، أما آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، فهي بلحاظ الامتثال لما قُلناه: من أن من غير المتوقع تمكن الكل من الامتثال للأسباب التي ذكرناها؛ فتقوم به الأمة القادرة من دون أن يؤثر على توجه الخطاب بالوجوب إلى الجميع، وهكذا كل الواجبات كالصوم والحج والزكاة فإن الخطاب بها موجه إلى الجميع، لكن القادر على الامتثال جماعة من المسلمين فيصحّ توجيه التنفيذ وامتثال الواجب إلى الجماعة المعينة خاصة[1]، كأن يأمر خصوص المستطيعين للحج بتهيئة جواز السفر ولوازم الرحلة ونحو ذلك، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة:١٨٣)، مع أن غير المؤمنين مكتوب عليهم الصيام أيضاً، وإنّما خُوطب خصوص الذين آمنوا تشريفاً لهم، أو لأنهم الجماعة التي يُتوقع منها الامتثال.

٢- إن آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، ليست بصدد بيان أصل التشريع حتى تتنافى مع آية ﴿كُنْتُمْ﴾، بل هي تُشير إلى تأكّد هذه الوظيفة على فئة خاصة، تكون مسؤوليتها عن أداء هذه الوظيفة ألزم من غيرها؛ لاجتماع الشروط فيها، ولتوفر أدوات التأثير لديها، كالمرجعية الدينية والحوزة العلمية.

أو جماعة مُعيّنة تُخصَّص لأداء هذه الفريضة كشرطة الخميس، ولا مفهوم لها حتى تنافي الأُخرى نظير قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن

---

(١) هذا الوجه والذي يليه لخّصناه من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشيخ حسين النوري الهمداني: ١٥-١٨).

قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٣)، وعن النبي (صلى الله عليه وآله) (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله)[١]، ومن المعلوم أن إظهار العلم يكون غالباً بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- ما قدّمناه في البحث من أن آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، ناظرة إلى المعروف والمنكر الاجتماعيّين، أي التي تشكّل ظواهر عامّة، لأنه لا يتيسر لأي أحد ممارسة الأمر والنهي المؤثرين فيهما، إلا بانضمام الجهود الى بعضها، أما آية ﴿كُنْتُمْ﴾، فهي بلحاظ الأعم من ذلك الشامل للفرديين وممارسته واجب عيّني على الجميع[٢].

٤- ما حُكي عن المراغي ومحمد عبده وغيرهما، من (أن الآية الأولى – أي آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾- خطاب موجّه للمؤمنين كافة، بأن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة، وذلك بأن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها ومراقبتها ونقدها وتصويب حركتها، وبهذه الطريقة تُساهم الأمة كلها في الأمر والنهي، ومعه يتم التوفيق بين هذه الآية وسائر آيات الأمر والنهي الظاهرة في نسبتها لمجموع الأمة)[٣].

وفيه:

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٥٤/١/ح٢.

(٢) ذُكر هذا الوجه أيضاً في تفسير الأمثل- الشيرازي: ٣٨٤/٢.

(٣) فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٤٨، عن تفسير المراغي: ٢٢/٢، وتفسير المنار: ٣٦/٤، ودراسات في ولاية الفقيه للشيخ المنتظري (قدس سره): ٢٢٧/٢.

أ- إنه ينطلق من ظرف خاص وناظر إلى آلية محددة لأداء الفريضة، من خلال سلطة سياسيّة ونحوها، فهو يُعالج جزءاً من المشكلة.

ب- لازمه سقوط الوظيفة عن عموم الأمة بعد انتخاب هذه الجماعة وهو معنى غريب عن الخطاب الشرعي والفهم المتشرّعي، إذ المسؤولية مستمرة، لذا يأثم الجميع إذا لم يتحقق الامتثال.

٥- ما نُقل عن الثعالبي وحاصله: (أن الآية الأولى هنا ناظرة إلى وظيفة الأمر والنهي العالميّة، أي قيام المسلمين بالوظيفة في حق عموم غير المسلمين، فيما سائر الآيات ناظرة إلى قيام المسلمين بالوظيفة -عامتهم وجماعة منهم- داخل المجتمع الإسلامي)[1].

أقول: يمكن أن نستشهد له بتقريبين:

أ- تضمن الآية الأولى للدعوة إلى الخير وهو الإسلام، وهي ثمرة الجهاد الذي يكون خارج المجتمع الإسلامي لدعوة الأمم الأخرى إلى الإسلام، وقد ورد معها ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الفئة المُستهدفة بالخطاب هي نفسها، لوحدة السياق مثلاً، ونحوه.

ب- ما تقدم في الوجه الثالث من أن آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، ناظرة إلى المستوى الاجتماعي للفريضة، وما يوجد عند الأمم غير المسلمة أوضح مصاديق هذا المستوى، فتكون الآية ناظرة إليه.

٦- إن آية ﴿كُنْتُمْ﴾، تمثّل الحكم الطبيعي الأصلي الموجَّه للأمة، ولما علم الله تعالى أن الأمة لا تمتثل كُلها للأمر، تنزّل الخطاب ليُلزم جماعة على الأقل

---

(١) فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٥٤، عن تفسير الثعالبي: ٨٨/٢، وقد وصف الناقل هذا الوجه بأنه لا دليل عليه.

بذلك، فهو حكم ثانوي تنزليّ على فرض عدم تحقق الامتثال العام على نحو الترتّب، أو التخفيف كقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (الأنفال:٦٦) فقُلّلت النسبة من واحد إلى عشرة إلى واحد إلى اثنين.

٧- إن آية ﴿كُنْتُمْ﴾، هو المطلوب النهائي الذي يُراد أن تصل إليه الأمة، بأن تكون كلها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، والوسيلة لتحقيقه هي آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، بأن تؤدي كل جماعة ما عليها، فإذا امتثلت هذه الجماعة وتلك الجماعة فإن الأمة كلها ستكون ممتثلة في النهاية، نظير ما أجبنا به على إشكال التنافي بين آية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن:١٦)، وآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّه حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران:١٠٢).

٨- إن آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، هي لاستثارة الهمة والتحفيز على السبق لامتثال هذه الفريضة، والخطاب موجه للجميع، فلا تنافي الآية الأخرى، نظير قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم (عليه السلام): ﴿مَنْ أَنصَارِى إلى اللَّهِ﴾ (الصف:١٤)، فالخطاب موجه إلى الجميع، وكما يقول قائد الجيش: من يبايعني على الموت ويتقدم معي، وهكذا.

٩- أن تكون آية ﴿وَلْتَكُنْ﴾، كناية عن تحقق الغرض بفعل البعض، وهم الأمة والجماعة، فتكون إشارة، لكون الواجب كفائيّاً، بمعنى كفاية قيام البعض بالامتثال، وسقوطه بذلك عن الآخرين، قال المحقق الأردبيلي (قدس سره) (إلا أن في الإيجاب على البعض إشعاراً بأن المقصود يحصل بفعل البعض، وأن العلم بأن الغير سيفعل الواجب الكفائي قبل فوت وقته كافٍ) وأضاف (قدس سره) بما لا

يخلو من النظر، قال (قدس سره): ((بل الظن المذكور أيضاً فيجوز التأخير))[1].

(١) مجمع الفائدة والبرهان- الأردبيلي: ٥٣٤/٧.

القبس/٢١

سورة آل عمران:﴿١٣٣﴾

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾

سارعوا تعني المبالغة والاشتداد في السرعة، أي ليس فقط أسرعوا وبادروا، وإنما تسابقوا في هذا الإسراع وهذه المبادرة، لذا ورد التعبير في آيات أخرى مشابهة لفظ ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:﴿٢١﴾)، ولا يخفى ما في استعمال هذا التعبير من تحفيز على العمل لأن المنافسة والتسابق يفجّر الطاقات.

وهذه المسارعة والمسابقة لابد ان تستمر ما دمتم في الحياة الدنيا؛ لان الدنيا مزرعة الآخرة، وبها تكتسب الجنان او النيران والعياذ بالله، وكل لحظة من لحظاتها تمثل فرصة لاكتساب المزيد من الطاعة.

فالتواني والكسل وترك المسارعة يعني إضاعة هذه الفرصة، وفي الحديث الشريف: (إضاعة الفرصة غصّة)[1]، لأنها تورث الحسرة والندامة والشعور بالغبن يوم التغابن، وإن عدم المبادرة الى الاستغفار يؤدي الى تراكم الذنوب وكثرة الرين على القلب، حتى يسوّد ويفقد قابلية العودة الى الطهارة والعياذ بالله، في الحديث: (ان المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه، وان ازداد زادت، فذلك (الران) الذي ذكره الله تعالى في

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١١٨.

كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤))[١].

وان التأخير وعدم المبالاة بالاستغفار قد يوجب رفع الستر والغطاء عن المذنب فتفضحه ذنوبه برائحتها النتنة، التي لا تخفى على الاخرين لولا ستر الله تعالى، لكن العبد اذا تحوَّل الى قاذورة من الذنوب ورفع الله تعالى عنه الحجاب الساتر للعيوب والذنوب فانه يصبح مثيرا للتقزز والاشمئزاز، والحيوان قبل الإنسان يكتشف ذلك، وأصبح اليوم من الأدلة المهمة لاكتشاف الجرائم والمجرمين هو حاسة الشم لدى الحيوانات كالكلاب مثلاً، وفي الحديث الشريف عن امير المؤمنين (عليه السلام) (تعطرّوا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب)[٢].

ولما كانت المغفرة من فعل الله تعالى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ومن أسمائه الحسنى (الغفار) و(الغفور) و(غافر الذنب)، فما معنى المسارعة اليها؟

انها المسارعة الى أسبابها وموجباتها كالذي قلناه[٣] في شرح الحديث الشريف (ان لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرّضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقُوُنَّ بعدهاأبداً)[٤] وسنتعرض الى جملة من هذه الأسباب ان شاء الله تعالى.

والمغفرة لها حالات لابد ان تُطلب جميعاً، فلا يقتصر في طلب المغفرة لما مضى من ذنوبه التي الّم بها، بل يستغفر مما يأتي، بأن يعصمه الله تعالى منها، او

---

(١) مسند أحمد: ٨/ ٧١/ ح٧٩٣٩.ط دار الحديث.

(٢) بحار الانوار- المجلسي: ٢٧٨/٩٣/ح٧.

(٣) انظره في الملحق الآتي بعنوان: (تعرضوا لنفحات ربكم).

(٤) بحار الانوار: ج ٦٨، ص ٢٢١.

ليكتبه ممن يُغفر له مقدّماً فيما لو اوقعته غفلته في ذنب في الأيام الآتية، لذا تضمنت الادعية طلب المغفرة لما تقدّم من الذنوب وما تأخّر وهو الاتي.

وكذلك للمغفرة مراتب فلا يختص طلب المغفرة بالذنوب والمعاصي بالمعنى المعروف والتي فيها مخالفة للأحكام الشرعية، بل تُطلب ايضاً لما هو أدق من ذلك، كترك المستحبات او فعل المكروهات او ترك الأولى - كما لو خُيِّر بين طاعتين فلم يختر الأهم منهما- او من عروض خاطر المعصية، وقد لا يكون لهذا او لا لذاك وانما لطلب الرفعة في الدرجات، او الاستغفار من القصور الذاتي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية في أداء وظائف العبودية لله تعالى او الاستغفار من الانشغال بما يتطلبه الوجود في هذه الدنيا وإداء المسؤوليات الاجتماعية التي كلفه الله تعالى، كالذي يصدر من المعصومين (عليهم السلام) وفي الحديث النبوي الشريف انه (ليغان[1] على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة)[2].

وفي الكافي عن زيد الشحام عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتوب الى الله عز وجل في كل يوم سبعين مرة فقلت: أكان يقول استغفر الله واتوب اليه؟ قال: لا ولكن كان يقول: اتوب الى الله)[3].

وقد تضمّن القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الاستغفار، وتذكر آثاره وبركاته، من استجلاب نعم، ودفع نقم، في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ

---

(١) الغين: لغة في الغيم، وغان على قلبي: غطاء. أنظر: الصحاح- الجوهري: ٢١٧٥/٦- مجمع البحرين- الشيخ الطريحي: ٣٤٨/٣.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٠٤/٢٥.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٣٨/٢/ح ٤.

اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود:٣)، وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢)، وفي الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله): (من كثرت همومه فعليه بالاستغفار)[1]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (أدفعوا أبواب البلاء بالاستغفار)[2].

فالاستغفار سبب لزيادة الرزق وتحصيل الذرية والتنعمّ في الحياة الدنيا والاخرة.

ولذا تجد القرآن الكريم يقرن في هذه الآية وغيرها - كآية سورة الحديد المتقدمة - بين المغفرة والجنة، فالاستغفار يؤدي الى الجنة ويزيل العوائق عن الفوز بها؛ لأن الجنة دار طهارة وسعادة ونقاء، فلا يمكن للإنسان ان يدخلها ويتنعم فيها وهو حامل للقذارات المعنوية وادران الذنوب والمعاصي، إلا بعد ان يتطهر منها بالعفو والمغفرة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ (الأعراف:٤٣).

والملفت للنظر وقوع هذه الآية وآيات تربوية أُخرى في سياق الحديث عن معركة أحد وملابساتها وتحقق النصر أولاً، ثم الهزيمة المُهينة ثانياً، ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، للتنبيه - كما هو ديّدن القرآن دائماً- على محوريّة العقيدة، والارتباط

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٩٣/٨/ح٦٥.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٢٨/٩.

بالله تعالى في كل شؤون الحياة، وان الميدان الاوسع والاهم للعمل هو ميدان النفس، والخير يتحقق بقهر أهوائها والغلبة على شهواتها.

فميدان النفس ساحة الجهاد الأكبر، وما سواها في الخارج هو الجهاد الأصغر، وان كل شيء يكتسب قيمته بمقدار ارتباطه بالله تعالى، سواءاً اكان نصراً عسكريّاً او انجازاً سياسيّاً او تقدماً اقتصاديّاً او رفاهاً اجتماعيّاً، فالهدف دائماً إعلاء كلمة الله تعالى، طلباً لرضا الله تعالى.

وينبغي الالتفات الى ان الاستغفار المنتج لهذه الاثار المباركة ليس مجرد تحريك اللسان به، وإنما له حقيقة بيّنها امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة: (وَقَالَ: (عليه السلام) لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِهِ أَسْتَغْفِرُ اَللَّهَ. ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَتَدْرِي مَا اَلاِسْتِغْفَارُ، إِنَّ اَلاِسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ اَلْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اِسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا اَلنَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى. وَاَلثَّانِي اَلْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ اَلْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً. وَاَلثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى اَلْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اَللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ. وَاَلرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا. وَاَلْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اَللَّحْمِ اَلَّذِي نَبَتَ عَلَى اَلسُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ اَلْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ. وَاَلسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ اَلْجِسْمَ أَلَمَ اَلطَّاعَةِ، كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاَوَةَ اَلْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اَللَّهَ)[1].

اما الاسباب الموجبة للمغفرة فهي كثيرة منها:

١- الدعاء وطلب المغفرة، وقد ورد طلب المغفرة في ما لا يحصى من الادعية، وكرّست بعض الادعية للاستغفار وطلب التوبة؛ كما في الصحيفة

(١) نهج البلاغة: ٤٢٥.

السجادية، في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (خير الدعاء الاستغفار)[١]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (خير العبادة الاستغفار)[٢]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (الاستغفار في الصحيفة يتلالأ نوراً)[٣]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (من احبَّ أن تسرَّه صحيفتهُ فليكثر فيها من الاستغفار)[٤].

٢- الاستزادة من الطاعات والحسنات عموماً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، خصوصاً الصلاة المفروضة في اوقاتها، في الحديث الشريف: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبقي من درنه. قالوا: لا يُبقي من درنه شيئاً قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا)[٥].

٣- ومن الطاعات المخصوصة ايضاً (الصدقة) ففي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (صدقة السر تطفي غضب الرب تبارك وتعالى)[٦]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (**الصدقة جُنة عظيمة وحجاب للمؤمن من النار**)[٧].

٤- ومنها ايضاً صلاة الليل وقد ورد فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ان العبد إذا تخلّى لسيده في جوف الليل المظلم وناجاه اثبت الله النور في قلبه... ثم يقول جلَّ جلاله لملائكته: يا ملائكتي: انظروا الى عبدي، فقد تخلّى بيّ في جوف اللّيل

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٨٤/٩.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٥١٧/٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر: ١٧٧/٢٢.

(٤) المعجم الأوسط- الطبراني: ٢٥٦/١.

(٥) صحيح البخاري- البخاري: ١٣٤/١.

(٦) الكافي- الشيخ الكليني: ٨/٤.

(٧) الخصال- الشيخ الصدوق: ٦٣٥.

المظلم والبطالون لاهون، والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له)[١].

٥- الصوم خصوصاً شهر رمضان؛ فأنه شهر المغفرة والعتق من النار والفوز بالجنة، وافضل ميادين هذا السباق والمسارعة، وفي خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في أخر جمعة من شعبان؛ التي رواها الإمام الرضا (عليه السلام) عن أبائه(عليهم السلام)، عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (فأن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم)، وفيها (يا أيها الناس ان انفسكم مرهونة باعمالكم ففكّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم)[٢].

في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله): (شهر رمضان، شهر فرض الله عليكم صيامه، فمن صامه، إيماناً واحتساباً، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[٣]، وفي رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إن لله تعالى ملائكة موكلين بالصائمين يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره، وينادون الصائمين كل ليلة عند إفطارهم: أبشروا عباد الله؛ فقد جعتم قليلاً وستشبعون كثيراً، بوركتم وبورك فيكم؛ حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان نادى: أبشروا عباد الله غفر لكم ذنوبكم وقبل توبتكم؛ فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون)[٤].

وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام) قال: (من لم يُغفر له في شهر رمضان لم

---

(١) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٣٥٤/ح٤٣٢.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ١٥٤.- عيون أخبار الرضا (عليه السلام)- الشيخ الصدوق: ٢٦٦/٢.

(٣) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي: ١٥٢/٤.

(٤) الأمالي- الشيخ الصدوق: ١٠٨.

يغفر له الى قابل الى أن يشهد عرفة)[١].

أما الصوم المستحب فقد ورد فيه عن الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من صام يوماً تطوعاً أبتغاء ثواب الله وجبت له المغفرة)[٢]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال ابي: إن الرجل ليصوم يوماً تطوعاً يريد ما عند الله فيدخله الله به الجنة)[٣].

٦- الحج وخصوص الوقوف بعرفة، روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن ابيه الباقر (عليه السلام) قال: (ما وقف بهذا الموقف أحد إلا غفر الله له) ثم قال (عليه السلام): (ألا انهم في مغفرتهم على ثلاث منازل)[٤] الى آخر الحديث.

٧- زيارة المعصومين (عليهم السلام)، وأولهم النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله)، وقد ورد في زيارته الشريفة: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء:٦٤)، وَإِنِّي أَتَيْتُ مُسْتَغْفِراً تَآئِباً مِنْ ذُنُوبِي، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكَ لِيَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي)[٥].

وهكذا سائر المعصومين (عليهم السلام)، وخصوصاً زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، عن الإمام الصادق وولده موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال: (من زار قبر أبي عبد الله عارفاً

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٦٦/٤.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٦٤٥.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٦٣/٤.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ٥٢١/٤.

(٥) كامل الزيارات- ابن قولويه: ٥٠.

بحقه، غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[١].

أقول: قد اختصرنا الكلام بما يناسب المقام[٢]، والا فالأسباب التي جعلها الله تعالى لعباده كرماً منه وفضلاً كثيرة، غير ما يعفو عنه ابتداءاً، بلا سبب؛ سوى ان من صفاته الكريمة الفضل والمن، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

(١) كامل الزيارات- ابن قولويه: ٢٦٤.- الأمالي- الشيخ الصدوق: ٢٠٦/ح٩.

(٢) اخترت ذكر شهر رمضان والحج وزيارة الحسين (عليه السلام) لتصلح المحاضرة مادة لتعميق معارف القرآن في المجالس الرمضانية والحسينية ولمرشدي قوافل الحجاج.

ملحق: تعرضوا لنفحات ربكم

النفحات الخاصة:

ورد حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرّضوا لها، لعله أن يصيبكم نفحة منها، فلا تشقُّوُنَّ بعدها أبداً)[1]، وفي حديث مماثل (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم)[2].

والحديث يشير إلى نوع خاص من الألطاف الإلهية، وليست الألطاف العامة الشاملة لكل الناس، والدليل عليه وجهان:

١- التعبير بالنفحات، والنفحة: هي القطعة من الشيء أو هي الدفعة منه[3]، وليس كله ولا معظمه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٤٦)، وهذا القول منهم إذا كان رجوعاً وتوبة في وقت قبولها، فهو موقف حسن، وإلا فإن الأغلب يكون موقفهم التمادي والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (هود:٨).

٢- الأثر العظيم المترتب على التعرض لها، والتوفيق للشمول بها، بحيث أن

---

(١) المعجم الكبير- الطبراني: ١٩/ ٢٣٤.- كنز العمال- المتقي الهندي: ٧٦٩/٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر: ١٢٣/٢٤.- كنز العمال- المتقي الهندي: ٧٦٩/٧.

(٣) مجمع البحرين- الشيخ الطريحي: ٣٤١/٤.

من تناله تلك النفحات لا يحتاج إلى ابتلاء، ويحسم آمره في الصالحين والسعداء، بحيث لا يشقى بعدها أبداً.

ولتوضيحه بمثال نقول: أنه يصبح كالطالب؛ الذي يحرز درجات عالية في السعي السنوي؛ فيُعفى من الامتحانات النهائية، ولا يحتاج إلى اختبارات أخرى كأقرانه.

على أي حال؛ فالمراد من النفحات: ألطاف إلهيّة خاصة، بدلالة التعبير عنها بالنفحات؛ إذ أن الألطاف الإلهية العامة متواصلة على طول الدهر، ولولاها لما خُلق الإنسان والكون، ولا استمر وجودهما.

لنتعرض لكل سُبل الطاعة:

وفي ضوء هذا فقد حث رسول الله (صلى الله عليه وآله) على التعرض لتلك النفحات، ويكون ذلك بالتعرض لأسبابها، واقتناص فرصها، وهي غير معروفة بالتحديد؛ لأن الله تبارك وتعالى أخفى رضاه في طاعته، كما أخفى سخطه في معصيته.

لذا فحريٌّ بطالب الكمال والسعادة، أن يتعرض لكل ما يتيسر له من سبل الطاعة، وفرص الخير، عسى أن تكون إحداها سببا لنيل تلك الألطاف الخاصة، ولذا جاء في الحديث عنه (صلى الله عليه وآله): (تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته)[1].

وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا همّ أحدكم بخير فلا يؤخره، فإن العبد ربما صلى الصلاة أو صام اليوم فيقال له: اعمل ما شئت بعدها، فقد غفر الله

(١) تنبيه الخواطر ونزهة الناظر (مجموعة ورام): ص٤٣٩.

لك)[١].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا هممت بشيء من الخير فلا تؤخّره، فإن الله عز وجل ربما اطلع على العبد وهو على شيء من الطاعة فيقول: وعزّتي وجلالي لا أعذبك بعدها أبداً، وإذا هممت بسيئة فلا تعملها، فإنه ربما اطلع على العبد وهو على شيء من المعصية فيقول: وعزّتي وجلالي لا أغفر لك بعدها أبداً)[٢]، كالطالب الذي يفشل خلال السنة الدراسية فيُحرم من فرصة المشاركة في الامتحانات العامة؛ فكأن تقصيره ذلك أوجب نهايته مبكراً، ولم يسمح له باستمرار فرصة الامتحان، والسعي لنيل النجاح.

وعنه (عليه السلام) (إذا أردت شيئاً من الخير فلا تؤخره، فإن العبد يصوم اليوم الحار يُريد ما عند الله فيُعتقهُ الله به من النار، ولا تستقلّ ما يُتَقرّبُ به إلى الله عز وجل ولو شقَّ تمرة)[٣].

المسارعة الى الخير:

وهذه المسارعة إلى فعل الخير لها ما يبررها من أكثر من جهة:

١- إن الفرص تمرُّ مرَّ السحاب، وقد لا تتكرر؛ بل هي فعلاً لا تتكرر؛ لأن الفرصة الثانية هي غير الأولى، وإضاعة الفرصة غصة، وإن عُمر الإنسان، هو رأس ماله في المتاجرة مع الله تبارك وتعالى، وكل ثانية من عمره، يمكن أن ترفعه درجة عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٢/٢.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٣/٢.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٢/٢.

٢- إن التأخير يُعطي فرصة للشيطان، والنفس الأمارة بالسوء للوسوسة والتثبيط وإضعاف الهمّة، عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام): (من همَّ بشيء من الخير فليعجّله، فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة)[١].

٣- إن القلوب لها أحوال متغيرة، فتارة تكون في إقبال على الطاعة، وأخرى في إدبار، فإذا لم يستغل الحال الأول - أي حال إقبال القلب- فقد يقع في الثاني - أي حال إدبار القلب - فلا يجد في نفسه إقبالاً على الطاعة، سأل حمران بن أعين الإمام الباقر (عليه السلام): (أخبرك - أطال الله بقاءك لنا وأمتعنا بك- أنّا نأتيك، فما نخرج من عندك حتى ترقَّ قلوبنا وتسلوَ أنفسنا عن الدنيا، ويهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال، ثم نخرُجُ من عندك، فإذا صرنا مع الناس والتجار أحببنا الدنيا؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام): إنما هي القلوب مرة تصعُبُ ومرةً تسهُل)[٢].

٤- إن الطاعة مهما تبدوا شاقة فإنما هي جهد اللحظة التي أنت فيها، ومهما تبدو المعصية لذيذة فإنما هي لذة اللحظة التي هو فيها، وهذا ييّسر المضي على الطاعة، واجتناب المعصية، ففي موثقة سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (سمعته يقول: اصبروا على طاعة الله، وتصبّروا عن معصية الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فليس تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت فليس تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها، فكأنك قد اغتبطت)[٣].

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٣/٢.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٢٣/٢.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٥٩/٢.

أشكال النفحات:

وسببية التعرض للنفحات للحصول عليها وشمولها أمر طبيعي، كما أن البائع الذي يتعرض للناس ببضاعته، فينوّعها ويتفنن في عرضها، ويحاكي أذواق الناس بها، يكون الإقبال عليه أكثر من التاجر الساكن الجامد الخامل، مع أن الله تبارك وتعالى قد تكفّل للجميع بالرزق، ولكن ألطافاً خاصة تعطى للمتعرض لها دون غيره.

ومع أن الطاعات كلها شكل من أشكال التعرض للنفحات الإلهية، إلا أن لبعض الموارد مزيد عناية ومظنّة لتلك النفحات، وبعض هذه الموارد: (مكانية) كالمساجد والعتبات المقدسة وفي حلقات العلم ومجالس الموعظة والإرشاد.

وبعضها (زمانية) كليلة الجمعة ويومها، والأشهر الشريفة: رجب، وشعبان، ورمضان.

وبعضها (حالية) كاجتماع المؤمنين، والدعاء للغير، وحال التوجّه والاضطرار وانكسار القلب، خصوصا إذا امتزج الحزن بالبكاء، وعند مجالسة العلماء، وبعد الصلوات المفروضة، وفي حال السجود.

لطف الله تعالى للجميع:

ولا شك أن لطف الله تبارك وتعالى وكرمه متاح لكل أحد، كما في أدعية شهر رجب (يامَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يامَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسأَلْهُ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ تَحَنُّناً مِنْهُ وَرَحْمَةً) و(بابُكَ مَفْتُوحٌ لِلرّاغِبينَ، وَخَيْرُكَ مَبْذُولٌ لِلطّالِبينَ، وَفَضْلُكَ مُباحٌ لِلسّائِلينَ، وَنَيْلُكَ مُتاحٌ لِلآمِلينَ، وَرِزْقُكَ مَبْسُوطٌ لِمَنْ عَصاكَ، وَحِلْمُكَ مُعْتَرِضٌ لِمَنْ

ناواكَ)[1] لكن بعض النفحات تتطلب تعرضاً لها وصعوداً إليها.

أتذكر أنني عندما كنت أحضر بحث الأصول للسيد الشهيد الصدر الثاني (قُدِّسَ سِرُّهُ) في مباحث المشتق وكان يفسر آية ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤)، فقال (قُدِّسَ سِرُّهُ): ((إن الآية عبّرت ﴿لاَ يَنَالُ﴾، ولعل في ذلك إشارة إلى هذه المراتب وغيرها من مراتب الكمال إنما تنال بالتكامل والتصاعد في عالم الملكوت الأعلى، فكلما تكامل الفرد إلى درجة معينة، استحق فيضاً مناسباً لتلك الدرجة، ومنها الإمامة، فهم يصعدون إليها لا هي تنزل إليهم))[2].

فقلت له: -بعد الدرس- على هذا لا بد من أن يكون ذيل الآية (الظالمون) ليكون فاعلاً وساعياً لنيل العهد، وعهدي مفعول به، وليس العكس، كما في الآية، فأيّد الاعتراض لكنه -لإيمانه بصحة فكرته- عرض حلاً وسطاً، يجمع بين الفكرة والإشكال، وهو أن الألطاف تنزل من الله تعالى إلى مرتبة معينة ويصعد إليها الفرد إلى تلك المرتبة. انتهى

وإذا تهيّب الفرد أو تردّد ولم يقتنص الفرصة ويبادر إليها فإنه سيحرم بركتها، ففي الحديث عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير)[3].

---

(١) مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٢٢٩.

(٢) المشتق عند الأصوليين: ٣٤٣.

(٣) نهج البلاغة -خطب الإمام علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ٦/٤.

طلبات جامعة:

وليكن تعرّضك وطلبك مناسباً لكرم الله تعالى، وتوجد في بعض الأدعية طلبات جامعة لخصال الخير كله كما في أدعية رجب (أَعْطِنِي بِمَسْأَلَتي إيّاكَ، جَميعَ خَيْرِ الدُّنْيا وَجَميعَ خَيْرِ الآخرة، وَاصْرِفْ عَنّي بِمَسْأَلَتي إيّاكَ، جَميعَ شَرِّ الدُّنْيا وَشَرِّ الآخرة، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَنْقُوص ما أعطيت، وَزِدْني مِنْ فَضْلِكَ يا كَريمُ)[1] وفي دعاء آخر (اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ اَنْ تُدْخِلَني في كُلِّ خَيْر اَدْخَلْتَ فيهِ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّد(صلى الله عليه وآله)، وَاَنْ تُخْرِجَني مِنْ كُلِّ سُوء اَخْرَجْتَ مِنْهُ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّد صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ)[2].

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان نزل على رجل بالطائف قبل الاسلام فأكرمه، فلما أن بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) إلى الناس قيل للرجل: أتدري من الذي أرسله الله عز وجل إلى الناس؟ قال: لا، قالوا له: هو محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب، وهو الذي كان نزل بك بالطائف يوم كذا وكذا فأكرمته، قال: فقدم الرجل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسلم عليه وأسلم، ثم قال له: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا رب المنزل الذي نزلت به بالطائف في الجاهلية، يوم كذا وكذا فأكرمتك، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): مرحباً بك سل حاجتك، فقال: أسألك مأتي شاة برعاتها، فأمر له رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما سأل، ثم قال لأصحابه: ما كان على هذا الرجل أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى (عليه السلام) بما سأل، فقالوا: وما سألت عجوز بني إسرائيل موسى؟ فقال: إن الله عز ذكره أوحى إلى موسى أن أحمل عظام يوسف من مصر قبل أن تخرج

---

(١) مفاتيح الجنان- عباس القمي: ١٧٠.

(٢) مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٢٨٥.

منها إلى الأرض المقدسة بالشام، فسأل موسى عن قبر يوسف (عليه السلام) فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعرف قبره ففلانة، فأرسل موسى (عليه السلام) إليها فلما جاءته قال:تعلمين موضع قبر يوسف (عليه السلام)؟ قالت: نعم، قال: فدليني عليه ولك ما سألتِ: قالت: لا أدلك عليه إلا بحكمي، قال: فلك الجنة، قالت: لا إلا بحكمي عليك، فأوحى الله عز وجل إلى موسى لا يكبر عليك أن تجعل لها حكمها فقال: لها موسى فلك حكمك، قالت: فإن حكمي أن أكون معك في درجتك التي تكون فيها يوم القيامة في الجنة فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما كان على هذا لو سألني ما سألت عجوز بني إسرائيل)[1].

وأنتم أيها الإخوة والأخوات بزيارتكم لأمير المؤمنين (عليه السلام) والمساجد المعظمة في الكوفة والسهلة، والانطلاق منها سيراً على الأقدام إلى كربلاء، لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في النصف من رجب، التي تسمى (الغفيلة) لغفلة الناس عن ثوابها.

وقطعكم هذه المسافة التي قطعتها عقيلة الهاشميين زينب بنت علي (عليها السلام) لإحياء ذكرى وفاتها، تكونون قد تعرضتم لكثير من نفحات الله تبارك وتعالى، وأتيتم بأسبابها في هذا الشهر الشريف.

فأرجوا أن يشملكم الله تبارك وتعالى بألطافه ونفحاته الخاصة.

ويشرك معكم كل من أحبَّ عملكم، وأيّده، وقدّم الخدمة لكم، فإن (من أحب قوما حشر معهم، ومن أحب عمل القوم أشرك في عملهم)[2].

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١٥٥/٨.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ١٣١/٦٥.

القبس/٢٢

سورة آل عمران:﴿١٤٠﴾

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾

موضوع القبس: الشهادة كرامة إلهية

تناولت سورة آل عمران في سياق طويل معركة أُحُد وملابساتها ونتائجها والدروس المستفادة منها، ومنها هذه الفقرة التي تقع ضمن عدة فقرات فيها تسلية وعزاء للمسلمين عن الشهداء الذين سقطوا في معركة أُحُد وهم سبعون من خيرة المهاجرين والأنصار، وفيها تخفيف عن آلام المسلمين وجراحهم بسبب النكبة التي حصلت لهم في المعركة، وتقوية معنوياتهم وإعادة الأمل والثقة إلى نفوسهم، فيذكرّهم الله تعالى بعدة حقائق عليهم أن يستحضروها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٣٩-١٤٠﴾) فتبيّن الآيتان:

١- إنكم أنتم الأعلون بالإسلام فلا يجوز أن تشعروا بالهزيمة والهوان إن كنتم صادقين في إيمانكم.

٢- إن أصابكم قتل وجراح في هذه المعركة فقد أصاب عدوكم مثله فيها وفي معركة بدر ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (النساء:﴿١٠٤﴾) ولم ييأسوا بل جمعوا قوتهم من جديد وأعادوا الكرّة بالهجوم عليكم فلا يكونوا

أحرص على باطلهم منكم على حقكم.

٣-إن هذا التقلب في الأحوال هو شأن الدنيا بسعادتها وشقائها فإن ((دوام الحال من المحال)) كما قيل، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الدهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك)[١] إذ كل وضع له مقدماته وأسبابه التي تؤدي إليه، وقد أرادها الله تعالى كذلك فنسبَ المداولة اليه سبحانه ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠) منذ أن بدأت الخليقة، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ما زال منذ خلق الله آدم دولةٌ لله ودولةٌ لإبليس، فأين دولة الله، أما هو إلا قائم واحد)[٢]، فيوم لآدم على إبليس حينما طرد وعوقب بسبب امتناعه من السجود، ويوم لإبليس على آدم حينما أطاعه وأكل من الشجرة فاهبطّه الله تعالى من الجنة، واخرج في الدر المنثور عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (إن للحق دولة وإن للباطل دولة، دولة من دولة الحق أن إبليس أمر بالسجود لآدم فأديل آدم على إبليس وابتلي آدم بالشجرة فأكل منها فأديل إبليس من آدم)[٣].

٤-إن هذه الابتلاءات وتغير الأيام تكشف عن حقيقة الناس واستحقاقهم ليثاب المحسنون ويعاقب المسيئون ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (آل عمران:١٤٠) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (الأنفال:٣٧)، وتفرز أهل المطامع والأغراض الدنيوية عن الصادقين في إيمانهم ليتخلص المجتمع المسلم من أولئك الذين ينخرون في عقيدته وأخلاقه.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٩٦.

(٢) تفسير العياشي: ١٩٩/١.

(٣) الدر المنثور: ٧٩/٢.

٥- إنَّ الشهادة كرامة من الله تعالى ووسام يقلده الله من يشاء، وهو عظمت آلاؤه من يصطفي الشهداء منكم ويختارهم، فلماذا الأسى والحزن والله تعالى لا يختار لعباده إلا الخير، و(من) هنا تبعيضية، وهذا المعنى ذكره الإمام السجاد (عليه السلام) بقوله لابن زياد: (وكرامتنا من الله الشهادة)[1] وذكرته العقيلة زينب (عليها السلام) وهي ترد على استهزاء ابن زياد وسؤاله: (كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ اللَّهِ بِأَخِيكِ وأَهْلِ بَيْتِكِ؟) فقالت (عليها السلام): (مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلًا، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ)[2].

والشهداء جمع شهيد أو شاهد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة:٢٨١) وهو مأخوذ من الشهود، والشهود والمشاهدة تعني المعاينة الحضورية إما بالبصر أو البصيرة والوجدان ويقابلها الغيب كما في كثير من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥) والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر: قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس:٦١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (البروج:٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة:٢٨١)، وقول النبي (صلى الله عليه وآله) وقد سئل عن الشهادة قال: (هل ترى الشمس؟ على مثلها

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٣/٦.

(٢) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار) (عليهم السلام): ٤٥ / ١١٥.

فاشهد أو دع)[١].

وفي ضوء هذا فإن من وجوه تسمية القتيل في سبيل الله شهيداً لأنه يشاهد قبل خروج روحه ما أعده الله تعالى له من النعيم، أو لأنه شهد المعركة وثبت فيها حتى قتل - عن مجمع البيان-.

وقد يجعل الله تعالى في الشهداء من لم يقتل لأنه كان صادقاً في طلبها مهيئاً نفسه لها، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه)[٢] وقال (صلى الله عليه وآله): (من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[٣] وقد يحرم أحدٌ من الشهادة لعدم استحقاقه لها فلم يكرمه بها، وقد يؤخّر الله تعالى لعبده الشهادة وهو مستحق لها لمصلحة الدين والأمة، قال أمير المؤمنين من خطبه له: (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَن اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ[٤]، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لي: «إِنَّ ذلِكَ لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَيسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكرِ)[٥] هكذا يتلقى المؤمنون الراضون بما يختاره الله تعالى بشرى القتل في

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٣٤٢.

(٢) صحيح مسلم:١٥١٧/٣/ ح١٥٦. مطبعة عيسى البابي.

(٣) صحيح مسلم:١٥١٧/٣/ ح١٥٧. مطبعة عيسى البابي.

(٤) روي عن أنس بن مالك قال: «أتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعلي «عليه السلام» يومئذ وفيه نيف وستون جراحة -وفي رواية أخرى تسعون- من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى كأنها لم تكن» (مجمع البيان: ٢٢١/٢).

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦.

سبيله.

سعة معنى الشهادة:

وقد تعرضنا لهذا المعنى من الشهادة وهو القتل في سبيل الله تعالى باعتبار سياق الآيات ونزولها في معركة أحد، وإلا فإنَّ الشهادة في المصطلح القرآني لها معنى أوسع من هذا، فإنها مقام شريف وهي تعني الرقابة والقيام بوظائف الخلافة الإلهية، والالتزام بما عاهدوا الله عليه، وترشيد عمل الناس وفق ما يريده الله تعالى و يرضاه، ويكون الشهداء مسؤولين عن كل ذلك أمام رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام)، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

والشهادة على الأمة مسؤولية تتطلب عدة مؤهلات:

١- العلم والمعرفة بالحقائق الدينية عموماً؛ لتتمكنوا من الشهادة عليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة:٤٤).

٢- الحكمة والرشد في التصرف، وعدم اتباع الهوى ونحوه من أسباب الانحراف، والسلوك بوسطية واعتدال من خلال الالتزام التفصيلي بالشريعة، وهي الملكة المعروفة بالعدالة نعم هو لا يصل الى العصمة لذا احتاج الشهداء من الأمة الى شهادة المعصوم عليهم ومراقبته لهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

٣- الخبرة والنضج في إدراك الواقع ووعي متطلبات المرحلة وتحدياتها من خلال المعايشة الحسية والاستفادة من التجارب، قال تعالى عن لسان عيسى بن مريم (عليه السلام): ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة:١١٧)، فالشهادة تتطلب معايشتهم ومعاينة أعمالهم فلما غاب عنهم فقدَ شرطاً من شروطها، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس)[1].

٤- توفر الملكات النفسية كالشجاعة والثبات والصبر وقوة العزيمة وعلّوا الهمة والتفاؤل التي تجعله كفؤاً لهذا المقام الشريف، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ما ضعُف بدنٌ عمّا قويت عليه النية)[2]، وتترسخ هذه الملكات بالتعرض للابتلاءات والمحن.

وهذه المؤهلات تميِّز الشاهد عن باقي الأمة وتجعل له مقام المشاهدة لأفعال الأمة والإشراف على أعمالها كمن يشرف من علو فيكون محيطاً بما يجري تحت نظره، وسموا شهداء لمشاهدتهم الأعمال التي يشهدون بها.

وفي ضوء هذا المعنى فالآية الكريمة التي نحن بصددها تعني وعد المؤمنين بمنحهم مقام الشهادة اذا عرفوا هذه الحقائق التي استفدناها من الآيتين وأطمأنوا بها، والبشرية بحاجة الى هؤلاء القيمين على الدين والقائمين بإرشاد الناس وإصلاحهم، وتكون الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

(١) تحف العقول: ٣٥٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤٠٠.

اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥).

ومن هذا المعنى يتحصل لنا وجه آخر لتسمية القتيل في سبيل الله شهيداً لأنه بتقديم نفسه قرباناً يدلي بأعظم شهادة على الحق الذي مضى عليه وقد شهد بها قتلى أحُد على الفارين من الزحف وعلى جميع الناس بحقيقة أن عصيان أوامر القائد الرباني تؤدي الى الهزيمة والخذلان والانكسار، وتستمر شهادتهم الى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر:٦٩).

وأعظم شهادة في هذا المجال شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) فقد شهد بدمه وتضحياته بأهل بيته وأصحابه على حقانية هذا الدين وسموه وعلو قدره وبذل الغالي والنفيس في نصرته وحفظه ونشره، روى الشيخ الطوسي في الأمالي عن عبد الله بن سيابة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لما قدم علي بن الحسين (عليهما السلام) وقد قُتل الحسين بن علي صلوات الله عليهما استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقال: يا علي بن الحسين مَن غلب؟ وهو مغطى رأسه وهو في المحمل، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: إذا أردت تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة فأذن ثم أقم)[1]، أي اذا دخل وقت الصلاة وتشهدّت في آذانك وإقامتك لله بالوحدانية ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالرسالة ستعرف أن الحسين (عليه السلام) هو المنتصر وأن شهادته قد أدّت غرضها.

وقد اختار المعنى الأول للشهداء الشيخ الطوسي في التبيان بلحاظ سياق

---

(١) أمالي الطوسي: ٦/ ٧٧.

الآيات، واحتمل عدة مفسرين المعنيين ومنهم الطبرسي، واختار بعضهم الثاني خاصّة كالسيد الطباطبائي في الميزان باعتباره المعنى المستعمل[1] في القرآن الكريم قال (قُدِّسَ سِرُّهُ): ((وأما قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فالشهداء شهداء الأعمال وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن، وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء﴾ (البقرة:١٤٣) على أن قوله ويتخذ أيضاً لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملاءمة فلا يقال اتخذ الله فلاناً مقتولاً في سبيله وشهيداً كما يقال اتخذ الله إبراهيم خليلاً واتخذ الله موسى كليماً واتخذ الله النبي شهيداً يشهد على أمته يوم القيامة))[2]، ثم قال (قدس سره) بعد كلام: ((ويمكن أن يتأيد هذا الذي ذكرناه بقوله بعده: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:١٤٠).

وقال السيد السبزواري (قُدِّسَ سِرُّهُ) في وجه التأييد: ((ولأن قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قرينة على أن المراد بالشهداء هم شهداء الأعمال أو من يصلح للشهادة على الأمم يوم الحساب)).

وفيه: أولاً: أنه خلاف سياق مثل هذه الآيات الشريفة، إذ لا ربط لقبول

---

(١) أما شهداء الحرب فقد ذُكروا بالقتل ولم يذكروا بالشهادة كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩).

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٠، ط. الأعلمي- بيروت.

قول الشهداء في عداد بيان خصوصيات القتال والجهاد في سبيله.

وثانياً: إذا كانوا من الشهداء في الحق يكونون من الشهداء على الأعمال أيضاً؛ لما ذكرنا سابقاً من أن الشهداء في سبيل الله لهم مقام الشهادة على الأعمال والشفاعة؛ لما ابتلوا بالصبر والإيثار ببذل النفس.

وثالثاً: إن قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تفصيل بين الشهداء في الحق، فهم ممن أحبّهم الله تعالى واتخذهم وارتضاهم، وبين من قُتل في غير الحق.

ورابعاً: إن استعمال الشهداء بمعنى المقتول في المعركة مطابق للقواعد العربية الفصيحة، فلا محذور في وروده في القرآن الكريم، فليكن المقام من ذلك))[1].

أقول: يمكن أن يراد كلا المعنيين باعتبار انطباق العنوان عليهما كما أوضحنا، وأن المورد لا يخصِّص الوارد، وعدم صحّة إخراج معنى القتل في سبيل الله لأنه محل الكلام، وإن المصطلح موجود في الأحاديث النبوية الشريفة[2] فهو مستعمل في عصر نزول القرآن، بل يمكن استظهاره من بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً﴾ (النساء:٧٢) بتقريب أن فرحهم كان لأجل أنهم لم يقتلوا في المعركة، مضافاً إلى أن أمثال هؤلاء الناس لا يمكن أن يفهموا من الشهادة معنى القيمومة على الأمة فالأقرب أنهم يقصدون المقتولين في سبيل الله في المعركة بعد أن صارت تسميتهم بالشهداء تعبيراً عرفياً في المجتمع المسلم

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للسيد عبد الأعلى السبزواري: ٦/ ٣٦٩-٣٧٠، ط. الخامسة.

(٢) راجع الجزء الثالث من كتاب ميزان الحكمة، ويمكن أن يُنسب إلى الآيات الشريفة.

فلا وجه لاستبعاده.

وقد دلّت الأحاديث الشريفة على أن مصاديق الشهيد واسعة جداً لا تقتصر على القتل في سبيل الله تعالى كرماً من الله، قال الإمام الحسين بن علي (عليه السلام): (لو لم تكن الشهادة إلا لمن قتل بالسيف لأقلَّ الله الشهداء)، ومن المصاديق الواسعة للشهيد ما ورد في الحديثين المتقدمين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر[1] فعفَّ)[2]، وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من مات على حبٍّ[3] آل محمد مات شهيداً)[4]، وفي حديث الإمام زين العابدين (عليه السلام): (من مات على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد مثل شهداء بدر وأحد)[5]، وروي في مجمع البيان عن منهال القصاب قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: ان المؤمن شهيد، وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد:١٩))(٦)، ووردت في الأحاديث الشريفة مصاديق أخرى كالمرأة التي تموت أثناء الولادة ومن مات

---

(١) أي قدر على فعل المعصية أو على خصمه لكنه أتقى الله تعالى فانتصر على هواة وميله النفسي وعفَّ فعل الحرام.

(٢) نهج البلاغة الحكمة: ٤٧٤.

(٣) لا بد أن نفهم من الحب المقترن بالطاعة والإتباع (إن المحبَّ لمن أحبَّ مطيع) وليس مجرد الحب العاطفي.

(٤) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٣٧، ح ٧٦.

(٥) بحار الأنوار: ٨٢/ ١٧٣، ح٦.

(٦) مجمع البيان: ٩/ ٣٥٩.

غرقاً أو بسبب الطاعون والمواظب على آية الكرسي دبر كل صلاة وعلى سورة الكهف كل ليلة جمعة[١] وغير ذلك[٢].

إن الشهادة لا تتحقق إلا بإخلاص العمل لله سبحانه وأن يُقدِم حينما يريد منه الله تعالى الإقدام، ويتأخر عندما يريد الله تعالى له ذلك من خلال طاعة القيادة الربانية الرشيدة التي افترض الله تعالى طاعتها، وليس تبعاً لهواه واندفاعه وحماسه أو تعصباً أو لجماعة أو حباً بشخص أو طمعاً في الدنيا أو غير ذلك، روى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن أبيه الكاظم (عليه السلام) عن آبائه (صلوات الله عليهم أجمعين) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث قال: (إنما الأعمال بالنيات، ولكل أمرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزا يريد الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى)[٣] وقال (صلى الله عليه وآله) (كم ممن أصابه السلاح ليس بشهيد ولا حميد، وكم ممن قد مات على فراشه حتف أنفه عند الله صديق شهيد)[٤].

إن للشهادة قيمة كبرى في الإسلام لا يضاهيها شيء من الطاعات بحسب الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كما في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩)، فالشهداء بعد مرتبة النبيين والصديقين، وروي عن النبي

---

(١) ثواب الأعمال:١٠٧.

(٢) راجع الأحاديث في ميزان الحكمة: ٤/ ٥١٢.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت): ١/ ٤٩.

(٤) كنز العمال: ١١٢٠٠.

(ﷺ) قوله: (فوق كل ذي بر برّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر)[١].

وقد تتفاوت درجات الشهداء بحسب نوع العمل وظروفه ودرجة الصدق والثبات فيه كالمروي في تفاوت درجة القادة الشهداء في مؤته فإن عبد الله بن رواحه ليس في درجة جعفر الطيار وزيد بن حارثة (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين).

وتبلغ قيمة الشهادة ذروتها عندما تكون بسبب اتخاذ المواقف الحقّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر في زمان دولة الجور والظلم والعدوان وانتهاك المقدسات فقد روي في الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ) لما سئل: يا رسول الله! أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر)[٢].

لقد كان السيدان الشهيدان الصدران (قدس الله سريهما) شهيدين بكل هذه المعاني فقد كانا بمرجعيتهما وعلمهما وعملهما وجهادهما ومواقفهما شهيدين على الأمة وحجتين عليها.

وكانا شهيدين لأنهما قتلا في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته.

وكانا شهيدين لأنهما أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وقالا كلمة الحق أمام سلطان جائر متجبر مستخف بالحرمات.

فعلى جميع الكتاب والمثقفين والفضلاء أن يهتموا بتدوين سير الشهداء

---

(١) الكافي:٣٤٨/٢، ح٤.

(٢) سنن ابن ماجه: ٨٤٤/ ح٤٠١٢. دار الصديق للنشر.

ونشرها لتتعرف الأمة على السرّ[1] الذي استحقوا أن يتخذهم الله شهداء، لأن الشهادة نفسها كرامة يمنحها الله تعالى لمن يشاء وليست بأيدينا وإنما علينا أن نعرف موجباتها (اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك) وطريق الوصول إليها واستحقاقها لنتأسى بهم ونستفيد من تجربتهم والله ذو الفضل العظيم.

نسأل الله تعالى الرحمة والرضوان لشهداء الإسلام وأن يبلّغهم المقام المحمود الذي وعدهم إنه سبحانه لا يخلف الميعاد ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

---

(١) فالحر الرياحي كمثال للتوفيق للشهادة العظيمة بين يدي الإمام الحسين (عليه السلام) مع أنه قضى عمره محارباً في جيش الدولة الاموية حتى أصبح قائداً عسكرياً كبيراً يتمتع بامتيازات ضخمة فلندرس سرّ توفيقه، ويمكن اكتشافه من قول الإمام الحسين (عليه السلام) عندما وقف على مصرعه (حرّ كما سمّتك أمّك حرّ) فانعتاقه من اتباع الشهوات وهوى النفس وطاعة الطواغيت والخوف من الموت الا مع الحق سبب توفيقه، ويمكن أن ينضّم اليه احترامه الكبير للسيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وتقديره لها ويعرف ذلك من عدم ردّه على الإمام الحسين (عليه السلام) عندما اعترضه في الطريق وهو يقود ألف فارس وحصلت مشادة في الكلام وزجر الإمام (عليه السلام) بقوله: (ثكلتك أمك) ولم يردّ على الإمام (عليه السلام) مع إن الإمام (عليه السلام) و أهله كانوا في قبضته لأن أم الإمام عليه السلام هي فاطمة الزهراء(عليها السلام) سيدة نساء العالمين.

القبس/٢٣

سورة آل عمران:﴿١٤٤﴾

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

موضوع القبس: إنقلاب الأتباع عند غياب القائد

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٤٤﴾).

تثير الآية الكريمة قضية مهمة وتؤشر مرضاً خطيراً يصيب اتباع الديانات والمشاريع الإلهية وهو ذوبانهم في شخصية القائد ذاته وليس في الرسالة التي حملها اليهم مما يؤدي إلى انهيارهم وانحرافهم وتشتتهم عند غيابه عنهم بموت أو قتل والآية الكريمة تؤسس لحقيقة يجب أن يعيها المؤمنون اتباع الرسالات الإلهية العظيمة في كل الأجيال وهي أن يكون ارتباطهم بالرسالة نفسها لأنها تمثل المبادئ التي أرادها المرسل تبارك وتعالى، والارتباط بالرسول وحامل الرسالة مهما عظمت مكانته لابد أن يكون على هذا الأساس وليس على أساس الشخصنة التي تؤدي الى الصنمية وعبادة الذات والذوبان فيها بمعزل عن المبدأ بحيث اذا مات أو قتل فكأنه ينتهي كل شيء.

وهذا من أخطر الأمراض التي تُصيب اتباع الرسالات والمشاريع الإلهية لأنه

يؤدي إلى اندثار الرسالة وانحرافها وتفرق الاتباع عند موت القائد[1]، والصحيح أن يعتقدوا أن الرسالة باقية خالدة اما الرسول أو القائد عموماً فأنه معرَّض للموت أو القتل ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠) وان الله تعالى يقيِّض لهذا الدين من يستمر بتبليغه وحفظه من التحريف والدّس وإقامته في حياة الأمة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (يا أيها الناس: ان الله تبارك اسمه وعزّ جنده لم يقبض نبياً قط حتى يكون له في أمته من يهدي بهداه ويقصد سيرته ويدلّ على معالم سبيل الحق الذي فرض الله عباده، ثم قرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ...﴾)[2]

فالمؤمنون الصادقون هم الذين ذابوا في المبدأ ــ وهو الدين ــ واستوعبوه وجعلوه منهج حياتهم فلا تؤثر عليهم غيبة الرسول والقادة عموماً بل هم لا يرون انه قد غاب عنهم لأنه حاضر بينهم بالمبادئ التي أسسها لهم والمنهج الذي وضعه لهم فهم ينظرون إلى الرسالة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم:٢٤-٢٥).

وهذه الآية دليل على صدقه (صلى الله عليه وآله) وان القرآن كتاب منزل من الله تعالى، لأن دعوته (صلى الله عليه وآله) لو كانت لمنفعة شخصية له لعمل على تكريس ذاته كما يفعل الطواغيت ((اذا متُّ ضمآناً فلا نزل القَطر)) بينما كان (صلى الله عليه وآله) يعمل على تذويب ذاته في المبدأ والشواهد على ذلك من سيرته الشريفة كثيرة كقوله (صلى الله عليه وآله) لمن ارتعدت فرائصه لما نظر إليه وهو يكلّمه (هوِّن عليك.. فأني لست بملك.. إنما أنا

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ (مريم:٥٩) في تفسير من نور القرآن.

(٢) تفسير العياشي: ١/٢٠٠.

ابن امرأة تأكل القديد)[١] ، وقد حكى الله تعالى هذا الموقف عن جميع أنبيائه، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:٧٩).

والآية تحكي فصلاً من احداث معركة أُحد فأنه لما نودي في جيش المسلمين من بعض المشركين أو المتآمرين والمنافقين وذيول قريش بأن رسول الله (ﷺ) قد قتل انهزموا ((فجعل الرجل يقول لمن لقيه: إن رسول الله (ﷺ) قد قتل، النجاء النجاء - أي انجوا بأنفسكم -))[٢] ودخل اليأس على أكثر المسلمين والقوا سلاحهم وأيقنوا بأن كل شيء قد انتهى بحيث ((قال أهل المرض والارتياب والنفاق حين فرَّ الناس عن النبي (ﷺ) قد قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول))[٣] أي الشرك والجاهلية، وأخرج ابن جرير أيضاً ان بعضهم قال ((ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن ابي - زعيم المنافقين في المدينة - فيأخذ لنا أماناً من ابي سفيان، يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم))[٤] ومن كلامهم يظهر انهم من المهاجرين.

فالآية توبّخهم وتقول بأن محمداً (ﷺ) ليس الا رسول مبلغ عن الله تعالى ما

---

(١) سنن: ابن ماجة: ١٦/٤ كتاب الاطعمة، باب القديد ح ٣٣١٢ والطبراني في الأوسط: ٦٤/٢ رقم ١٢٦٠ والحاكم في المستدرك: ٥٠/٣ رقم ٤٣٦٦ وصحّحوه.

(٢) تفسير القمي: ١١٩/١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٥٨/٧.

(٤) تفسير الطبري: ٢٥٥/٧.

فيه هدايتكم وصلاحكم ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً﴿إِنَّ الأَمْـرَ كُلَّـهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٤) وقد مضى من قبله رسل كُثُر على ذات المنهج والدعوة إلى الله تعالى، وكلهم مضوا إلى ربّهم بعد أن ادّوا ما عليهم من دون أن تموت المبادئ التي حملوها إلى أممهم فلماذا - والاستفهام هنا استنكاري - هذا الانقلاب منكم والنكوص والرجوع عما أنتم عليه من الحق الى جاهليتكم الأولى والتخلي عن مواصلة اعتناق الرسالة والمضي على ما مضى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمجرد أن صيح بكم بموته أو قتله (صلى الله عليه وآله) وهذا يعني ان رواسب الجاهلية ما زالت فيكم﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤)، وأن ارتباطكم بالنبي (صلى الله عليه وآله) شخصي لاجل الدنيا وليس مبدأياً، وتعلّل آية أخرى هزيمتهم من المعركة بأنها انعكاس لهزيمتهم الروحية﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ (آل عمران:١٥٥).

وتضيف الآية: واعلموا إن انقلابكم هذا لن يضرّ الله تعالى ولن يؤثر على استمرار الرسالة وخلودها لأن الله تعالى يأتي بمن يواصل حملها وحمايتها والانطلاق بها كما يشهد لذلك ما حصل في كل حالات الانقلاب التي وقعت فيها الأمة وإنما يخسر المنقلبون على اعقابهم لأن الدين جاء لإسعادهم في الدنيا والآخرة فاذا تخلّوا عنه فان حياتهم ستكون نكدة وشقية ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إبراهيم:٨).

وقد ثبت في المعركة قلة من الافذاذ احاطوا برسول الله (صلى الله عليه وآله) يقونه بأنفسهم يتقدمهم أمير المؤمنين (عليه السلام) واستشهد أكثرهم رُوي عن ابن عباس (أن

علياً (عليه السلام) كان يقول في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن الله عزوجل يقول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلنّ على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لاخوه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني)[1]

وقد اعتبر الله تعالى ثباتهم على الرسالة والمبدأ شكراً فقال تعالى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ لأن الشكر على النعمة هو استعمالها فيما يريده المنعم واستحضار ما يقتضيه حق الربوبية وان ثباتهم وتمسكهم شكر عملي على نعمة الايمان.

روى[2] ابان بن عثمان عن ابي جعفر (عليه السلام) (أنه أصاب علياً يوم أُحُد ستون جراحة وروى الشيخ المفيد في الاختصاص أنها ثمانون تدخل الفتائل من موضعّ وتخرج من موضع بحيث خاف المداوي من معالجته لأنه كلما عالج جزءاً انفتق جزء آخر من بدنه فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل النبي (صلى الله عليه وآله) يمسحه بيده ويقول: ان رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر وكان القرح الذي يمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يلتئم فقال علي (عليه السلام): الحمد لله اذ لم أفرّ ولم أوليّ الدبر فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن وهو

---

(١)آمالي الشيخ: ٥٠٢/ ح١٠٩٩.

(٢) بحار الأنوار: ٤١ / ٣، المناقب لابن شهرآشوب: ١١٩/٢، تفسير البرهان: ٢٨٢/٢ ح ٢، نور الثقلين: ٢٠٣/١

قوله تعالى﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤)، ﴿ وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥).

أقول: تصرّح الرواية بأن المقصود بالشاكرين هو أمير المؤمنين، ويمكن الاستدلال عليه بأن الثبات في المعركة كان شكراً حقيقة وقد ثبت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمع مبارك من أصحابه، ولو أريد ذكر موقفهم لكان الأنسب في التعبير أن يكون (وسيجزّي الله الذين شكروا) في إشارة إلى فعل محدد وحالة معينة وبمقتضى المقابلة مع الفعل ﴿انقَلَبْتُمْ﴾.

أما وصف الشاكرين فلا ينطبق الا على أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنه يدل على ثبات الصفة عند الموصوف واستمرارها وهذا الوصف الثابت يلازم وصف المخلصين، لأنه اذا علمنا بأنه ما من شيء الا وهو نعمة من الله تعالى فقد ((بان ان الشكر المطلق هو ان لا يذكر العبد شيئاً – وهو نعمة– الا وذكر الله معه ولا يمس شيئاً – وهو نعمة– الا ويطيع الله فيه – لأن الطاعة حقيقة الشكر فهو دائم الشكر والذكر– ، فقد تبيّن ان الشكر لا يتم الا مع الإخلاص لله سبحانه علماً وعملاً، فالشاكرون هم المخلصون لله، الذين لا مطمع للشيطان فيهم، ويظهر هذه الحقيقة مما حكاه الله تعالى عن ابليس، قال تعالى﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣) فلم يستثن من اغوائه أحداً الا المخلصين، وقال تعالى﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧) فقد بدّل المخلصين بالشاكرين، وليس الا

لأن الشاكرين هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم، لأن الشاكر متعلق بالله تعالى ولا مطمع له في سواه تبارك وتعالى وبذلك فقد سدَّ على الشيطان منافذ اغوائه وإضلاله فكان من المخلصين، واتحدّ الشاكر والمخلص في المصداق وان اختلفا في المفهوم. اما المنقلبون فهم الذين قال عنهم إبليس﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٧) ((وإن المقابلة بين الشاكر والمنقلب تشير إلى أن الثبات محصول الشكر وأن تثبيت كل فرد لموقعه الايماني يُعدُّ سبباً لارتقائه في درجات الشكر، ومن هنا يمكننا معرفة خطورة الشكر، وهذا الاهتمام هو الذي أدى الى التصريح بلفظ الجلالة في الآية بينما كان يمكن الاكتفاء باستعمال الضمير))[1] وكذا لم تذكر ماهية الجزاء للاشعار بعظمته وأنه يفوق التصور.

روى ابن هشام في السيرة (انتهى أنس بن النضر- عم انس بن مالك وبه سمي- إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد القوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل)[2].

والظاهر ان الانقلاب في الآية هو الرجوع عن الدين الى الكفر وليس مجرد الفرار من المعركة كما في آيات آخر كقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل

(١) تفسير تسنيم للجوادي الآملي: ٦٥٤/١٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠/٣.

عمران:﴿١٤٩﴾) وقوله تعالى﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(الأنعام:﴿٧١﴾) وقوله تعالى﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة:﴿١٤٣﴾)، وقد وصفت آية أخرى هذه الحالة بأنها كانت بسبب عدم استقرار الايمان في قلوبهم عودة إلى الجاهلية تعرضوا لها بسبب وفاة أو قتل رسول الله (ﷺ) قال تعالى﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران:﴿١٥٤﴾).

هذا هو حال الكثير من الصحابة الذين كانوا مع رسول الله (ﷺ) يوم أحد، قال ابن هشام في بيان ما نزل من القرآن في معركة أحد بعد أن ذكر هذه الآية ((﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم، وتركتم جهاد عدوكم ، وكتاب الله، وما خلف نبيّه (ﷺ) من دينه معكم وعندكم، وقد تبيّن لكم فيما جاءكم به أعني أنه ميت ومفارقكم ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ﴾ أي يرجع عن دينه ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ليس ينقص ذلك عز الله تعالى ولا ملكه ولا سلطانه ولا قدرته، ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من اطاعه وعمل بأمره))[1].

والآية وان نزلت في حادثة وقعت الا انها تتحدث عن حالة انقلابية مستقبلية أيضاً شارك فيها جمع ممن انقلب على عقبيه يوم أحُد ولم تستطع السنوات التالية من مصاحبة رسول الله (ﷺ) من القضاء على ادران الجاهلية في قلوبهم، فكان ما

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٥١/٣.

وقع يوم أحُد تدريباً وإعداداً للمسلمين لكي يتحملوا تلك الصدمة الحقيقية ويتخذوا الموقف الحازم الذي أمرهم الله تعالى به، فيحذرهم من الانقلاب على الاعقاب عند موت أو قتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والا فان المسلمين فرّوا من المعارك في مرات عديدة وان آياتٍ أخر ذكرت الفرار من دون هذه التعابير كقوله تعالى في هزيمتهم يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة:٢٥).

بل يخبرهم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) اذا مات أو قتل فعلاً في الزمان الآتي فأنكم ستنقلبون على اعقابكم وترجعون عن طاعة ما أمر به ربكم، والفرق ان ما وقع يوم أحُد من بعضهم كان ارتداداً عن الدين كما صرحوا في كلماتهم اما انقلابهم عند موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعلاً فهو في الدين وليس عن الدين والكفر به كفر بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها بإكمال الدين بالولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام)، واستعمال صيغة الماضي ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ لافادة التحقق القطعي كما في الحكاية عن أحداث يوم القيامة بصيغة الماضي، وقد حذرهم النبي (صلى الله عليه وآله) من هذا الانقلاب في يوم الغدير حين أمر المسلمين ببيعته ولياً لأمورهم بعده، فقال (صلى الله عليه وآله) (معاشر الناس أنذركم اني رسول الله إليكم قد خلت من قبلي الرسل،﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، الا وان علياً هو الموصوف بالصبر والشكر، ثم من بعده ولدي من صلبه)[1].

---

(١) الاحتجاج- الطبرسي: ٦٢/١.

وقال في الحديث المشهور لدى الفريقين (ستفترق أمتي بعدي ثلاث وسبعين فرقة)[١].

وقد وقع هذا الانقلاب باتفاقهم على اقصاء من نصبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إماماً وخليفة من بعده، وأشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى هذا الرجوع على الاعقاب بقوله في خطبة الوسيلة (حتى إذا دعا الله عز وجل نبيه ورفعه اليه، لم يك ذلك بعده إلا كلمحة من خفقة، أو وميض من برقة، الى أن رجعوا على الأعقاب ، وانتكصوا على الأدبار، وطلبوا بالأوتار، وأظهروا الكتائب، وردموا الباب، وفلوا الديار، وغيروا آثار رسول الله، ورغبوا عن أحكامه، وبعدوا من أنواره، واستبدلوا بمستخلفه بديلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، وزعموا أن من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول الله ممن اختار رسول الله لمقامه، وأن مهاجر آل أبي قحافة خيرٌ من المهاجري الأنصاري الرباني ناموس هاشم بن عبد مناف)[٢].

وقال (عليه السلام) في حديث طويل (وليس كل من أقرَّ أيضاً من أهل القبلة بالشهادتين كان مؤمناً، ان المنافقين كانوا يشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدفعون أهل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما عهد به من دين الله وعزائمه وبراهين نبوته إلى وصيه، ويضمرون من الكراهية لذلك والنقض لما أبرمه منه عند امكان الأمر لهم فيه بما قد بيّنه الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) بقوله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾)[٣].

---

(١) الخصال- الشيخ الصدوق: ٥٨٥، كنز العمال للمتقي الهندي: ٢١٠/١، الدر المنثور: ٢/ ٢٩٠، دلائل النبوة للبهيقي: ٦/ ٢٨٨.

(٢) الكافي – الشيخ الكليني: ج٨/ ١٨/ ح٤.

(٣) الاحتجاج: ٢٤٨/١.

وطبّقت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) الآية الكريمة على فعلهم فقالت في خطبتها لما سلبوها فدكاً وانتهكوا حرمة دارها (أتقولون مات محمد (صلى الله عليه وآله) فخطب جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته وأكدت الآمال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم وفي ممساكم ومصبحكم يهتف في أفنيتكم هتافا وصراخا وتلاوة وإلحانا ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وقوله تعالى ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾ مطلق ينفي كل اشكال ومراتب الاضرار والتأثير، فهذا وعد من الله تعالى بأن كل اشكال الانقلابات لا تضرّ الله شيئاً لذا نرى ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بقيت ثابتة وظل عَلمُهم خفاقاً رغم كل الظلم والاضطهاد والقتل والتعذيب الذي انزله الطغاة بهم وبشيعتهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٤٥).

---

(١) الاحتجاج: ١٠٣/١.

ملحق: ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي؛ لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق؛ والحمد لله الذي جعلنا من الموفين بعهده، وميثاقه الذي واثقنا به، من ولاية ولاة أمره والقوّام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين المكذبين بيوم الدين، وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً.

رزية الخميس:

كانت وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، الثامن والعشرين من صفر على ما هو المشهور[٢]، فتكون رزية يوم الخميس كما سماه عبد الله بن عباس[٣]، يوم الرابع والعشرين من صفر - أي في مثل يوم أمس-، وكانت رزية حقاً؛ إذ انقطع في ذلك اليوم آخر أمل لتمسك الأمة بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الإمام والخليفة من بعده، وأعلنوا معارضتهم الصريحة والواضحة لهذا التعيين، لذلك قال (صلى الله عليه وآله)

---

(١) محاضرة ألقاها سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على حشد من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية، يوم: ٢٥/ صفر/١٤٢٣هـ- المصادف: ٨/آيار/٢٠٠٢م، في مسجد الرأس الشريف، مجاور الصحن الحيدري المطهر، بمناسبة ذكرى وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله).

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣٤/٢٢.- تأريخ الطبري- الطبري: ١٩٧/٢.- سيرة بن هشام- ابن هشام: ٤/ اليوم الذي قبض الله تعالى فيه نبيه الأكرم(صلى الله عليه وآله).

(٣) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات- السيد شرف الدين: ٣٥٢.ـ وتأريخ الطبري أيضاً المجلد الثاني السنة الحادية عشر.

لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)[١]، وأوصى أمته بهم خيراً، ولو كان يعلم أن الأمر يؤول إليهم لما احتاج إلى الوصية بهم، وفي حديث للإمام الصادق (عليه السلام) يُعبر فيه عن ألمه العميق من تضييع الأمة لبيعة يوم الغدير ولحق أمير المؤمنين(عليه السلام) فيقول: (أحدكم يشهد له شاهدان بحق، فيأخذ بحقه، وإن جدي أمير المؤمنين(عليه السلام) شهد له يوم الغدير بحقه ستون ألفا، ولم يقدر على الأخذ بحقه)[٢].

النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري:

ولا أُريد أن أناقش أسباب هذا التضييع، وإهمال الأمة؛ لهذا الحق، الذي أخذه الله على كل المؤمنين، - فلهذه المناقشة محل آخر-، لكنني أعتقد أن أحد هذه الأسباب، والذي لا زال في ذهن الناس مما يقلّل من وعي خطورة هذا التضييع هو القصور في فهم النزاع، فقد فهموه على أنه نزاع بين شخصين، هما علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومن نازعه الأمر.

فهم لا ينكرون فضل علي (عليه السلام) وسابقته، وجهاده، وعلمه، وقربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشجاعته، وفناءه في الله؛ لكنهم يرون أن المُقابل أيضاً من السابقين إلى الإسلام، وثاني اثنين، إذ هما في الغار، وصهر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وبدريّ، وأحديّ.

بل حاولوا تلفيق بعض المناقب ليساووه بأمير المؤمنين (عليه السلام)، أو يقتربوا منه

---

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ٧٩- الإرشاد- الشيخ المفيد: ١٨٤/١.

(٢) نهج الإيمان- بن جبر (من أعلام القرن السابع)- تحقيق السيد أحمد الحسيني: ٥٧٧.

(عليه السلام)، وإزاء هذه المقارنة، لم يجدوا المسألة مهمة بهذه الدرجة، ولا تستحق أن ينشق المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، ولا جدوى في البحث فيها، فقد أكل عليها الدهر وشرب.

ولو فهموها بصورتها الصحيحة، لغيروا عقيدتهم، ولما وجدوا أي تردد في قبول المذهب الحق؛ لأن الخلاف ليس بين شخصين - وإن كان بحد ذاته دليلاً كافياً لسمو علي (عليه السلام) على غيره كسموّ الثريا على الثرى- وإنما بين مبدأين وخطين كان علي (عليه السلام) رمز الأول، ومنافسه رمز الثاني.

الخط الأول: مبدأ وخط رسمه الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض العالم بخفيات الأمور، وبواطن النفوس، وبما كان وسيكون، واختاره للأمة، لتصل إلى كمالها المنشود، وبلّغه رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير.

يقف في أول الخط، علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومن بعده الحسنان (عليهما السلام) سبطا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن بعدهما الأئمة الطاهرون (عليهم السلام)، الذين أطبقت الأمة على نزاهتهم، وعلمهم، وتمثيلهم الكامل للشريعة الإلهية، ومن بعدهم العلماء العارفون، الأتقياء الصالحون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الخط الثاني: خطٌّ يصنعه البشر، بأهوائهم، وأساليبهم الشيطانية، من قهر وإذلال، أو إغراء بالمال، أو ظلم وتعسف، أو تضليل وتمويه وادعاءات باطلة، وكان الآخر رأس هذا الخط، فقد اختارته قريش -كما يقول الخليفة الثاني- وليس الله الذي اختاره.

ويتتابع على هذا الخط، معاوية ابن أبي سفيان، الذي يقول: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما

قاتلتكم، لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون)[١].

ومن بعده يزيد بن معاوية، شارب الخمر على منابر المسلمين، والذي أحرق الكعبة بالمنجنيق، وقتل ريحانة رسول الله(صلى الله عليه وآله)[٢].

ومن بعده الآخرون، الذين سفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ونشروا الفساد وضلّوا وأضلّوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف:٣٨).

مع الوعي في الطرح:

عندما تعرض المقارنة بهذا الشكل، ولو استوعبها الصحابة والأجيال جميعاً، بهذا الشكل، لما ترددوا في الإيمان بصحة الخط الأول، والتمسك به، على أنهم غير معذورين من أول الأمر، لأن القرآن صريح ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص:٦٨)، بل إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه لم يكن له هذا الحق، حينما عرض عليه بنو عامر أن يسلموا مقابل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فقال (صلى الله عليه وآله): (الأمر إلى الله يضعه

---

(١) مقاتل الطالبيين- أبو الفرج الأصفهاني: ٤٥.

(٢) أن يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين، وأظهر الفتك، وشرب الخمر. الأغاني- أبو فرج الأصفهاني: ٣٠١/١٧.- وللمزيد أنظر: تأريخ الطبري المجلد الثالث- سيرة الأئمة- هاشم معروف الحسني: ٢. منتهى الآمال- عباس القمي: ١/الباب الخامس.- معالم المدرستين- مرتضى العسكري: ٥/يزيد في أفعاله وأقواله.

حيث يشاء)[1]، وفي رواية أخرى(ان الله تعالى اختارني وأهل بيتي عن جميع الخلق، فانتجبنا، فجعلني الرسول، وجعل علي بن أبي طالب الوصي، ثم قال: ما كان لهم الخيرة، يعني ما جعلت للعباد ان يختاروا، ولكني اختار من أشاء، فأنا وأهل بيتي صفوة الله وخيرته من خلقه)[2].

ومحل الشاهد، أني اعتقد، أن طرح الموضوع بهذا الشكل يكون أجدى وأوضح.

ماذا خسرت الأمة؟

ولكي نزيده وضوحاً نطرح سؤالاً، وهو: ماذا خسرت الأمة، بتضييعها وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الخليفة من بعده؟؛ وماذا ترتب على هذا الإهمال من نتائج سلبية؟

وحينما أتناول هذا البحث، فإني لا أريد فقط أن أناقشها كقضية تأريخية، وإن كانت من الأهمية بمكان؛ لابتناء أصل من أصول الدين، وهو أصل الإمامة عليها.

ولكن الذي أريده، هو الاستفادة من هذا الدرس، واستخلاص العبرة؛ لأن الإمامة بالحمل الأولي، وإن كانت مختصة بالأسماء المعينة، إلا أنها بالحمل الشايع - أعني النيابة العامة عن الإمام، وولاية أمر المسلمين، المتمثلة بالمرجعية الشريفة الجامعة لشروط القيادة- مستمرة إلى أن يرث الأرض ومن عليها الإمام

---

(١) السيرة النبوية- ابن هشام: ٤٢٥/١، من طبعة مصطفى البابي. وفي طبعة المدني: ٢٨٩/٢.- تاريخ الطبري- الطبري: ٣٥/٢.- سير أعلام النبلاء- الذهبي: ٣٥/١.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٢٢٠/١.

المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف).

فإذن يبقى باب هذه النتائج السلبية التي سنتعرض لها، بإذن الله تعالى، مفتوحاً لها كلها، أو بعضها، كلما ولت الأمة أمرها إلى من لا يستحق، فيكون من الضروري الالتفات إليها، فنعود إلى أصل السؤال:

وهو ماذا خسرت الأمة عندما ولّت أمرها غير صاحب الحق الشرعي؟

وماذا ترتّب على ذلك من نتائج سلبية؟

النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة

النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة:

فمن المعلوم أن أية رسالة، وأية آيديولوجية - بتعبير اليوم - لا بدَّ أن يكون حاملها مستوعباً لها بشكل كامل، فهماً وتطبيقاً، بحيث تكون هذه العقيدة، هي الموجهة له في كل سلوكه، وتصرفاته، وأفكاره، وعلاقاته، ولم يكن القوم كذلك، وإنما هم أناس عاديون، كبقية أفراد المجتمع، ويوجد كثير غيرهم ممن استوعب الرسالة وجسَّدها في حياته خيراً منهم.

وقد كانوا يعترضون على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حياته ويتمردون على أوامره[1]، حتى آخر حياته؛ بتخلفهم عن جيش أسامة[2]، وعدم تلبية أمره (صلى الله عليه وآله) حينما طلب قرطاساً في رزية يوم الخميس[3].

وكانت الجاهلية تعيش في نفوسهم، حيث قضوا أكثر أعمارهم فيها، وقد كشف عن عدم أهليتهم، جهلهم، وتخبّطهم في الأمور، ويصف أمير المؤمنين إمرتهم المنحرفة في الخطبة الشقشقية: (فَيَا عَجَبا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا[4]، فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا[5]! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ

---

(١) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات- السيد شرف الدين: ٣٥٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج٤/ أمر الرسول بإيفاد بعث أسامة.

(٣) أنظر: الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٢٤٢/٢. بحار الأنوار- المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات- السيد شرف الدين: ٣٥٢._ وتأريخ الطبري أيضاً ج١٢/ السنة الحادية عشر.

(٤) يَسْتَقِيلها: يطلب إعفاءه منها.

(٥) تشطرا ضرعيها: اقتسماه فأخذ كلّ منهما شطراً، والضرع للناقة كالثدي للمرأة.

كُلاَمُهَا[١]، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا. وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ[٢]، فِيهَا. وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا. فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ[٣]، إِنْ أَشْنَقَ[٤]، لَهَا خَرَمَ. وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ[٥]، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللّهِ بِخَبْطٍ[٦]، وَشِماسٍ[٧]، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ[٨])[٩].

حتى قال الثاني: (كل الناس أفقه من عمر، حتى ربات الحجال)[١٠]، بعد أن نهى عن زيادة المهر عن حد معين، فأجابته امرأة: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (النساء:٢٠).

وقد أشكلت عليهم الكثير من المسائل، حتى الاعتيادية منها[١١]، التي كانت تتكرر في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) كالصلاة على الجنائز، ولما سئل الثاني عن

---

(١) كَلْمُها: جرحها، كأنه يقول: خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

(٢) العِثار: السقوط والكَبْوَةُ.

(٣) الصّعْبة من الابل: ما ليستْ بِذَلُول.

(٤) أشْنَقَ البعير وشنقه: كفه بزمامه حتى ألصق ذِفْرَاه (العظم الناتىء خلف الاذن) بقادمة الرحل.

(٥) تَقَحّمَ: رمى بنفسه في القحمة أي الهلكة.

(٦) خَبْط: سير على غير هدى.

(٧) الشِّماس ـ بالكسر ـ: إباء ظَهْر الفرس عن الركوب.

(٨) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عَرْضاً في حال سيره طولاً.

(٩) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ١٥١/١.

(١٠) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ١٨٢/١.

(١١) أنساب الأشراف- البلاذري: ١٠٠/١.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨٠٠/٨.

سبب قلة استفادتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ألهانا الصَّفْقُ بالأسواق)[١]، وكانوا يشككون حتى بنبوة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعصمته، فيقول له أحدهم وجهاً لوجه: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله)[٢]، أو يقولون عنه: (إن الرجل ليهجر)[٣].

الإعداد النبوي للخليفة الحق:

في مقابل ذلك كان هناك شخص، يعدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إعداداً خاصاً، لكي يتسلم هذا الموقع، ذاك هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فاستمع إليه يتحدث عن هذه التربية الخاصة: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنيه، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ)... إلى أن قال(عليه السلام): (وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله)، وَخَدِيجَةَ، وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ، حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (صلى الله عليه وآله)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرى مَا أَرى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ

---

(١) كنز العمال- المتقي الهندي: ٥٦٩/٢.- إتحاف المهرة- ابن حجر العسقلاني: ٣٢٢/١٢.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٢٥٤.- مسند أبي يعلى- أبو يعلى الموصلي: ٢٢٩/١٢.

(٣) الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٢٤٢/٢.- صحيح البخاري- البخاري: ٣٤/١/ح١١٤.

بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلى خَيْرٍ)[١].

وفي نهاية خطبة مماثلة أخرى يسأل(عليه السلام) مستنكراً: (فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنّي، حَيّاً وَمَيِّتاً؟)[٢].

آثار خطيرة:

هكذا كان يتم تهيئة الإمامة البديلة، أما هؤلاء، فلم يتلقوا شيئاً من ذلك، لذا فقد أفرز تصدي هؤلاء غير المؤهلين عدة آثار خطيرة:

١- **تشوّه صورة الإسلام نفسه**؛ لأن كثيراً من الأمم والشعوب دخلت الإسلام بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فهي لم تأخذه من مصدره، وإنما نقل لها عبر كلام وسلوك أصحابه، ولما كان هؤلاء غير مؤهلين لتمثيل الإسلام بصورته النقية الكاملة، ولم يعرف المسلمون الجدد غير هذه الصورة المعروضة أمامهم فَتَبنّوها على أنها الإسلام الحقيقي، وتزايد هذا البعد عن الإسلام بمرور الزمن، حتى صرتَ ترى أقواماً لا تفقه من الإسلام شيئاً غير الاسم وبعض الشكليّات.

٢- **تجرّي أعداء الإسلام خصوصاً اليهود عليه**، وما كانوا يستطيعون أن يظهروا شيئاً منه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لعدم وجود ثغرة يمكن أن يدخلوا منها، أما وقد تصدّى لهذا الموقع العظيم ناس غير مؤهلين لهذا الموقع، ويمكن التغلب عليهم وإحراجهم، فمن السهولة إذن هزّ ثقة المسلمين بدينهم، بتكرر الفشل من قادتهم.

---

(١) نهج البلاغة- الشيخ محمد عبده: ١٥٧/٢.

(٢) نهج البلاغة- الشيخ محمد عبده: ١٧١/٢.

وبالنتيجة تخليهم عن هذا الدين، فلم يكن من الغريب حصول هذه الهجمة العنيفة من الامتحانات العسيرة والمتنوعة، التي أحرج بها اليهود الخليفة الاول، والثاني، وتزعزعت ثقة المسلمين، وشعروا بالإحباط، وكادوا يرتدون لولا وجود أمير المؤمنين(عليه السلام) بالمرصاد، الذي كان يجيبهم على كل أسئلتهم ويردّ كيدهم إلى نحورهم[1].

٣- انفتاح باب الطمع بهذا المنصب الشريف، لكلّ محبي الرئاسات، والجاه، واتباع الهوى، بعد أن أصبح نيله ليس بالاستحقاق، وفق معايير الرسالة، وإنما هو لمن غلب وقهر، ولو بالسيف، حتى أصبح مستساغاً أن يولي معاوية ابنه يزيد، المعروف بالفسق، والفجور، على رقاب المسلمين.

النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص:

أي الحكم والتشريع بالآراء الشخصية، خلافاً للنص الإلهي الحكيم، وهو يعني أن الإنسان يُنصّب نفسه مشرعاً، وإلهاً، يُطاع في مقابل ألوهيّة الله تبارك وتعالى، الذي هو وحده له حق التشريع والحاكمية، وهو ما رفضه الله تبارك وتعالى، رفضاً قاطعاً، وجعل كل حكم وتشريع ليس مستنداً إلى الشريعة المقدسة، جاهلية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، وفي آية أخرى ﴿الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥)، وفي ثالثة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧).

---

(١) أنساب الأشراف- البلاذري: ١٠٠/١.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨٠٠/٨.- الغدير- الاميني: ١٧٧/٧.

وكان من شروط الإيمان الكامل: التسليم، والإذعان، لحكم الله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)، لكن القوم فتحوا باب الاجتهاد واسعاً، ولم يكترثوا كثيراً للنص الشرعي لعدة أسباب:

١- **جهلهم، وعدم اطلاعهم الكامل على أحكام الشريعة**، فراحوا يستنبطون من أنفسهم، ما يسدّ نقصهم.

٢- **لأجل المحافظة على الأغراض، والمصالح** التي أرادوها، فلا بد من تعطيل النصوص، التي تتعارض مع المنهج الذي اختطوه، وتبرير الأفعال المخالفة بصراحة لحكم الله تبارك وتعالى.

٣- **تغييب الممثل الحقيقي واللسان الناطق بالشريعة.**

وقد عطل هذا الاجتهاد الكثير من التشريعات، التي كانت مصدر خير للأمة، ومنها الزواج المؤقت، الذي قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (لولا نهي فلان عن المتعة، ما زنى إلا شقي)[1].

وبالمقابل برّر هذا الاجتهاد أشنع المنكرات، فمثل مالك بن نويرة[2] الذي شهد له رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالجنة يُقتل، ويدخل خالد بزوجته في نفس الليلة،

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني:٤٤٨/٥.

(٢) مالك بن نويرة، الحنفي، اليربوعي، من أرادف الملوك، ومن شجعان عصره، وفصحائهم، وكان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن خُلّص أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، انتظر بقومه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى أن يتبين موقف أمير المؤمنين عليه السلام فأرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد فغدر بهم وقت الصلاة وأمر بقتل مالك حين رأى جمال امرأته. الكنى والألقاب- الشيخ عباس القمي: ٤٢/١.

ويأتي جواب الخلافة ببرود: (تأوّل خالد فأخطأ)[١].

ويخرجون لقتال إمام زمانهم بكل المقاييس التي عندهم في معارك طاحنة في الجمل، وصفين[٢]، وكله اجتهاد يؤجرون عليه وإن أخطأوا فلهم أجر واحد.

وقد تأصل هذا الاجتهاد فيما بعد، وتعمق، ووضعوا له أصولاً وقوانين، وأصبحت مذاهب في مقابل مذهب الحق.

النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها:

فقد شاءت الإرادة الإلهية، أن تنقذ البشرية بهذه الرسالة المباركة من حضيض الجاهلية النكدة، إلى سمو التوحيد، وطهارة الإيمان، وسعادة الدارين، وقد قُدر لهذه المسيرة أن تتكامل، لتنشأ أمة، متكاملة، على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والأئمة المعصومين من آله، لكن إبعاد الأئمة(عليهم السلام)، عن موقع قيادة المجتمع، أدى إلى عرقلة هذه المسيرة، وبطئها، من عدة جهات:

١- **إن من العناصر المهمة في التربية، هو القدوة، والأسوة الحسنة، على تعبير القرآن**؛ لأنه يُمثل التطبيق للأفكار التربوية، فإذا غاب القدوة، أو كان القدوة منحرفاً، فلا ينفع الكلام مهما كثر، ويبقى مجرد حبر على ورق.

والقوم لم يكونوا يمثلون قدوة حسنة، ولم يستطيعوا عكس صورة نقية للسلوك الإسلامي، بل إنه على مرور الأيام كان النموذج المعروض مناقضاً تماماً

---

(١) الطبقات الكبرى، متمم الصحابة، الطبقة الرابعة- ابن سعد:٥٣٥.- أسد الغابة- ابن الأثير: ٩٥/٢.- البداية والنهاية- ابن كثير: ٣٥٤/٦.

(٢) الفصول المهمة في معرفة الأئمة- ابن الصباغ: ٣٤٨/١.- تاريخ الطبري- الطبري: ٥٤٣/٣.- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٢٧٦/٣.

لتعاليم الإسلام، فكيف نتوقع منه أن يربي الأمة ويقودها نحو التكامل؟

ففي حين يقرأ المسلم في أخلاق الإسلام (وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)[1]، يجد في التعامل تفضيل العرب على غيرهم، الذين يسمونهم الموالي، ويعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، وبينما يقرأ في القرآن ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣)، يجد الخلافة تُلاحق أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، تحت كل حجر ومدر، قتلاً، وتشريداً، وسجناً، وبينما يقرأ حرمة شرب الخمر في القرآن، يجد حاكم المسلمين يشربه على منابر المسلمين، ويتقيأه في محرابهم[2].

٢- **فرص الانحراف الكثيرة التي توفرت للناس في ظل الخلافة المنحرفة**، والنفس بطبيعتها ميالة للشهوات، مع غياب الرادع الذي يحصّن الأمة من الانحراف، وهم الذين عناهم الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران:١٠٤).

وقد بدأت هذه النفوس الأمارة بالسوء تظهر في أيام الخلافة الأولى، في وقت مبكر، وبدأت الدنيا تنمو في قلوبهم، وأصبحت هذه الامتيازات، والمصالح، واقعاً ثابتاً، لا يرضون بتغييره، بحيث أن عبد الرحمن بن عوف، الذي جُعل حكماً في أمر تعيين الخليفة، من بين الستة أهل الشورى، يشترط على عليٍّ (عليه السلام) أن يبايعه بشرط، أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله)، وسيرة الشيخين[3].

---

(١) مسند احمد: ٤١١/٥.- تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٤.

(٢) صحيح مسلم: ٣٣١/٣/ ح٣٨.- الفتوح- ابن أعثم الكوفي: ١٢/٥.

(٣) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٩٩/٣١.

فما هي: سيرة الشيخين التي يضمّها عبد الرحمن إلى كتاب الله، وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله)؟

إنها: هذه الامتيازات الطبقيّة، وهذه الدنيا المحضة، التي وفرتها لهم الخلافة الأولى، بحيث أن عبد الرحمن[1]، هذا وأمثاله، كزيد بن ثابت[2] وغيرهم، تركوا من الذهب ما يُكسّر بالفؤوس - حسب ما ينقل التأريخ- ولم يكن أمير المؤمنين(عليه السلام)، ليوافق على هذا الشرط، فيكون منه إمضاءً، واعترافاً، بهذه السيرة؛ لأن هذه السيرة، إن كانت موافقة للكتاب والسنة، فلا داعي لذكرها، وإن كانت مخالفة، فارمِ بها عرض الجدار، فما الوجه لضمِّها إلى أصلَي التشريع.

٣- الصورة المشوهة للشريعة، التي كانت معروضة للأمة، من خلال العلماء، والرواة، المتزلفين للخلفاء، والطامعين بما في أيديهم، فكيف نتوقع من شخص لم يشاهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يطّلع على مواقف علي (عليه السلام) مباشرة، أن يوالي علياً، ويتبعه، وهو يسمع صحابيّاً يروي، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إن الآية الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

---

(١) في الطبقات الكبرى: (إنّ عبد الرحمن بن عوف تُوفّي، وكان فيما ترك ذهبٌ؛ قُطّع بالفؤوس حتى مَجِلَت - أي ثخُن جلدُها وظهر فيها ما يشبه البَثَر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة- أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأُخرجت امرأة من ثُمنها بثمانين ألفاً). الطبقات الكبرى- ابن سعد: ١٣٦/٣.- أُسد الغابة- ابن الأثير: ٤٨٠/٣.- البداية والنهاية- ابن كثير: ١٦٤/٧.

(٢) قال المسعودي: (خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال، والضياع، بقيمة مائة ألف دينار). مروج الذهب:٤٣٤/١.- الغدير- الأميني: ٢٨٤/٨.

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة:﴿٢٠٥﴾) نزلت في عليّ بن أبي طالب[1].

فلا نتوقع من أغلب المسلمين في الأرض، إلا أن يحملوا هذه الصورة المشوهة للإسلام، لأنهم لم يسمعوا غيرها، ولم يشاهدوا غيرها، فكان طبيعياً أن يعتقدوا جازمين، أن هذا هو الإسلام.

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية، أن تُغيّب الإمام الثاني عشر(عجل الله تعالى فرجه الشريف) هذه المدة الطويلة، إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور، كل ذلك لتستمر تربية الأمة مدة أطول، ولتمر بتجارب، وابتلاءات، وتمحيصات أكثر، حتى تصل إلى مستوى النضج، والكمال المطلوب، الذي يؤهلها لمواصلة مسيرة الكمال مع الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف)، بينما لو قُدّر لهذه الأمة أن تتربى في أحضان الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، لوصلت إلى درجة الكمال قبل هذا التأريخ بكثير.

النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها:

وتفرقها شيعاً، وأحزاباً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:﴿٢٣﴾)، وهذه نتيجة طبيعية، للابتعاد عن الإمامة الحقيقيّة؛ لأن سر تشريع الإمامة، هو تحصين

---

(١) (أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مئة ألف درهم حتى يضع حديثا في أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ﴿البقرة:﴿٢٠٤-٢٠٥﴾﴾، إنها نزلت في عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن الآية الثانية، نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ ﴿البقرة:﴿٢٠٧﴾﴾، فلم يقبل، فبذل له مئتيّ ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمئة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمئة ألف فقبل، وروى ذلك). شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ٧٣/٤.

الأمة، من التمزق، والانحراف، كما قالت الزهراء (عليها السلام) في خطبتها الشهيرة بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه وآله): (وَجَعَلَ إمَامَتَنَا نِظَاماً للمِلَّةِ)[1]، أي تنتظم بها أمورهم وتستقر، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) ﴿ولا تَنَازَعوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦)، وحبل الله الممّدود من السماء إلى الأرض، هما الثقلان، كتاب الله، وعترة رسوله (صلى الله عليه وآله) - كما بينتُ في شكوى القرآن[2]- مضافاً إلى أن هذا الموقع، بعد أن خرج عن مستقره، وأُبعد عنه أهله، أصبح مطمعاً لكل حالم به.

وشهوة التسلط أقوى الشهوات، وفيها استجابة للأنانية، واستكبار النفس، فمن الطبيعي أيضاً، أن تكثر الصراعات حول هذا المنصب، وتداس في خضم هذا الصراع كل القيم والأخلاق.

وتكفي وقفة تأمل، واستطلاع بسيط للتأريخ، لنقرأ بكل أسف، وألم يفتت القلوب، المآسي التي جرَّها التنازع على السلطان، والخسائر الفادحة في الأنفس، والأعراض، والأموال، التي هدرت في هذا الصراع، فمن الذي يتحمل هذه المسؤولية؟

ومن الذي فتح هذا الباب على المسلمين؟

وماذا يجني من يُحدث هذا الفتق في أمة الإسلام؟

وخير معبر عن هذه الآلام، وهذه الخسائر، أحد الأدعية الواردة في

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣١٥/٦.

(٢) أنظر: ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا﴾ ﴿الفرقان:٣٠﴾ في تفسير من نور القرآن.

لعن، أعداء آل محمد (صلى الله عليه وآله) والبراءة منهم، إلى أن يقول: (اللهُمَّ الْعَنْهُمْ بِعَدَدِ كُلِّ مُنْكَرٍ أَتَوْه، وَحَقٍّ أَخْفَوْه، وَمَنْبَرٍ عَلَوْهُ، ومُنافِقٍ وَلَّوْه، وَمُؤْمِنٍ أَرْجوه، وَوَلِيٍّ آذَوْه، وَطَرِيدٍ آوَوْه، وصادِقٍ طَرَدوه، وكافِرٍ نَصَروه، وَإِمامٍ قَهَروه، وفَرْضٍ غَيَّروه، وَأَثَرٍ أَنْكَروه، وَشَرٍّ آثَروه، وَدَمٍ أراقوه، وَخَبَرٍ بَدَّلوه، وَحُكْمٍ قَلَّبوه، وُكُفْرٍ أَبْدَعوه، وَكَذَبٍ دَلَّسوه، وَإِرْثٍ غَصَبوه، وَفَيْءٍ اقْتَطَعوه، وَسُحْتٍ أَكَلوه، وَخُمْسٍ اسْتَحَلُّوه، وَباطِلٍ أَسَّسوه، وَجَوْرٍ بَسَطوه، وظُلْمٍ نَشَروه، وَوَعْدٍ أَخْلَفوه، وَعَهْدٍ نَقَضوه، وَحَلالٍ حَرَّموه، وَحَرامٍ حَلَّلوه، وَنِفاقٍ أَسَرُّوه، وَغَدْرٍ أَضْمَروه، وَبَطْنٍ فَتَقوه، وَضِلْعٍ كَسَروه، وَصَكٍّ مَزَّقوه، وَشَمْلٍ بَدَّدُوه، وَذَلِيلٍ أَعَزوه، وَعَزِيزٍ أَذَلُّوه، وَحَقٍّ مَنَعوه، وإِمامٍ خالَفوه، اللهُمَّ الْعَنْهُما، بِكُلِّ آيَةٍ حَرَّفوها، وَفَرِيضَةٍ تَرَكوها، وَسُنَّةٍ غَيَّروها، وَأَحْكامٍ عَطَّلوها، وَأَرْحامٍ قَطَعوها، وَشَهاداتٍ كَتَموها، وَوَصِيَّةٍ ضَيَّعوها)[1].

ولو شئنا لذكرنا أمثلة، وشواهد، على كل فقرة، لكنها مما لا تخفى على المطلع على التأريخ، فأي قلب لا يذوب أسىً، على ما سببه ذلك التضييع للحق الصريح؟!

النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفاصيلها:

واقتصاره على الطقوس التعبدية، والشؤون الفردية فقط، فإن القوم وإن استطاعوا بالترغيب والترهيب أن يسلبوا السلطة الدنيوية من الإمام (عليه السلام)، إلا إنهم

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٦٠/٨٢.- المصباح- الكفعمي: ٥٥٢.

لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يسلبوا مكانته من القلوب، وهيبته في النفوس، ورجوع الناس إليه في شؤونهم الدينية.

هذا الانفصال الذي عبر عنه هارون الرشيد - كما يسمونه- لولده المأمون حينما استغرب من تكريمه للإمام الكاظم(عليه السلام) بما لا نظير له، فقال: (هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده فقلت: يا أمير المؤمنين أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟! فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) مني، ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني هذا الامر، لاخذت الذي فيه عيّناك، فان الملك عقيم)[1].

والإمام وإن سكت عن المطالبة بحقه في السلطة الدنيوية، من أجل حفظ الإسلام، وكيان المسلمين، إلا أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال التنازل لهم عن الإمامة الدينية، أو الاعتراف بهم، وإمضاؤهم كممثلين لهذه السلطة، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللإسلام، على أن هذا الحق لا يتصور التنازل عنه، فإنه ليس امتيازاً أو موقعاً حتى يتخلى عنه، بل هو علم لدنّي بالمعارف الإلهية، وما يرتبط بصلاح العباد، وقدرة وقابلية على تلبية احتياجات الأمة.

فكل من كان قادراً على ذلك ووجدت الأمة حاجتها، وآمالها، وطموحاتها عنده، أصبح إماماً، وهكذا كان علي (عليه السلام)، فما سمعنا انه احتاج إلى أحد في شيء، بل على العكس كانوا يرجعون إليه، في مسائلهم ومشاكلهم وقراراتهم،

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي: ١٣١/٤٨.

حتى اشتهر قول الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[١]، ولذا استدل بعضهم على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) باحتياج الناس إليه واستغنائه عن الناس[٢].

وهذا الفصل بين السلطتيّن ترسخ وتعمق، وانعكس على الدين نفسه، فأصبح مرتكزاً في الأذهان، أن إدارة شؤون الحياة ليس من شؤون الإمامة الدينية، وأن دورها يقتصر على العبادات وبعض الأحكام الشخصية، والتقوا بذلك مع نظرة الجاهلية، ومع مقولة: (ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)[٣]، وهذا هو الشرك بعينه، فإن الملك كله لله وحده، والحكم كله لله وحده، وما من واقعة إلا ولله فيها حكم[٤].

أترى أن الشريعة التي لم تغفل عن تنظيم أبسط التصرفات الحياتية، كالتخلي، والنوم، والاكل، والجماع، ووضعت لها أحكاماً، وآداباً، فهل تغفل عن وضع أنظمة، وقوانين، تنظم حياة المجتمع من جميع الجهات؟ وهذه حقيقة دامغة لا تقبل الشك، إلا أنهم لا يذعنون لها لعدة أمور:

١- إن الشريعة لا تنسجم مع أهوائهم، وأنانيتهم، وحبهم للاستئثار بالفيء، وسائر الامتيازات، وتتعامل مع الجميع على حد سواء.

---

(١) انساب الأشراف- البلاذري: ١٠٠.- مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٣١١/١.- الفتح الرباني- الإمام الشوكاني: ٨٠٠/٨.

(٢) نسب الاستدلال إلى الخليل الفراهيدي (رحمه الله). أنظر: الأعلام من الصحابة والتابعين- حسين الشاكري: ٦/٨. وقريب من ذلك ما رويَّ عن الحارث بن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): بأي شيء يُعرف الإمام؟ قال بالسكينة والوقار،... وتعرفه بالحلال والحرام، وبحاجة الناس إليه، ولا يحتاج إلى أحد) كتاب الغيبة- النعماني: ٢٤٧/١.

(٣) نص (إنجيل برنابا)- سيف الله أحمد فاضل: ٧٦.

(٤) أنظر: جامع أحاديث الشيعة- السيد البروجردي: ١٣٤/١.

٢- إن تحكيم الشريعة فيه إظهار لجهلهم، وقصورهم، وتقصيرهم، وهو ما تأباه نفوسهم الأمارة بالسوء.

٣- إن ذلك أيضاً، يعني احتياجهم للإمامة الدينيّة، وبالتالي يعني تفوق أولئك عليهم، واستحقاقهم لهذا الموقع بدلاً عنهم.

النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة:

لأن الأمر لم يعد في نظر المتصدين، أمر إصلاح، وهداية، وتكميل النفوس، ونيل رضا الله تبارك وتعالى، حتى تتعلق بهم الأمة، وتهفو إليهم القلوب، بل زعامة، وملك، ومصالح، واستئثار، واستعلاء، وقد عبر عنه القوم من أول يوم، وهم بعد في السقيفة فكان لسانهم: إنما السلطان سلطان قريش فلا ينازعنا فيه أحد[1]، وكانت المسألة أوضح بالنسبة للأقوام الأخرى، التي دخلت الإسلام، وقد أشعروهم بأن الخلافة ملك للعرب، فإذا كانت ملكاً عضوضاً، وهم المستفيدون منها، فما الذي يشد سائر قطاعات الأمة إليهم؟

وما الذي يحثهم على الدفاع عنهم؟ وما هي العلقة التي تربطهم بهم؟

بل على العكس، سادت روح الكراهية، والحقد، والانتقام، كما حصل لأبي لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، الذي سأم من كثرة التعيير لقومه الفرس، والاستهزاء بهم، فثار لعنصريته ولعصبيته الجاهلية[2].

---

(١) أنظر: الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٣٢٩/٢.- خلاصة عبقات الأنوار- النقوي: ٣٠٠/٣.

(٢) أنظر: البداية والنهاية- ابن كثير: ١٢٧/٧.- تاريخ الطبري- الطبري: ٢٢١/٣.

بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام):

كان علي (عليه السلام) وبنوه (عليهم السلام) قد ملكوا القلوب، فاستجاب الله تعالى بهم دعوة جدهم إبراهيم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:٣٧)، والذي لم تستطع الخلافة بكل جبروتها، أن تنتزعه منهم، وقضية هشام بن عبد الملك، واضحة في أذهانكم، عندما عجز عن الوصول إلى الحجر؛ لازدحام الناس، فتنحى إلى زاوية في البيت الحرام، وما أن قدم الإمام السجاد (عليه السلام) حتى انفرج عنه الناس سماطين، فمشى بكل وقار وهيبة، حتى وصل إلى الحجر الأسود، وهشام ينظر[1].

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) رغم تواضعه بين أصحابه، حتى كأنه أحدهم، إلا

---

(١) (أن هشام بن عبد الملك حج في بعض السنين فطاف حول البيت وحاول أن يلمس الحجر الأسود فلم يجد لذلك سبيلاً من كثرة الزحام.. وفي ما هو ينظر إلى الناس إذ أقبل الإمام زين العابدين وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً.. فانفرج له الناس عنه ووقفوا له إجلالاً وتعظيماً حتى إذا استلم الحجر وقبله والناس وُقّفٌ ينظرون إليه وكأنما على رؤوسهم الطير فلما مضى عنه عادوا إلى طوافهم، هذا وهشام بن عبد الملك ومن معه من أهل الشام يرون كل ذلك ونفس هشام يعبث فيها الحقد والحسد.، وفي هذه الحادثة قال: الفرزدق أبياته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... هذا ابن خير عادِ الله كلهمُ

والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمَ ... هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

أنظر: اختيار معرفة الرجال– الطوسي:١٢١.– الإختصاص– الشيخ المفيد:١٩١. والإرشاد: ١٥٠/٢.– المناقب– ابن شهرآشوب: ١٦٩/٤.– الأغاني– أبو الفرج الأصفهاني: ٢١٧/١٥.

أن له هيبة، عظيمة، في نفوسهم، كما وصفه ضرار بن ضمرة لمعاوية[١].

وذاب أصحابهم في حبهم، قربة إلى الله تعالى، ووفاء لجدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعرفاناً لحقهم عليهم، وتحملوا في سبيل ذلك ما تقشعر منه الأبدان، فهذا ميثم بن يحيى التمار[٢] تُقطع يداه، ورجلاه، ويُصلب على جذع نخلة، فيَطلب من الناس الاجتماع، حتى يحدثهم بفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلم يمهله الفسقة، حتى قطعوا لسانه.

وهذا حجر بن عدي، يُؤخذ مقيّداً إلى الشام، ويحفر له القبر، ويفرش له

---

(١) نقل الرواة عن ضرار بن ضمرة، أنه دخل على معاوية يوماً، (فقال له: يا ضرار صف لي علياً، فقال له: اعفني يا معاوية، فقال له: لا أعفيك، فقال له ضرار: أما إذا كان ولا بد من ذلك، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى... إلى أن قال: ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا...). بحار الأنوار- المجلسي: ٢٧٥/٣٣.

(٢) إن عبيد الله بن زياد قال لميثم التمار بعد أن قبض عليه: تبرأ من علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال له: فإن أنا لم افعل؟ قال: إذن والله لأقتلك، قال: لقد أخبرني مولاي أنك ستقتلني مع تسعة أخر على باب عمرو بن حريث، قال ابن زياد: لنخالفنه كي يظهر كذبه، قال ميثم: كيف تخالفه، فوالله ما أخبر إلا عن النبي (صلى الله عليه وآله)، عن جبرئيل، عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفتُ الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة وأنا أول خلق الله أُلجم في الإسلام، فلما رُفع على الخشبة، اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، قال عمرو: قد كان والله يقول: إني مجاورك، فأمر جاريته بكنس تحت خشبته ورشه وتجميره، فجعل ميثم يحدث بفضائل أهل البيت (عليهم السلام)، ومثالب بني أمية وما سيصيبهم من القتل والانقراض، فقيل لابن زياد قد فضحكم هذا العبد، فقال: ألجموه، فألجموه كي لا يتكلم، فجاءه في اليوم الثالث، لعين بيده حربتين، وهو يقول: أما والله لقد كنت ما علمتك إلا قوّاماً صوّاماً، ثم طعنه في خاصرته فأجافه- أي حصل جوف في خاصرته من الطعنة- ثم انبعث منخراه دماً في آخر النهار فخضب لحيته بالدماء واستشهد قبل قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق بعشرة أيام. بحار الأنوار- المجلسي: ١٢٤/٤٢.

النطع، ويُؤمر بسب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإلا فالقتل، ومعه ابنه، فيختار ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويُقدّم ابنه، ليحتسبه عند الله تبارك وتعالى، ولئلا يعظم على الابن قتل أبيه فيتراجع، ثم قُدّم فقُتل صابراً محتسباً[1].

وهذا عمار بن ياسر[2]، يقاتل في صفين على كبر سنه، ويقول: (والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل)[3].

وأصحاب الحسين (عليه السلام) - وما أدراك ما أصحاب الحسين (عليه السلام)-، الذين لم يُر لهم نظير في الولاء، والصدق، والإخلاص، والتضحية، يُقدم أحدهم على الموت، وهو مبتسم، فيقال له: ما عهدناك هازلاً قبل اليوم، قال: (والله لقد علم

---

(١) حجر بن عدي الكندي الكوفي من أصحاب أمير المؤمنين ومن الإبدال كان أميراً على بني كنده من قبل أمير المؤمنين عليه السلام في معركة صفين وكان أمير الجيش يوم النهروان، وقد استشهد حجر وجمع من أصحابه بسعاية زياد بن أبيه وبحكم معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين للهجرة.

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوذيم ابن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر، يرجع نسبه الى يعرب بن قحطان، ويكنى أبا اليقظان: تقدم إسلامه ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بمكة، وهو معدود في السابقين الأولين من المهاجرين، وممن عُذب في الله بمكة. أسلم هو وأبوه وأمه سمية، وهي أول شهيدة في الإسلام، طعنها أبو جهل بحربة في قبلها فقتلها، ومر النبي (صلى الله عليه وآله) وهم يعذبون. فقال: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة). وشهد عمار مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بدراً، وأحداً، والخندق، ومشاهده كلها، ونزل فيه آيات من القرآن. شهد عمار صفين وهو ابن تسعين سنة، وأنه يوم صفين أتى بلبن فشربه ثم قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لي: (هذه آخر شربة تشربها من الدنيا). ثم تقدم فقاتل حتى قتل "من قبل جيش معاوية بصفين وكان" مع علي بن أبي طالب سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ودفن هناك. تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي: ١٦١/١.

(٣) الاختصاص- الشيخ المفيد: ١٤.

قومي اني ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ولكن والله اني لمستبشر بما نحن لاقون والله ان بيننا وبين الحور العين الا ان يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت انهم قد مالوا علينا بأسيافهم)[1].

النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية:

بحيث احتجنا إلى أربعة عشر قرناً، لكي نصنع الطائرة، والكومبيوتر، ونغزو الفضاء، وكان يمكن لهذه الأمور، وغيرها مما لم يصل إليه العقل الإنساني إلى الآن، أن تتحقق قبل مدة طويلة؛ لأن اليد الإلهية واضحة التأثير في قيادة ركب الحضارة البشرية، بفضل ما بثه الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) من علوم، أو من خلال الإلهام والإيحاء، ولولا الرعاية الإلهية لما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أبسط الأمور، حتى دفن موتاه في التراب لا يعرفه، حتى بعث الله له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه[2].

وإن القرآن الكريم ليضم أسرار ومفاتيح العلوم كلها، فيه ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩)، فيشير إلى غزو الفضاء بالوسائل العلمية، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا

---

(١) وهو برير بن خضير الهمداني: كان زاهداً عابداً سيد القراء ومن أشراف الكوفة. أنظر: مقتل الحسين (عليه السلام)- أبو مخنف: ١١٥.- أعيان الشيعة- السيد محسن الأمين: ٥٦١/٣.

(٢) إشارة إلى قصة ابني آدم (عليه السلام)، هابيل وقابيل، وذلك عندما قتل قابيل هابيل، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة:٣٠-٣١).

تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن:٣٣)، وهو سلطان العلم، والتكنولوجيا، كل هذه الأسرار، ومفاتيح العلوم، كانت عند أمير المؤمنين (عليه السلام)[1] علّمه إياه رسول الله (صلى الله عليه وآله) (فحدثني بألف حديث يفتح كل حديث ألف حديث، حتى عرقت وعرق رسول الله (صلى الله عليه وآله))[2].

ولم يكن يحتاج إلى تطبيق معادلات، وقوانين احتمالية، أو يخوض تجارب طويلة حتى يصل الى الحقيقة، بل كانت الحقائق العلمية كلها حاضرة في ذهنه، يراها بالبصيرة، والوجدان رأي العين.

فحفر الكثير من الآبار، والعيون، وأوقفها للمسلمين في وقت كان الآخرون يعجزون عن التعرف على مواقع وجود الماء، فأين علم الجيولوجيا من هذه المعرفة الدقيقة، بطبقات الأرض، وما تحتها، من كنوز ومعادن.

وكان يقول: (لو شئت لجعلت لكم من الماء نورا ونارا)[3]، يقصد توليد الطاقة الكهربائية من شلالات الماء، وغيرها الكثير، في مختلف حقول العلم، والمعرفة.

ثم جاء أولاده (عليهم السلام) من بعده، ليبثوا ما تسمح به الحال، من علوم الكيمياء، والرياضيات، والفلك، والفيزياء، والنبات، والحيوان، وغيرها.

---

(١) وإن شئت الاطلاع على ما كان يمكن أن يقدمه، علي وبنوه (عليهم السلام) ليقدموا ركب الحضارة الإنسانية، وليوفروا لها السعادة، والحياة الطيبة، فراجع عدة كتب ألفت في هذا المجال، أنظر: مثلاً بحوث في الملل والنحل- جعفر السبحاني: ٥٢٥/٦/ الفصل الثاني عشر (دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وازدهار العلوم).

(٢) الخصال- الشيخ الصدوق: ٦٤٢.- بحار الأنوار- المجلسي: ٢٩/٢٦.

(٣) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)- الريشهري: ٣٠٢/١٠.

فإن قلتَ: إذن ما الذي حبسهم عن إعطاء هذه العلوم التي يحملونها إلى البشرية، وهي مسألة لا تتعلق بتسلمهم موقع القيادة والإمامة وعدمها؟.

قلتُ: إن التقدم المادي مرتبط تماماً بالتكامل الروحي، من خلال البناء الصحيح للعقيدة، ولا بد أن يتقدّما معاً.

وإن الأول بدون الثاني يصبح وبالاً على البشرية ويقودها نحو الدمار، كالذي نشاهده اليوم ممن يسمون أنفسهم بالقوى العظمى، والدول الكبرى، ولما كانت البشرية قد تخلفت، وتدنت في الجانب الثاني، وهو العقائدي والأخلاقي، فلا يمكن إعطاؤها من الجانب الأول، إلا بالمقدار الذي لا يكون خطراً عليها، هكذا اقتضت الإرادة الإلهية أن يلهم الإنسان بعض الأفكار، التي طورت حضارة البشر، ودلته على اكتشافات، وحقائق علمية مهمة في أوقاتها المناسبة، وبالشكل الذي يحفظ توازن المجتمع الإنساني ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، ولو كانت مستحقة للمزيد بالتزامها بخط الخلافة الإلهية، لما بخل عليها الله تبارك وتعالى بالعطاء، فلا يغتر الإنسان ويظن أنه هو الذي يحقق ذلك، بل هو من إلهام الله تبارك وتعالى وإيحائه، وللعلماء والمكتشفين كلمات تدل على ذلك، ولو خليّ إلى نفسه لما عرف كيف يتخلص من موتاه بالدفن حتى علمه الغراب –كما ذكرنا–.

لماذا نحتفل بعيد الغدير؟

هذه بعض النتائج التي أفرزها عدم التزام الأمة بحديث الغدير، وإذا كانت الأمور تُعرف بأضدادها كما قالوا، فيمكن أن نعرف سمو المعاني والآثار التي نالها الملتزمون بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، فحق لهم أن يحتفلوا بهذا العيد الأغرّ، –

أعظم عيد في الإسلام-، عن عبد الرحمن بن سالم، عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام)، هل للمسلمين عيد، غير يوم الجمعة، والأضحى، والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة، قلت، وأي عيد هو، جعلت فداك؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[1].

وفي حديث أبي نصر عن الرضا (عليه السلام) قال: (يا بن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، فان الله تبارك وتعالى يغفر لكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة، ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان، وليلة القدر، وليلة الفطر، والدرهم فيه بألف درهم لاخوانك العارفين، فأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسرَّ فيه كل مؤمن ومؤمنة، ثم قال:... والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)[2].

لنأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية:

ونحن كما تعودنا في مثل هذه الكلمات، لا نستهدف فقط تثبيت العقيدة وترسيخها والدفاع عنها، وإن كان هذا في نفسه نفيساً، إلا أنه مما لا يقل عنه أهمية أخذ الدروس، والعبر منه، وهنا تكمن روح العلم والمعرفة، فالعلم بلا عمل وبلا استفادة منه في الحياة، لا قيمة له.

ونحن إذا توسعنا في فهم هذا الموضوع، فسنطبق هذه التجربة على كل رسالة إصلاحيّة، تعمل على هداية الناس، وتكميل نفوسهم كالمرجعية الشريفة،

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٩/٤.

(٢) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي: ٢٥/٦.

وهي لها شكلان:

الأول: المرجعية الفردية، التي يُقتصر عملها على استنباط الحكم الشرعي، من دون العمل على تطبيقه، ودفع المجتمع إلى امتثاله، والأمر راجع إلى المكلف، إن شاء طبق أو لا، ولا تتدخل إلا في حدود الشؤون الفردية، وما يبرئ ذمم المكلفين، كأفراد، وهو عمل ليس بالهين، وقد قاموا بجهود مضنية، حفظت لنا فقه آل محمد (عليهم السلام)، لكن هذا الشكل خارج عن موضوعنا، لانحسار دورها عن الإمامة الاجتماعية أصلاً.

الثاني: المرجعية الاجتماعية، التي لا تكتفي بمستوى النظرية، - أي مجرد التقنين والتشريع-، وإنما تعمل على تهيئة كل الفرص، واتخاذ مختلف الأساليب؛ لإقناع الناس بتطبيق الشريعة في كل تفاصيل حياتهم، وإذا لم تنفع وسيلة جربت أخرى.

وقد شبهت الأولى بالأمّ التي تهيئ الطعام لولدها المريض وتترك الباقي عليه، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وقد لا يَعرف مصلحته فيموت جوعاً.

والثانية تشبه الأمّ التي لا تكتفي بإعداد الطعام، بل تُطيّبه وتعمل كل المرغبات، والمحفزات، لولدها كي يأكل، ويحفظ حياته، ويستعيد عافيته، ولا شك أن الثانية أرحم، وأرأف، وأكرم، وأصبر، من الأولى، أو قُل إنها أكثر اتصافاً بالأسماء الحسنى، التي ورد الحث على التخلّق بها.

المرجعية الحركية هي الأجدر:

وهذه المرجعية الثانية، هي الأكثر التصاقاً بالناس، وأعمق تأثيراً فيهم، والأكثر تعلقاً بهم، وهي الأجدر بتمثيل دور المعصومين (عليهم السلام)، فلا غرو أن تكون عرضة

لطمع المتنافسين، فإذا تصدى لها غير المؤهل لها، وصنع (سقيفة) ثانية، لإبعاد مستحقيها، ترتبت كل أو بعض الآثار التي ذكرناها، ولا بدَّ أن نستفيد من تلك التجربة، لنكون واعين، وحذرين من تكرارها.

وقد ذكرنا في محاضرتين[1]، بمناسبة عيد الغدير عام (١٤٢١هـ)، الأشكال الثلاثة، التي خطط بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخليفة من بعده، وكيفية تأسي المرجعية به (صلى الله عليه وآله) في هذا المجال، ومسؤولية الأمة في صيانة هذا الموقع الشريف، والتمسك بأهله.

فيكون هذا البحث مكملاً له، ومما ذكرنا هناك، أن لهذا الموقع شروطاً، صنفتُها إلى ثابتة ومتحركة، والأولى، هي التي دأبت على ذكرها الرسائل العملية، أما المتحركة فتتغير تبعاً للظروف الموضوعية، التي تعيشها المرجعية.

---

(١) راجع ملحق قبس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة:٦٧) في تفسير من نور القرآن، وقد طبع كمقدمة لكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء، أيضاً.

القبس/٢٤

سورة آل عمران:﴿١٤٧﴾

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾

موضوع القبس: معنى الثبات

إن مفردة الثبات، والتثبيت من القضايا التي اهتم القرآن الكريم بمعالجتها؛ لأن الإنسان يتعرض في هذه الدنيا إلى ابتلاءات كثيرة، ومزالق خطيرة، لا ينجيه منها إلا طلب التثبيت من الله تعالى، والعمل على تحصيل ذلك.

لذا كان مطلب المؤمنين في ساحات المواجهة مع الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء، والأعداء من الناس، هو ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:﴿٢٥٠﴾)، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٤٦﴾-﴿١٤٧﴾).

وكانت صفة الثبات عند مزالّ الأقدام هي من الصفات البارزة في رسول الله (صلى الله عليه وآله)، التي وصفه بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح: (وَالثَّابِتِ الْقَدَمِ عَلىٰ زَحالِيفِها[1] فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ[1])[2]، وجسّد هذا الثبات في حياته الشريفة؛

(١) الزحاليف: جمع زحلوفة وهو المكان شديد الزلق لانحداره وملسه. أنظر: لسان العرب- ابن منظور: ١٣١/٩.

حيث لم يجامل، ولم يداهن، ولم يضعف، ولم يقصّر، والشواهد على ذلك كثيرة.

وتأسى به أهل بيته (عليهم السلام)، والصالحون من أتباعه، وكان ديدنهم الثبات، والمداومة، والصبر، والمصابرة حتى آخر نفس، ولا معنى لـ«التقاعد» في حياتهم، وبهذا أمرت الأحاديث الشريفة، بحيث جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)[٣].

حاجتنا الى الثبات والاستقامة:

ونحن في هذا الزمان بأمسّ الحاجة إلى التثبيت، لكثرة الشبهات، وانتشار الضلال، والفساد، واجتماع الأعداء، وتفرّق الإخوان.

ولا يتحقق الفوز وحسن الخاتمة إلا بالثبات على الاستقامة، عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قال: (من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد، مثل شهداء بدر وأحد)[٤]، وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (والذي بعثني بالحق بشيراً، إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر)[٥].

---

(١) الزمن الأول: بحسب الظاهر، هو زمن الخلق، والإشهاد، وأخذ العهد قال تعالى: ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تُقُولُوا يَومَ القِيَامَةِ إنّا كُنَّا عَن هذا غَافِلِينَ﴾ ﴿الأعراف:١٧٢﴾.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٤٢/٨٤.- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٩٣.

(٣) الجامع الصغير- جلال الدين السيوطي: ٤٠٩/١.

(٤) كمال الدين وتمام النعمة- الشيخ الصدوق: ٣/١.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة- الشيخ الصدوق: ٣١٦/١.

ولا يُنال ذلك إلا بالألطاف الإلهية الخاصة، والعمل الجاد لتحصيلها، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل إن شاء ثبّتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً)[1]، وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[2]، ومن أدعية القرآن الكريم ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران:٨) وفي مجمع البيان: (قال: لما نزلت آية ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ (الإسراء:٧٤)، قال النبي (صلى الله عليه وآله): «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً»)[3].

فلا يجوز لنا أن نغترّ بمقدار الإيمان الذي نحن عليه، والالتزامات الظاهرية التي نؤديها، ما لم تقترن بالثبات على الإيمان، والاستقامة في موارد الامتحان، والابتلاء عندما تتعرض الأقدام للانزلاق؛ بسبب اتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، والتفرّق عن الهادين إلى الحق.

طريق الاستقامة:

وقد دلّتنا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على ما يثبّت الإيمان في قلوبنا، ويدفعنا إلى العمل الصالح؛ **وهو اتباع أمير المؤمنين** (عليه السلام)، والسير على نهجه، والتمسك بولايته، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما ثَبَّتَ الله حبَّ علي في قلب

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٤٢٥/٢.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى- الشيخ الطبرسي: ٢٣٨/٢.

(٣) تفسير مجمع البيان- الشيخ الطبرسي: ٢٧٨/٦.

مؤمن فزلَّت به قدم إلا ثبَّتَ الله قدماً يوم القيامة على الصراط)[١].

وعنه (صلى الله عليه وآله): (أثبَتُكم على الصراط أشدُّكم حباً لأهل بيتي)[٢]، وورد عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (النساء:٦٦)، عن الصادق (عليه السلام): (ولو أن أهل الخلاف فعلوا ما يوعظون به في علي (عليه السلام))[٣].

ولقد أمرنا الله تعالى بالثبات، والصمود على الدوام، ودعانا إلى تحصيل أسباب الثبات، والاستقامة على الإيمان؛ **بطاعة الله تبارك وتعالى، وطاعة رسوله** (صلى الله عليه وآله)، والصبر، وترك التنازع، والخلاف المؤدي إلى الانهيار، والفشل، والإحباط، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّه كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ اللَّه وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٥-٤٦)، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (النساء:٦٦).

كيف نحصل الاستقامة؟

ومن الوسائل الوثيقة لتحصيل الثبات هي **التقوى**، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى[٤]، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى

---

(١) كنز العمال- المتقي الهندي: ٦٢١/١١.- بحار الأنوار- المجلسي: ١٥٨/٢٧/ح٦.

(٢) ينابيع المودة- القندوزي: ٧٠/٢.

(٣) تفسير نور الثقلين- الشيخ الحويزي: ٥١٣/١.

(٤) أروضها: أذللها. والتقوى: امتثال أوامر اللَّه تعالى واجتناب ما نهى عنه.

جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ[١])[٢].

والورع عن محارم الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) وقد سُئل عما يثبت الإيمان في العبد، قال: (الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع)[٣].

ولا يثبت الإيمان، ويؤتي ثماره؛ إلا **بالعمل الصالح**، عن الإمام الصادق (عليه السلام): (الايمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الايمان إلا بعمل)[٤]، وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (مرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) برجل يغرس غرساً في حائط له، فوقف له، وقال: ألا أدُلّك على غرس أثبت أصلاً، وأسرع إيناعاً، وأطيب ثمراً، وأبقى؟ قال: بلى فدُلَّني يا رسول الله، فقال: إذا أصبحت، وأمسيت، فقل: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإن لك إن قلته بكل تسبيحة عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهة، وهن من الباقيات الصالحات)[٥].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من زهد في الدنيا، ولم يجزع من ذلها، ولم ينافس من عزها، هداه الله بغير هداية من مخلوق، وعلمه بغير تعليم، وأثبت الحكمة في صدره وأجراها على لسانه)[٦]، وفي الحديث (من زار الحسين في

---

(١) المزلق: المراد به الصراط، و من زلّت قدمه فيه هوى الى النار، نعوذ باللَّه منها.

(٢) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٧١/٣، من كتاب له (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعيَّ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٢٠/٢.

(٤) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٨/٢.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني: ٥٠٦/٢.

(٦) بحار الأنوار- المجلسي: ٦٣/٧٥.

بقيعه ثبته الله على الصراط يوم تزل فيه الأقدام)[1].

التثبيت لطف ينطلق من النفس:

إن التثبيت على الإيمان والاستقامة **لطفٌ يؤتيه الله** من يشاء من عباده، ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٧٤) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:١٠٢)، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (الأنفال:١١)، ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان:٣٢).

ولكنه مع ذلك ينطلق من داخل النفس المطمئنة؛ بالإيمان، والمحبة لله تبارك وتعالى، الذين ذكرهم في كتابه الكريم ووصفهم، بأنهم يقومون بأفعال الخير انطلاقاً من رغبتهم النفسية في التثبيت، والمداومة على الطاعة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٦٥).

فإذا صدق العبد مع ربّه، وسعى بالدعاء، والعمل للثبات على الإيمان والهدى، ثبّته الله تعالى، وآمنه، وأسعده، في الدنيا والآخرة، ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم:٢٧)، وورد في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الشيطان

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٤١/٩٧.

ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته، عن يمينه، وعن شماله، ليضلّه عما هو عليه، فيأبى الله عز وجل له ذلك)[١].

دور الاستقامة:

وهذا الخير للأمة هو ما أرادته الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتيها، فدعتهم إلى أن يأووا إلى الركن الشديد الثابت، - أمير المؤمنين (عليه السلام)- وحذَرت من مخالفته: (وَيْحَهُمْ! أَنّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ، وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ وَالدِّلالَةِ، وَمَهْبِطِ الرُّوحِ الأَمِينِ، وَالطِّبِينِ[٢] بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، أَلا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)، وقد حذّرتهم من عاقبة انقلابهم، وأنهم بذلك يؤسسون لواقع فاسد، وفتنة عظيمة، تحرق بشررها كل الأجيال اللاحقة: (أَمَا لَعَمْري لَقَدْ لَقِحَتْ فَنَظِرَةٌ رَيْثَمَا تُنْتَجُ[٤]، ثُمَّ احْتَلَبُوا طِلَاعَ الْقَعْبِ[٥] دَماً عَبِيطاً، وَزُعَافاً مُمْقِراً، هُنَالِكَ

---

(١) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق: ١٣٤/١.

(٢) الطبين: الفطن الحاذق العالم بكل شيء.

(٣) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ١٤٧/١.

(٤) تنتج: أي تلد، والنتاج: هو الوضع، أو الولادة للبهائم. لسان العرب: مادة (نتج).

(٥) القُعْب: القدح الضخم، وقيل: قدح من خشب مقعّر، وقيل: هو قدح إلى الصغر. لسان العرب: مادة (قعب)، واللوحة التشبيهية التي رسمتها الزهراء (عليها السلام)، بليغة للغاية، صورّت فيها الفتنة، وكأنها دابة ستولد بعد حين من لقاح الفتنة، ثم يكون جميع ما يجنونه، ويحتلبونه منها الدم العبيط.

يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَيَعْرِفُ التَّالُونَ غِبَّ مَا أَسَّسَ الْأَوَّلُونَ)[١].

وأنتم: أيّها الفاطميون الموالون بإحيائكم للشعائر الفاطمية خصوصاً والدينية عموماً، ونصرتكم لله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله)، وإظهار المودة لأهل البيت (عليهم السلام)، تتمسكون بحبل وثيق من التثبيت الإلهي عند المزالق في الدنيا، وعلى الصراط في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

وأي نصرة لله تعالى أعظم من نصرة أوليائه، وإظهار حقّهم، وإنصافهم من ظالميهم، فنصرة الزهراء (عليها السلام)، وإنصافها، من أعظم موارد الحديث الشريف عن رسول (صلى الله عليه وآله): (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبّت الله تعالى قدميه يوم تزل الأقدام)[٢].

وقد منّ الله تعالى عليكم، بسبب فاعل آخر للتثبيت، وهو انتظار فرج إمامنا المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والأمل بإقامة الدولة الكريمة على يديّه، روى علي بن يقطين عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (قال لي أبو الحسن (عليه السلام): الشيعة تُربّى بالأماني منذ مائتي سنة) وشرحها علي بن يقطين بقوله: (فلو قيل لنا: إن هذا الأمر لا يكون إلى مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة لقست القلوب ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرعه، وما أقربه تألّفاً لقلوب الناس، وتقريباً للفرج))[٣].

---

(١) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ١٤٨/١.

(٢) كنز العمال- المتقي الهندي: ٨٣/٣.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٦٨/١.- الغيبة- الطوسي: ٢٠٧.

ولكم أيها الثابتون على الحق في زمان الغيبة، وردت البشرى من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كتب الشيعة والسنة قال: (سيأتي قومٌ من بعدكم، الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم، قالوا: يا رسول الله نحن كنّا معك ببدر وأُحُد وحنين ونزل فينا القرآن! فقال: إنكم لو تُحمَّلون ما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم)[1].

(١) الغيبة- الطوسي: ٢٧٥.- الخرائج والجرائح- قطب الدين الراوندي: ١١٤٩/٣.- بحار الأنوار- المجلسي/ ١٣٠/٥٢.- وعن الطبراني الكبير: ٢٢٥/١٠ وسنن أبي داود: ١٢٣/٤ وابن ماجة: ١٣٣٠/٢ والترمذي: ٢٥٧/٥ وغيرها.

ملحق: إدامة الآثار المعنوية للطاعات

ينتاب المؤمن في نهاية أي مناسبة لطاعة الله تعالى زمانية كموسم الحج وشهر رمضان أو مكانية كمشاهد المعصومين (عليهم السلام) شعور بالأسى والحزن لفراقها والحرمان من استمرار تلك الفيوضات الإلهية التي تقترن بها ولنركّز حديثنا عن شهر رمضان كمثال عليها، فقد عبرّت عن هذا الحزن أدعية وداع شهر رمضان، وهذا الشعور له ما يبرّره، لأن شهر رمضان من أعظم محطات التزوّد بالتقوى والطاقة المعنوية حيث يحسُّ المؤمنون بسموٍّ وارتقاءٍ في حالتهم المعنوية وإقبالاً على الطاعات في شهر رمضان المبارك، وهذه واحدة من بركات موائد هذا الشهر في ضيافة الله تبارك وتعالى، ولا شك أن المؤمنين يتفاوتون في هذا التحصيل تبعاً لتفاوت درجاتهم وسعة آنيتهم التي يغترفون بها من عطاء الله تبارك وتعالى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧)، فبعضهم قد تنتهي عنده هذه الحالة بمجرد إنتهاء الشهر فيعود في العيد الى ما كان عليه حتى المعاصي والعياذ بالله، وبعض آخر تستمر حالته أكثر من ذلك ولكنّها تنتهي مالم يزوّدها بوقود جديد، وبعضٌ تدوم عنده وتثبت معه الى شهر رمضان المقبل كالاجسام التي تلامس النار، فبعضها يفقد الحرارة بمجرد ابعاده عنها، واخرى تحتفظ بها مدة ثم تفقدها، واخرى -كالفحم- تتحول الى جمرة متّقدة تهب النور والدفء الى الاخرين والسؤال كيف نستطيع إدامة هذه الحالة أكبر قدر ممكن بفضل الله تعالى ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم:٦٤) وما الذي يجدّد فينا الامل والرغبة لاستمرار الزخم الايماني

الذي استفدناه من هذه المحطة الشريفة.

ويمكن طرح السؤال بصياغة اخرى وهو أنه ورد في الحديث الشريف (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخرُ يوميه شرَّهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلى النقصان أقرب، ومن كان إلى النقصان أقرب فالموت خيرٌ له من الحياة) [1] ونحن نرى أن أيامنا في شهر رمضان خير من أيامنا في غيره حيث سنُحرم من موائد شهر رمضان ومن ضيافة الرحمن (أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة ودعائكم فيه مستجاب.....الخ) [2] وتلاوة آية فيه تعدل تلاوة القرآن كله في غيره ونحو ذلك فهل سيكون يومنا في شهر رمضان خيراً من غدنا في ما بعد شهر رمضان، ويكون امرنا الى النقصان ونصبح من اهل هذه الحالة المذمومة في الحديث الشريف فالأمر موجب للقلق وإيجاد الحل له.

ولرفع الشعور بالاسى والحزن لفراق شهر رمضان، ولتجديد الامل والرغبة بدوام بركاته ونفحاته، ولدفع القلق الناشئ من احتمال هبوط المعنويات نذكر عدة وجوه:

١- إن شهر رمضان إذا انقضى ورُفِعَتْ موائده وبركاته فإن رب شهر رمضان باقٍ وهو الذي منَّ على عباده بتلك العطايا والمنن، قال تعالى:﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦) فليكن تعلقنا بالخالق لا بالمخلوق وبمسبب الأسباب لا بالأسباب نفسها، وهو قادر بكرمه على أن يجعل من الكرامة في غير شهر رمضان لعمل أكثر مما يعطي في شهر رمضان المبارك فان الله تعالى اخفى رضاه في اي

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٦٦.

(٢) أمالي الصدوق: ٩٣.

طاعة من طاعاته ولا يعلمها العبد، فلعلك ترحم انسانا ضعيفاً او تزوج شاباً عفيفاً لا يجد مؤونة الزواج فيكون لك من المنزلة عند الله تعالى اكثر مما نلته من شهر رمضان، فلا يشغلنا الأسف على فوات شهر رمضان عن الأمل بكرم ربِّ شهر رمضان.

٢- إن الله تعالى الذي أوجب علينا الصوم في شهر رمضان هو الذي رفع هذا الوجوب في غيره، وعلينا ان نعبد الله تعالى من حيث هو يريد لا من حيث نحن نريد فكما نطيعه في وجوب الصوم نطيعه تعالى في عدم الوجوب، والحديث يقول (إنَّ اللهَ يُحِبُّ أن تُؤتى رُخَصُهُ - أي عدم إلزاماته- كَما يُحِبُّ أن تُؤتى عَزائِمُهُ -أي إلزاماته في الوجوب والحرمة)[١]، فهذه الإنتقالة بمشيئة الله تعالى وطاعة له، لذا فهي ليست مشمولة للحديث الشريف (ومن كان آخرُ يوميه.....)[٢].

٣- إن هذا التقلب في الحالات فيه أكثر من ثمرة مباركة فهو من جهة رحمة ورأفة من الله تعالى بالإنسان لأنه يعجز عن الاستمرار على الحالة العالية والدوام عليها حتى قيل (دوام الحال من المحال)[٣]، فهذه الإنتقالة الى الحالة الأدنى فيها تخفيف عنه وإشفاق به، في الحديث الشريف (إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفلوا وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة)[٤] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إنَّ

---

(١) بحار الأنوار : ٩٣ / ٢٩.

(٢) امالي الصدوق: ٧٧٦.

(٣) مثل عربي.

(٤) الكافي: ج٣/٤٥٤.

هذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ)[١].

والثمرة الاخرى في هذا التقلّب:هو ترسيخ عقيدة التوحيد والإيمان بأن الله تعالى هو المتصرّف بعباده والمدبّر لشؤونهم وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، هذا المعنى الذي عبّر عنه الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة بقوله (إلهي إنَّ اختلافَ تدبيرِكَ وسرعةَ طواءِ مقاديرِكَ منعا عبادَكَ العارفينَ بك عَن السُّكونِ إلى عطاءٍ واليأسِ منكَ في بلاء)[٢] وقوله (عليه السلام) وورد في نفس الدعاء (الهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرّف اليّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء)[٣].

٤- إن ثواب العمل يمكن تحصيله وإدامته بالنية، فمادام الإنسان راغبا في عمل ويحب القيام به اذا تحقّق موضوعه –كشهر رمضان- وسنحت فرصته فانه يُعطى اجر ذلك العمل وان لم يقم به وان من احبّ عمل قوم أُشرك معهم محباً لعمله فإنه يُشْرَك في أجره كما في الرواية بعد معركة الجمل لما تمنى شخص أن يكون أخوه شاهداً المعركة ليشاركهم الأجر ويفرح بانتصار امير المؤمنين (عليه السلام) فقال (عليه السلام):(أهوى أخيك معنا؟ فقال نعم، قال:فقد شَهِدَنا. ولقد شَهِدَنا في عسكرنا هذا أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف[٤] بهم الزمان

---

(١) نهج البلاغة: باب الحكم: الحكمة ١٩٤.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٣) نفس المصدر.

(٤) يرعف: يجود.

ويقوى بهم الإيمان)[١] وهذا باب واسع من كرم ربِّ العالمين لزيادة رصيد العبد من الطاعات والقربات، ويعبّر الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة عن هذه الحالة (إلهي إنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً فقد دامت محبة وعزماً)[٢] وهذا الدوام في النية هو ايضاً من لطف الله تبارك وتعالى فكأننا نقدّمه عذراً بين يدي الله تعالى على تقصيرنا في العمل.

٥- إن الله تعالى جعل بكرمه أسباباً اخرى تؤدي هذا الغرض -أي إدامة العمل- فبخصوص الصوم ورد أنه (من صام ثلاثة أيام من كل شهر، كان كمن صام الدهر، لأن الله عز وجل يقول "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها")[٣] وهي أول خميس وآخر خميس والأربعاء في الوسط، فإذا واظب عليها المؤمن كان في حالة صوم دائم ولم يفقد شيئا وهو من الأعمال التي أكّد عليها النبي (صلى الله عليه وآله) في وصيته لأمير المؤمنين والتي جاء فيها (يَا عَلِيُّ أُوصِيكَ فِي نَفْسِكَ بِخِصَالٍ فَاحْفَظْهَا عَنِّي ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَعِنْهُ) ... الى ان قال (صلى الله عليه وآله) (وَأَمَّا الصِّيَامُ فَثَلاثَةُ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ الْخَمِيسُ فِي أَوَّلِهِ وَالأَرْبَعَاءُ فِي وَسَطِهِ وَالْخَمِيسُ فِي آخِرِهِ)[٤] ومن البدائل الواردة عن الحج قول النبي (صلى الله عليه وآله) (الجمعة حج المساكين)[٥] بل ورد في صحيحه ابي بصير ويونس بن ظبّيان عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال (صلاة فريضة أفضل من

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٣) ميزان الحكمة/ ص ٤٧٤ الحديث رقم ١٠٦٦٨.

(٤) الكافي: ج٨/ ص٧٩.

(٥) بحار الأنوار: ٨٩ / ٢١٢.

عشرين حجة وحجة خيرٌ من بيت مملوء من ذهب يتصدق به حتى لا يبقى منه شيء)[1].

٦- إن للتشريعات الالهية أسراراً وعللاً وأن أوامر الله تعالى ونواهيه لم ترد عبثاً وإنما المصالح ترجع الى العباد ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سبحانك﴾ (آل عمران:١٩١) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ (المؤمنون:١١٥) فالمطلوب من هذه الأعمال ليس حركاتها الخارجية وشكلياتها فقط وإنما حقائقها، وما هذه الأفعال الخارجية الا وسيلة لتحصيل تلك الحقائق قال تعالى ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج:٣٧) فأثر الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥) فالغرض من تشريع الصوم هو تحصيل التقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣) وإنما تكتسب هذه الأعمال قيمتها بمقدار تحقق الغرض منها كما في الرواية أن (مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بُعداً)[2] ولما كان المراد من الأعمال هذه الحقائق الواقعية لها فإدامتها يكون بإدامة آثارها، أعني التقوى من الصوم فكلما كان محافظاً على الصوم كان محافظا على التقوى والاحسان في العمل فهو في ضيافة الله تعالى وينهل من موائده المباركة وإن لم يكن في شهر رمضان، وعن ادامة اثر الحج روى في الكافي

---

(١) وسائل الشيعة ٤ / ٤٠.

(٢) مجمع البيان: ٢٨٥/٨.

والتهذيب بالإسناد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلم بذنب)[1] قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨).

(١) الكافي: ٤/ ٢٥٥.

القبس/٢٥

سورة آل عمران:﴿١٥٣﴾

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمِّ﴾

موضوع القبس: كيف يكون الغم ثوابا

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾ (آل عمران:١٥٣-١٥٤).

تقع الآية في اجواء ما جرى في معركة أُحد، وما تلاها من أحداث، حيث انتصر المسلمون في بداية المعركة، ثم وقعت بهم الهزيمة حينما عصوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيما أمرهم به، من الثبات في مواقعهم، وإرجاف بعض المنافقين، بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قتل، فالتّف عليهم خالد بن الوليد، ورجاله، واوقعوا بهم خسائر فادحة.

الغم في اللغة: يعني الستر، والتغطية[1]، كما في الأحاديث الشريفة عن الهلال، (فإن غُمّ عليكم فأكملوا العدة)[2]- أي ستر عليكم ولم تروه-.

ويطلق الغم: على الكرب، والحزن، والهم[3]؛ لأنه يستولي على القلب، ويُغطي على انشراحه وانبساطه.

---

(١) أنظر: لسان العرب- ابن منظور: ٤٤٣/١٢.

(٢) صحيح البخاري – البخاري: ٢٢٩/٢.- الناصريات- الشريف المرتضى: ٢٩٢.

(٣) أنظر: الفروق اللغوية- أبو هلال العسكري: ١٨٥.- تفسير الآلوسي- الآلوسي: ٩٢/٤.

ومن هنا ينشأ السؤال، عن التعبير بقوله تعالى ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً﴾؛ لأن المرتكز في اذهاننا ان الثواب هو الجزاء الحسن، فكيف اثابهم الله تعالى بالغم؛ الذي هو الكرب والحزن، ولو تُرِك التعبير لنا لقلنا (أصابكم)، ويمكن عرض عدة وجوه للجواب؛ مع بيان المُراد من الغم الأول، والثاني:

١- ان (الثوب) لغة: يعني العود، والرجوع، كما في قولنا ثاب إلى رشده أي رجع إلى عقله وحكمته وسُمّي المنزل مثابة لأن الشخص يرجع اليه بعد أن يخرج منه الى العمل أو قضاء الحوائج أو أي شيء آخر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٢٥)؛ أي محل لتحصيل الأجر يعود على الناس[1].

فالثواب لغة: هو مطلق الرجوع بالجزاء على العمل الذي يرجع على صاحبه خيراً أو شراً.

فما ارتكز في اذهاننا من كون الثواب مختص بالجزاء الحسن غير صحيح؛ لأن الثواب هو مطلق الجزاء على الفعل بما يناسبه، حسناً كان أو سيئاً، فالعقاب ثواب أيضاً، ولكن للفعل السيء، قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:٣٦)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ﴾ (المائدة:٦٠).

فالآية - محل البحث- من هذا القبيل، وانهم يستحقون العقوبة بالغم، وغيره، لما اقترفوه من معصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيما أمر إليه من الثبات، وعدم ترك مواقعهم.

---

(١) أنظر: كتاب العين- الخليل الفراهيدي: ٢٤٦/٨.- لسان العرب- ابن منظور: ٢٤٣/١.

وهذا الجواب يزيل السؤال، والاشكال من اصله، ونُريد الآن ان نتجاوزه، ونمضي مع فهم العرف، ونقول: ان استعمال الثواب في الجزاء الحسن أكثر، وهو المعروف في الاستعمال، حتى في هذه الآية، بدليل نتيجة الغم ﴿لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ وبدليل تفريعها عما قبلها ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ (آل عمران:١٥٢).

وحينئذٍ يُمكن فهم الآية على هذا المعنى من خلال عدة اشكال، نذكرها بنفس التسلسل:

٢- إن الله أصابهم بهذا الغم كفارة لما أدخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الغم بهزيمتهم وانفضاضهم عنه، وهو يناديهم ارجعوا إليَّ، أنا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقد وُصفِت الحالة في الجزء السابق من الآية ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ﴾ (آل عمران:١٥٣).

فيكون الغم الأول: ما اصابهم هُم، والغم الثاني: ما انزلوه برسول الله (صلى الله عليه وآله)، فدفع الله تعالى عنهم العذاب العظيم المقدر لهم على فعلهم؛ الذي توّعد به الفارين من المواجهة قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:١٦)، بأن اكتفى بما أصابهم من الغم، حيث ورد في الآية السابقة عليها ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، فهذا الغم ثواب حسن؛ لأن الله تعالى دفع به عنهم عقوبة عظيمة.

٣- ان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) اغتموا لما فقدوه من الظفر بالمشركين،

وفوات الغنائم، بعد ان أحرزوا النصر على الأعداء، ولكنهم بعصيانهم لأوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله) تحوّل النصر إلى هزيمة، وهذا الغم لأجل الدنيا؛ وهو مذموم، فبدّل الله تعالى غمهم هذا بغمّ لاجل الآخرة، وتفويتهم طاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، وعصيانهم لأوامره.

فالغم الأول في الآية أخروي، والثاني دنيوي، فكان هذا الغم ثواباً؛ لأنه يُصلح شأنهم، ويصحّح مشاعرهم، وسلوكهم، ويجعل غمهم للآخرة وليس للدنيا، فهو ثواب، وجزاء حسن فعلاً.

ولعل هذا المعنى مناسب لتتمة النص ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، وقد كان هذان الفريقان موجودين في جيش النبي (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (آل عمران:١٥٢).

فهذا الغم، ابتلاء، وتمحيص من الله تعالى؛ ليميّز الفريقين، لذا جاء في بقية الآية في بيان حال الفئة التي نجحت في الامتحان، وكان الغم ثواباً لها ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران:١٥٤).

روي الترمذي والنسائي والحاكم بالإسناد عن ابي طلحة قال: (رفعت رأسي يوم أُحد وجعلت انظر وما منهم يومئذٍ أحد الا يميل تحت جحفته -وفي لفظ آخر عنه قال:- غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد فجعل سيفي يسقط من

يدي وآخذه ويسقط وآخذه)[1]، فكان هذا النعاس نعمة لذيذة هنيئة على المؤمنين الذين رجعوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بعد أن علموا بأنه حي، فكانت سبباً لطمأنينتهم، وإزالة ما كان بهم من الخوف، والرعب من عودة المشركين اليهم لاستئصالهم، اما المنافقون فكانوا في قلق، وتوجس، ولم يستطيعوا النوم، فقاموا من حيث لا يشعرون بحراسة المؤمنين النائمين.

٤- ان الغم الثاني: هو ما أصاب المسلمين في المعركة، بسبب ما لحقهم من القتل، والجرح، والغم الأول: هو ما أصاب المشركين بعد رجوعهم من أُحد، حيث تذكر الروايات، أنهم تلاموا على عدم إجهازهم على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأصحابه، وتأديب أهل المدينة، فقرّروا الرجوع، فنزل الوحي من الله تعالى على رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأمره بالخروج لملاقاة المشركين بمن كان معه في أُحد فقط، فخرج المسلمون مع ما بهم من الجراح، والخوف، والاعياء، والانهيار النفسي، ووصلوا موضعاً يسمى حمراء الأسد، انتظاراً للمشركين، لكن الله تعالى القى الرعب في قلوب المشركين، فقرّروا الرجوع إلى مكة، فشكر الله تعالى هذا الموقف من المسلمين، وأثابهم غماً، ورعباً ادخله على المشركين مقابل ما دخلهم من الغم، والرعب في معركة أُحد.

٥- ان الغم الأول: هو ما اصابهم من الحزن، والكرب، والغم الثاني: ما اصابهم في المعركة من القتل، والجرح، وفقدان الأحبّة، فأراد الله تعالى أن يُسلّيهم عن الثاني، بالأول، شفقة عليهم، ورحمة بهم، ولما حصلت التسلية، أزال

---

(١) سنن الترمذي- الترمذي: ٧٩/٥.- السنن الكبرى- النسائي: ١٠٥/١٠.- فتح القدير- الشوكاني: ٣٩٢/١.- تفسير ابن كثير-: ١٤٥/٢.- تفسير الدر المنثور- السيوطي: ٣٥٣/٢.

عنهم الغم، وابدلهم آمنةً نعاساً.

٦- أراد الله تعالى أن يبين لهم ان الحياة متصرفة باهلها، ومتقلبة من حال الى حال، فلا يطمئنوا الى عافية، ورخاء، ولا يضجروا من شدة، وبلاء، فلا يوجد في الدنيا ثبات، واستقرار، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠)، فالنصر الذي حققه المسلمون في بدر ليس من الضروري أن يتكرر في كل المعارك، فيمكن ان يتحول الى هزيمة اذا لم يتمسكوا بأسباب الانتصار، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ (آل عمران:١٤٠)، ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ﴾ (النساء:١٠٤)، فليستفد المؤمنون من التجارب، وليأخذوا العبر منها.

وعلى هذا، فالغم الأول: ما أصابهم يوم أحد، والغم الثاني: ما أصاب المشركين في بدر، وقد لُخِّصت التجربة، والعبرة من هذه الواقعة بتكملة الآية ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، وفي آية أخرى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد:٢٣).

٧- إن الغم الأول: هو ما دخلهم من الحزن، والندم على هزيمتهم في المعركة، وتفويت النصر الذي انزله الله تعالى عليهم في بدايتها، بسبب عصيانهم لأوامر القيادة النبوية المباركة، والغم الثاني: هو ما أصابهم قبل ذلك؛ من الهلع، والرعب بسبب ما اشيع من مقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلما انكشف خلاف ذلك، ابدلهم الله تعالى غماً، وكرباً، وندماً، بدل حزنهم الأول على مقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فكان غمهم بما حل بهم، كالفرح بعد ان انكشف لهم ان غمّهم السابق

بمقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان وهماً.

٨- ما ورد في كلام اهل المعرفة، ومنهم سيدنا الأستاذ الشهيد[1] الصدر الثاني (قدس سره) من ان الله تعالى يحدث في قلب السائر في طريق الكمال كُربة عند وقوعه في المعصية، ولو كانت قلبية، - أي على المستوى الأخلاقي، وليس الشرعي- لتنبيهه، والفات نظره، واعادته الى الصواب، نظير ما يُعرف بوخز الضمير، أو تأنيب الضمير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١)، فهذا الغم الذي أصابهم هو نعمة من الله تعالى لتكميل نفوسهم، وتطهير قلوبهم، ويكون معنى (غم بغم)، أي غماً بعد غم.

(١) قناديل العارفين: ٢٩٠، طبعة مؤسسة الرافد: ٢٠١٣م.

القبس/٢٦

سورة آل عمران:﴿١٥٩﴾

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾

موضوع القبس: الرحمة بالمؤمنين

من ابرز الصفات الكريمة التي سجّلها القرآن الكريم للنبي (صلى الله عليه وآله): الرحمة بالمؤمنين، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، كقوله تعالى ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:﴿١٢٨﴾)، وكان الغرض من بعثته الشريفة الرحمة بالعباد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:﴿١٠٧﴾)، وقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ (الأعراف:﴿١٥٦﴾-﴿١٥٧﴾).

ومنها، الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٥٩﴾)، وتستخلص منها عدة دروس:

دروس من الرحمة النبوية:

١- أهمية صفة الرحمة في القائد والمسؤول الذي يريد التأسي بالقيادة النبوية المباركة؛ لأنها سر نجاح القادة، والمسؤولين في حركتهم نحو نفع الأمة، ورعايتها، وهي أساس كل احسان ومعروف تقدّمه للآخرين، وإن أساس التفاف

الناس حول القائد هي الاخلاق، اما الفظ الغليظ فقد يضيّع حقه؛ لافتقاده هذه الصفة، لذا كانت من الوصايا المهمة التي وجهّها أمير المؤمنين (عليه السلام) الى مالك الاشتر لما ولاه مصر، قال (عليه السلام): (وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ، واللُّطْفَ بِهِمْ)[1]، أي ان قلبك حتى لو كان غير ممتلئ بالرحمة التي هي ضرورية لنجاح عملك، فعليك أن تتكلفها، وتدرّب قلبك عليها، وتستثيرها في باطنك حتى تصبح ملكة راسخة، فان الصفات، والملكات الحسنة يمكن تحصيلها بالتهذيب، والتدريب.

وهذه الصفة يحتاج الى استشعارها كل أحد؛ لأننا كلنا مسؤولون وإن كان بدرجات متفاوتة، ففي الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[2]، فرّب الاسرة مسؤول عن اسرته، ومدير الدائرة كذلك عن دائرته، ومثله المعلم عن طلبته، والوزير عن وزارته، والضابط عن جنوده، والمرأة عن بيتها واطفالها، وهكذا.

ولما سُئِل أحدهم من هو أحبُّ أبنائك اليك؟ لم يجب بأنه فلان، أو فلان، وانما قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود[3]، والجامع المشترك لهؤلاء هو حاجتهم الى الرحمة والشفقة أكثر من غيرهم.

---

(١) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ٨٤/٣.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٨/٧٢.- صحيح البخاري- البخاري: ١٢٥/٣.- صحيح ابن حبان- ابن حبان: ٣٤٣/١٠.

(٣) أنظر: جامع المسانيد والسنن- ابن كثير: ٧٤٣/٦.- الإصابة في تمييز الصحابة- ابن حجر العسقلاني: ٢٥٣/٥.

٢- ان هذه الصفة، وسائر خصال الخير، والكمال، لا يمكن تحصيلها بالسعي، والعمل، وحده، بل لابد من توفيق إلهـي، ولطف بالعبد، فوصفت الآية الرحمة أنها ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، عن الإمام الجواد (عليه السلام) قال: (المؤمن يحتاج الى توفيق من الله وواعظ من نفسّه وقبول ممن ينصحه)[١].

٣- ان القائد هو محور وحدة الأمة؛ إذا كان رحيماً، ليناً، شفيقاً، وهو سبب تفرقها، وتشتتها، وانقضاضها؛ إذا كان فظاً، غليظ القلب، قاسياً لا يهتم بشؤون الرعية، ولا يتواضع لهم، ولا يتفقدهم.

ولأن أهل البيت (عليهم السلام) ورثوا أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله)، وصفاته الكريمة، فقد كانوا محور اجتماع الأمة، ووحدتها، وهذا ما عبّرت عنه الصديقة الزهراء (عليها السلام) بقولها: (وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ)[٢]، فاذا وجدت امة متوحدة فاعلة، فاعلم ان رحمة الله شملتها، والعكس بالعكس، وقد نقل معروف بن فيروز الكرخي قوله: (إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرا فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل)[٣].

٤- الاجراء التربوي والاصلاحي الذي مارسه النبي (صلى الله عليه وآله) مع أصحابه، فان الآية جاءت في السياق القرآني الذي تحدّث عن ملابسات معركة أُحد[٤]،

---

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤٥٧. وورد مثله عن الإمام الصادق (عليه السلام). أنظر: المحاسن- أحمد البرقي: ٦٠٤/٢.- وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٢٥/١٢.

(٢) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ١٣٤/١.

(٣) اقتضاء العلم العمل- الخطيب البغدادي: ٧٩.- حلية الأولياء- الأصبهاني: ٣٦١/٨.

(٤) أنظر: تاريخ الطبري- الطبري: ١٨٧/٢.- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ١٤٨/٢.- شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ٢١٣/١٤.

والهزيمة التي حلّت بالمسلمين بعد الانتصار الذي تحقق اول المعركة؛ نتيجة عصيان بعضهم لأوامر رسول الله (ﷺ)، فأنهزم الجيش إلا أفراد قلائل ثبتوا حول رسول الله (ﷺ)، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (عليه السلام).

وتسببت الهزيمة في استشهاد سبعين من اجلاء الصحابة، بينهم عم رسول الله (ﷺ) حمزة بن عبد المطلب، والمتوقع من القادة في مثل هذه المواقف انزال العقوبات الصارمة بحق المنهزمين، مضافاً الى العقاب الإلهي؛ لارتكابهم جريمة (الفرار من الزحف).

لكن الله تعالى وجّه نبيه الى اجراء عكس المتوقع، وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وليس هذا فحسب، بل اعادة الثقة بأنفسهم، وإشعارهم بدورهم الفاعل في حياة الأمة، والمشاركة في قراراتها المصيرية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وفي هذا درس مهم لأولياء الأمور على جميع الأصعدة، بان يعتمدوا أسلوب العفو، والصفح، وزرع الثقة في نفس المخطئ، وقلع شعوره بالنقص، والدونّية، لينقلب تماماً على خطأه، ويعود الى الوضع الصالح السوي.

ولو تعاملنا بيننا بهذه الخصال النبوية الكريمة لشملتنا الرحمة، والالطاف الالهية، وحُلَّ الكثير من مشاكلنا بلطف الله تعالى.

القبس/٢٧

سورة آل عمران:﴿١٦٤﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾

موضوع القبس: السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكّر الأصحاب بنعمة النبي(صلى الله عليه وآله)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:﴿١٦٤﴾).

(المنّ) ما يوزن به للأثقال الكبيرة، وأشير به إلى ثقل هذه النعمة، وهي بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) بالرسالة الإلهية، والمّن من الله حسن لأنه إنعام فعلي، وكذا يحسن من الانبياء (صلوات الله عليهم اجمعين) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص:﴿٣٩﴾)؛ لان عطاءهم بغير جزاء، وإنما قبح المنّ من الناس لأنه بالقول والكلام مما يسيء للآخر ويوجب مهانته ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة:﴿٢٦٤﴾) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (والمَنّ مفسدة للصنيعة)[1].

ففي الآية تذكير مؤكّد باللام و(قد) بالمنّة العظيمة التي وهبها الله تعالى لعباده المؤمنين جميعاً من أول الإسلام إلى نهاية الدنيا لأن لفظ المؤمنين عام، ولا تختص هذه المنّة بمن كانوا على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) وإن كانوا هم المخاطبين

(١) الإرشاد: ١/ ٣٠٧، بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٢١.

لوضوح أثر هذه النعمة في حياتهم، بل لا تختص المنّة بالمؤمنين وإنما تعمّ جميع البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:١)، وإنما ذكر المؤمنون خاصة لأنهم شكروا هذه النعمة قولاً وعملاً فتنعموا بها فعلاً حينما حَرَم الآخرون أنفسهم منها بالتمرد والعصيان.

وهذه المنة العظيمة هي ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ هذا النبي العظيم بالرسالة الإلهية الخاتمة، فصفة هذا الرسول أنه يعيش في أوساطهم، يأكل الطعام مثلهم ويمشي في الطرقات معهم ويشاركهم في شؤون حياتهم، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦) ليكون مثالاً عملياً، وأسوة حسنة لهم، ولو كان من غير جنس البشر ويعيش في غير عالمهم لاستوحشوا منه وأنكروه، وما تأثروا به حيث يدَّعون أن له خصوصية كالملائكة مثلاً.

كما أنه ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وليس فقط منهم ومثلهم في طبيعته البشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف:١١٠) فصِلته بكم وثيقة وارتباطه النفسي بكم عميق، وفي ذلك تحفيز للمؤمنين أن يطيعوه ويعملوا بشريعته أكثر حتى تتعمق هذه الصلة النفسية به (صلى الله عليه وآله).

وذكرت الآية الكريمة مظاهر هذه المنّة العظيمة، فهو (صلى الله عليه وآله) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ التي تنزل من ربه، فهو واسطة الوحي الإلهي والفيض الرباني بين الناس وخالقهم ويوصل إليهم رسائله تعالى متتابعة حسبما تصل إليه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّر قلوبهم من الامراض المعنوية كالغلّ والحقد والانتقام ويهذّب نفوسهم من رذائل الشهوة والغضب والحرص والاستكانة والعبودية،

ويحسِّن أخلاقهم بالعلاجات الروحية التي يفيضها الله تعالى عليه فهو (طبيب دوار بطبه)[1] كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يشرح لهم هذا القرآن العظيم المنزل ويفسّر آياته ويبين أسراره بالسنة الشريفة، فالحكمة إما من باب ذكر الخاص بعد العام لأن من صفات الكتاب أنه حكيم، أو أنها السنة مقابل الكتاب، حيث يفتح لهم من كنوز العلوم والمعارف ما فيه سعادتهم وهدايتهم واستقامتهم وحمايتهم من الضلال والانحراف، وصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٥) ﴿الرَحمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن:٢).

﴿وإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ فقد كانوا قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) في جاهلية ظلماء، تفتك بهم الحماقات والأهواء والخرافات والحروب والصراعات، وهذا الفرق بين حال الضلال المبين الذي كانوا عليه وحالهم في الإسلام من الوحدة والتآلف والسمو والسعادة واضح لمن قارن بين الوضعين.

ووقوع هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن القرح الذي أصاب المؤمنين في أُحُد فقتل من قتل وجرح من جرح، وما أعقبه من الهزيمة النفسية والشكوك التي سرت إلى عقيدتهم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٦٥-١٦٦) فيه تخفيف على المسلمين وتسلية عن مصائبهم، بأنهم مهما أصيبوا في أموالهم

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٧، الخطبة (١٠٨).

وأنفسهم وسائر أحوالهم الدنيوية فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا ويتساموا على الجراح والمصائب بالتفاتهم إلى هذه النعمة العظيمة التي حباهم الله تعالى بها فتهون عليهم مصائبهم.

هذه النعمة وهي الإسلام وكمالها وتمامها ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بحسب آية التبليغ في سورة المائدة وقوله تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1] (لقمان:٢٠)، يلفت الإمام الصادق (عليه السلام) إليها نظر أحد المعدمين ليخفّف عنه شعوره بالحرمان، روى الشيخ الطوسي (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه الأمالي بسنده عن الإمام الهادي (عليه السلام) عن آبائه عن موسى بن جعفر (صلوات الله عليهم أجمعين) قال (إن رجلاً جاء إلى سيدنا الصادق (عليه السلام) فشكا إليه الفقر، فقال (عليه السلام): ليس الأمر كما ذكرت وما أعرفك فقيراً. قال - الفقير ظناً منه أن الإمام (عليه السلام) يكذّبه في ما ادعى من الفقر-: والله يا سيدي ما استبنتَ - أي ما حقّقتَ في حالي وما استوضحتها لتتأكد من صدق كوني فقيراً- وذكر من الفقر قطعة والصادق (عليه السلام) يكذّبه،... إلى أن قال (عليه السلام) له: خبّرني لو أعطيت بالبراءة منّا مائة دينار - والدينار يساوي مثقالاً من الذهب - كنت تأخذ؟ - أي تتبرأ من الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام) بهذا الثمن - قال: لا - وبدأ الإمام يزيد المبلغ - إلى أن ذكر الإمام (عليه السلام) ألوف الدنانير والرجل يحلف أنه لا يفعل، فقال (عليه السلام) له: مَن معه سلعة يعطى بها هذا المال وهو لا يبيعها هل هو فقير؟)[2].

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضُحى:١١) في تفسير من نور القرآن.

(٢) الأمالي، للشيخ الطوسي: ٢٩٨، المجلس (١١)، ح٥٨٤.

لقد كان النبي (ﷺ) سبباً لإفاضة نعم عظيمة على البشرية لا تعدّ ولا تحصى:

١- به (ﷺ) هدانا الله للإيمان والتوحيد وأخرجنا من ظلمات الكفر والإلحاد وظلم الشرك وذلّ عبادة الآلهة المزيفة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة:٢٥٧) ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١٧) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ (النور:٢١) ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى:٥٢-٥٣).

٢- علّمنا (ﷺ) الشريعة السمحاء التي تكفل كرامة الإنسان وسعادته وتضمن العدالة الاجتماعية لكل الناس ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:٧) ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)، وكلما ابتعد الناس عن القانون الإلهي ووضعوا لأنفسهم قوانين وقعوا في التيه والتخبّط والانحطاط وجرّوا الويلات على البشرية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤).

٣- إنه وحّد الأمة وألّف بين قلوبهم بعد أن كانت الفرقة والتشتت والتنازع والتخاصم يفتك بهم ويفنيهم ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ

مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣) ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣).

٤- إنه (ﷺ) خلّف لنا الثقلين كتاب الله وعترته أهل بيته المعصومين المطهرين (سلام الله عليهم) ليواصلوا أداء رسالته الإلهية حتى تترسخ في عقول وقلوب ونفوس الناس؛ لأن عمر النبي (ﷺ) القصير وعدم الاستعداد الكافي للأمة حتى تتكامل بسرعة لم يسمحا بحصول التحول الكامل.

٥- اقتلع من المجتمع الأغلال الفكريّة والانحرافات العقائدية والتقاليد الاجتماعية البالية التي كانت تكبّل عقول الناس وتعيق تكامل المجتمع وتوجّه سلوكه نحو الدمار والفناء كالعصبية والجهل والتخلف والانتقام والظلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

٦- هذّب النفوس بالأخلاق الفاضلة وطهر القلوب من الرذائل والأمراض المعنوية التي كانت تجلب الشقاء والنكد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧)، وضرب لهم مثلاً أعلى في الأخلاق الحميدة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم:٤) وأسوة حسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١) قال (صلى الله عليه وآله): (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1].

٧- إنه (صلى الله عليه وآله) الرحمة الواسعة المهداة إلى جميع المخلوقات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

٨- أكرمه الله تعالى بالشفاعة في أمته وهي من بركات المقام المحمود الذي وعده ليساعد الذين خلطوا أعمالهم الصالحة بأخرى سيئة حتى تُغفر لهم فيدخلون الجنة بلا منغصّات ولا عوائق؛ روى الشيخ الطوسي في أماليه عن أنس بن مالك قال: (رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوماً مقبلاً على علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو يتلو هذه الآية ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ (الإسراء:٧٩) فقال: يا علي إن ربي عز وجل ملّكني الشفاعة في أهل التوحيد من أمتي وحظر ذلك على مَن ناصبك أو ناصب ولدك من بعدك)[2].

٩- ما ورد عنه (صلى الله عليه وآله) في تفسير قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥) أنه (صلى الله عليه وآله) قال: (حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ فقال (صلى الله عليه وآله): أما حياتي فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣) وأما مفارقتي إياكم فإن أعمالكم تعرض عليَّ كل يوم فما كان من حسن استزدت الله

---

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ١٦/٣/ ح٥٢١٧.

(٢) أمالي الطوسي: ٢/ ٧٠، البرهان في تفسير القرآن: ٦/ ٨٦.

لكم، وما كان من قبيح استغفرت الله لكم، قالوا: وقد رممت يا رسول الله؟ يعنون صرت رميماً فقال: كلا إن الله تبارك وتعالى حرّم لحومنا على الأرض أن تطعم منها شيئاً)[1].

١٠-أنه سبب لمغفرة الذنب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء:٦٤).

لقد ذكّرت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أصحاب أبيها بهذه المنّة العظيمة واحتجّت بها عليهم لتحثّهم على الالتزام بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي بلّغها عن الله تعالى في أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)، ولكي يفوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بأجر رسالته في أهل بيته ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) فقالت (عليها السلام) بعد أن وصفت أحوالهم في الجاهلية: (فأنار الله بأبي محمد (صلى الله عليه وآله) ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بُهَمها، وجلّى عن الأبصار غُمَمها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم)[2].

وقالت (عليها السلام): (وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (صلى الله عليه وآله) بعد اللتيا

---

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ١٩١/١.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٧.

والتي)[1].

لكن القوم صمّوا أسماعهم عن نداء الحق ومضوا إلى تنفيذ إرادة شياطين الجن والإنس وزعيمهم يقول بنصّ العبارة: (اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت)[2] متحدياً قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص:٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المتبّعين للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله).

---

(١) الاحتجاج: ١/ ١٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٨/ ٤٠٨، عن تأريخ الطبري وغيره.

القبس/٢٨

سورة آل عمران: ﴿١٧٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

موضوع القبس: الاستمرار بالعمل الرسالي رغم الجراح

نزلت هذه الآيات من سورة آل عمران في واقعة حصلت في زمن النبي (صلى الله عليه وآله)، - تُسمى حمراء الأسد-، بعد معركة أُحُد[1] بيوم، أو أكثر، وهي غزوة لا يعرف تفاصيلها إلاّ من ندر، وفيها درس ينطبق على الوفد الزائر، وعلى واقعنا المعاصر، وهو من دروس واقعة أُحُد وتداعياتها.

وقد تضمنت سورة آل عمران في القرآن الكريم دروساً، ومواقف، وعبر، من معركة (أُحُد) التي تآمر فيها بعض المسلمين المتواطئين مع قريش على أن يُشيعوا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قُتل؛ ليربكوا جيش المسلمين، ويفرقوهم، وعصى بعض المسلمين أوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وركنوا إلى الدنيا، فتحوّل النصر الذي تحقق على يد أمير المؤمنين (عليه السلام) في بداية المعركة إلى هزيمة للمسلمين، باستشهاد سبعين رجلاً على رأسهم حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) عم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعاد المشركون مُتجهين إلى مكة، لكنّهم تلاوموا في الطريق بأنّهم لم يقضوا على النبي (صلى الله عليه وآله)، ولا سيطروا على المدينة؛ لاستئصال الدين الجديد، فقرروا العودة

(١) وقعت معركة أُحُد يوم: ١٥/شوال، من السنة الثالثة من الهجرة. أنظر: الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٤٨/٢.-تفسير الطبري- الطبري: ٢٤٢/٦.

باتجاه المدينة.

فنزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخبره بعزم قريش، وأن تكليفه الخروج بمن معه لمواجهتهم، وإراءتهم أن ما حلّ بهم يوم أُحُد لم يُضعف عزيمتهم، ولم يُقلّل من قوّتهم، واشترط أن لا يخرج معه إلاّ من شهد أُحداً، وكانوا مثخنين بالجراح مفجوعين بأحبتهم ومهزومين معنوياً، فاستجابوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وخرجوا معه لملاقاة قريش -المزهوة بالانتصار- التي تفوقهم عدّةً وعدداً، وأعطى أبو سفيان أموالاً لبعض القوافل المتجهة إلى يثرب ليخوِّف المسلمين، ويرعبهم، وأنّ قريش قد جمعت لكم الجموع، لكنّهم أصرّوا على المضي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).

روى زيد بن ثابت عن أبي السائب (ان رجلاً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بني عبد الأشهل، قال: شهدتُ أُحُداً مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالخروج في طلب العدو قلت لأخي، -أو قال لي-: تفوتنا غزوة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ ووالله ما لنا من دابة نركبها، وما منّا الا جريح فخرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غُلِب حملتُه عقبة، ومشى عقبة، حتى إذا انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله)، حتى انتهى إلى حمراء الأسد -وهي من المدينة على ثمانية

أميال- فأقام بها ثلاثاً؛ الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة)[1]؛ لأن أبا سفيان لما علم بخروج النبي (صلى الله عليه وآله)، وأصحابه الموتورين في أُحُد، خشي أن يقابلهم، وهم قادمون للانتقام من قريش.

مضافاً إلى شخصٍ -ممن أسلم حديثاً- لم يعرف أبو سفيان بإسلامه، توجّه إلى أبي سفيان وحذّره من ملاقاة المسلمين؛ لأنهم خرجوا عن بكرة أبيهم لينتقموا من قريش.

وتسمى هذه الغزوة (حمراء الأسد) باسم الموضع الذي مكث فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) منتظراً قدوم قريش.

الدروس المستفادة من هذه الواقعة:

وإنما ذكرتُ مُلخص الواقعة؛ لأن القليل ممن يعرفها، ولا شك أن معرفتها توفّر بيئة لفهم الآيات المتعلقة بها ليستطيع تدبّرها، وأخذ الدرس منها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وهم من شاركوا في أُحُد وأصيبوا، لكنهم استجابوا لدعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وخرجوا معه ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، وهو القتل، والجرح، والآلام في معركة أُحُد، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، فالقبول لا يكون إلا من الذين اتقوا، والذين هم محسنون، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ -وهم المنافقون، وبعض المهاجرين؛ الذين يحتفظون بولائهم لقريش، مضافاً الى من بعثهم أبو سفيان لإرعاب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)- إِنَّ

(١) سيرة ابن هشام- ابن هشام: ١٠١/٢.- أسد الغابة- ابن الأثير: ٣٤٩/٥.- البداية والنهاية- ابن كثير: ٤٥٥/٥.

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ - وهم قريش- فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:﴿١٧٣﴾)، وكان هذا دليل نجاحهم في الاختبار، وصحة إيمانهم ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ (آل عمران:﴿١٧٤﴾)، وهو الأجر العظيم الذي ذُكر آنفاً، وانتصارهم على الخوف الذي زرعه فيهم الشيطان، وأولياؤه، وفي تحوّل هزيمتهم إلى نصر، - حيث راحوا يُلاحقون قريشاً- وفي تحوّل نصر قريش إلى هزيمة، - حيث جبنوا عن لقاء النبي وأصحابه- وآثروا الرجوع إلى ديارهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ- إذ دفع الله تعالى عنهم قريش ولم يحصل قتال- وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:﴿١٧٤﴾).

لكي لا نشعر بالإحباط:

إنّنا في العراق نصاب يومياً بالجروح، والقروح، حتى إنه لم يبق مكان آمن من التفجيرات، والاستهدافات، فما أحوجنا إلى استلهام هذا الدرس، والاستفادة منه؛ بأن لا نشعر بالإحباط، واليأس مما يحلُ بنا، بل نُلمّلم جراحنا، ونتقدم في العمل حتى نحصل على ما ذكرته الآية الشريفة، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ (آل عمران:﴿١٧٤﴾).

فإن هذا هو ما نبحث عنه ونريده، وهو هدفنا، ولا نُريد شيئاً مما يُريده أهل الدنيا، حتى إذا فاتنا ينتهي كل شيء.

وإذا تخلينا عن أهدافا، وهويتنا، بسبب هذه الأعمال الوحشية، فقد أعطينا للعدو مراده.

فالرد الصحيح هو بالمضي في العمل الرسالي - الذي يرضي الله (عز وجل)- ورفع

الهمّة، والعزيمة في التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

بقيّة السيف أبقى عددا:

وممن تجري فيهم الآية مصّلو جامع الرحمن في منطقة سبع البور شمال بغداد، حيث استهدفهم تفجير انتحاري مجرم[1]، أثناء إقامة صلاة العشاءين، فَاستُشهد خمسة عشرَ مُصلّياً، بينهم إمام المسجد، وأخواه وجرح خمسةٌ وعشرونَ مُصلّياً، وقد استقبلت عدداً مِمَّن أُصيبوا في الحادث، وقد أشاروا في حديثهم إلى أنّ عدد المُصلّين ازداد بعد هذا الحادث المروِّع، كما ازداد عدد السيارات التي تتوجه أسبوعيّاً من المنطقة؛ لزيارة الإمامين العسكريين(عليهما السلام)، ورفع الغربة عن روضتهما المطهرة في سامراء.

والمثال الآخر لهذه المواقف الربانية؛ ما حصل في حسينية حبيب بن مظاهر – القريبة من جامعة الإمام الصادق (عليه السلام) في حي القاهرة ببغداد– وكان يرتادها جمع من طلبة الجامعة؛ لأداء صلاة الظهرين، ويطالعون دروسهم استعداداً للامتحانات، فامتدت يد الحقد، والحسد، والتكفير إلى هذه الفئة الصالحة، وفجّر انتحاري نفسه وسط الجمع ثم تلاه آخر[2]، وكانت حصيلة التفجيرين، واحد وثلاثون شهيداً، وسبعة وخمسون جريحاً، والذي حصل بعد الحادث زيادة المصلين في الحسينية من الطلبة الجامعيين، وأبناء المنطقة، وتصدي أحد الفضلاء لإمامة الجماعة فيها.

---

(١) وقع الحادث يوم السبت: ١٢/شعبان/١٤٣٤هـ– المصادف: ٢٠١٣/٦/٢٢م. وقد أصدر سماحة المرجع (دام ظله) بياناً في ذلك، أنظره في خطاب المرحلة: ٣٠٧/٨.

(٢) وقع الحادث يوم الثلاثاء: ٨/شعبان/١٤٣٤هـ– المصادف: ٢٠١٣/٦/١٨م.

إن هاتين الجماعتين خير مثال لقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولدا)[1]، لأنها استجابت لله (سبحانه وتعالى)، ولرسوله (صلى الله عليه وآله)، بعد أن أصابهم القرح، وقد وعد الله تعالى بأنهم يعودون بنعمة من الله (سبحانه وتعالى)، وفضل، أسوة بأصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) الذين خرجوا معه إلى (حمراء الأسد).

وقائع القرآن دروس للتربية والهداية:

إن الوقائع التي يحكيها القرآن الكريم ليست حوادث تاريخية، وقصصاً تذكر للتسلية، والاطلاع، بل هي دروس حيّة، ورسالة هداية، وإصلاح، وثبات على صراط الحق لجميع الأجيال حتى يوم القيامة، ومنها هذه الآيات من سورة آل عمران، التي لم تكن مفهومة بهذا الشكل، قبل أن نتعرف على بيئتها، وظروفها، وعرفنا الآن إنها دعوة للثبات، والاستمرار في الاستجابة لله ولرسوله في بناء النفس، وإصلاح المجتمع، ورفع المعنويات غير متأثرين بالمصائب، والآلام.

---

(١) نهج البلاغة- خطب الإمام علي (عليه السلام): ١٩/٤.

القبس/٢٩

سورة آل عمران:﴿١٩١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾

موضوع القبس: ذكر الله تعالى عند الطاعة والمعصية

كانت صلاة الليل واجبة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) دون الأمة جميعاً، وهذه واحدة من خصوصياته وقد ورد في صحيحة معاوية بن وهب[1] عن الإمام الصادق (عليه السلام) في كيفية صلاته (صلى الله عليه وآله) في الليل بأنه كان يفرّقها على أجزاء الليل؛ ليديم حالة الأنس بربّه، فيقوم في بعض الليل من نومه، ثم يصلي اربع ركعات ثم ينام ويستيقظ من جديد، ويصلي اربعاً أخرى، ثم ينام ويستيقظ؛ ليصلي الشفع، والوتر ونافلة الصبح، ثم يخرج لصلاة الفريضة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء:٧٩).

ومحل الشاهد انه (صلى الله عليه وآله)، كان كلما يستيقظ من نومه، كان يُقلّب بصره في السماء، ويتلو الآيات المباركات في آخر سورة آل عمران، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ

---

(١) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي:٢/٣٣٤/ح٢٣٣.

(٢) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء:٧٩) في تفسير من نور القرآن.

يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هَـذَا بَـاطِلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ﴾ (آل عمران:١٩١-١٩٠)، فأول صفة من صفات اولي الألباب لمن أراد أن يكون منهم، هو ذكر الله تعالى على كل حال؛ لأن الانسان لا يخلو حاله من كونه قائماً، أو قاعداً، أو على جنبه.

إن ذكـر الله تعـالى علـى كـل حـال، واستحضـار الرقابـة الإلهيـة، والشـعور بالمسؤولية امامه سبحانه، حالة مطلوبة، سواء كـان الانسـان فـي ظـرف معصـية، أو طاعة.

اما في ظرف المعصية: فالأمر واضح؛ لكـي يخشـى الله تعـالى، ويسـتحي مـن نظره إليه فيجتنبها، فإن الغفلة عن الله تعالى سبب للوقـوع فـي المعاصـي، والتـذكر صمام الأمان منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـائِفٌ مِّـنَ الشَّـيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

مثلاً يكون في مجلس، فيتورط الحاضرون بغيبة مؤمن، فيتذكر نهي الله تعالى عن الغيبة، فيمتنع عن المشـاركة معهـم، وينهـاهم عـن ذلـك، وقـد يكـون العـلاج بمغادرة المجلس، أو شاب يتعرض لإغواء من الجنس الآخر، فيتذكر ان الله تعالى مطّلع عليه، وإن الشاهد هو الحكم، فيكف عن الانسياق وراء شهوته، وهكذا.

وكان المعصومون (عليهم السلام) دقيقين في مـراقبتهم لأنفسـهم، وإستحضـار الرقابـة الإلهية، روى إبراهيم بن علي، عن أبيه قال: (حججت مع علي بـن الحسـين (عليهما السلام) فالتاثت - أي تباطأت- عليه الناقة في سيرها، فأشار إليها بالقضـيب ثـم قـال: «آه!

لولا القصاص» ورد يده عنها)[١]، وفي رواية (لو لا خوف القصاص لفعلتُ).

واما في ظرف الطاعة، فان الانسان التّواق إلى الكمال اذا عرضت عليه فرصة الطاعة فأنه يذكر الله تعالى، وحثه على المسارعة إلى الخير، فيلبي دعوة الله تعالى، ويبادر إليها، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٨)، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣)، وفي الرواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) (من همَّ بشيء من الخير فليعجّله، فان كل شيء فيه تأخير فان للشيطان فيه نظرة)[٢]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (كان أبي يقول: اذا هممت بخير فبادر، فانك لا تدري ما يحدث)[٣].

والتجربة شاهدة على ذلك، فقد يتعرض الانسان لموقف إنساني، كمساعدة محتاج، أو معالجة مريض، ويعزم على المساهمة بمبلغ مُعيّن -يفي بالحاجة- فاذا تأخر في إخراجه، فان الشيطان يوسوس له، بان هذا المبلغ كبير، وعليه ان يوفره لعياله، وانه لا يدع غيره يساهم في المساعدة، ونحو ذلك، حتى يثنيه عن عزمه، او يقلل مما قرّر سابقاً دفعه.

والأمر الآخر الذي عليه ان يتذكره عند الاقدام على الطاعة، هو اخلاص النية في العمل: فلا يُقدم عليه الا بعد أن يُنقي نيته من الرياء، وحب السمعة، ويختبر نفسه، بانه لو لم يعلم احد بما فعل فهل سيتوقف عن العمل، أم يتساوى عنده علم

---

(١) الإرشاد- الشيخ المفيد: ١٤٤/٢.- مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٢٩٤/٣.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٣/٢/ح٩.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ١٤٢/٢/ح٣.

الناس وعدم علمهم؛ لأن الله تعالى مُطّلِع على الحقائق وهذا كافٍ.

وعليه أن يُطهر نفسه من العجب بنفسه، والتباهي بما فعل؛ لأنه يفسد العمل، وكذا عليه أن لا يحبط عمله بالمّن على من اسدى إليه المعروف وقال تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة:٢٦٤).

وعليه أن يتثبت من فعله، بأنه برٌّ في موقعه، لكيلا يضيع معروفه، أو يؤدي إلى عكس النتيجة، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (مع التثبت تكون السلامة)[1]، وتجد النبي (صلى الله عليه وآله) فرح كثيراً بدعاء سفانة بنت حاتم الطائي له (صلى الله عليه وآله)، عندما عفى عنها، ثم أطلق جميع اسرى قبيلتها طيء حين قالت: (أصاب الله ببرك مواقعه)[2].

(١) الخصال- الشيخ الصدوق:١٠٠.

(٢) أنظر: المستطرف- شهاب الدين الأبشيهي: ١٧٩.- شجرة طوبى- الشيخ محمد مهدي الحائري: ٤٠٠/٢.

القبس/٣٠

سورة آل عمران:﴿١٩١﴾

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾

موضوع القبس: رفض العبثية في الحياة[1]

درس بليغ من النبي (صلى الله عليه وآله):

نحن في جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وفي ضيافته، ونحب أن نقف عند محطة من حياته الشريفة (صلى الله عليه وآله)، ففي الرواية إنه (صلى الله عليه وآله) كان إذا استيقظ من نومه[2] في جوف الليل قلّب طرفه في السماء متأملاً، ويقرأ الآيات الكريمة العشر في أواخر سورة آل عمران، وهو يبكي ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

---

(١) كلمة ألقاها سماحة الشيخ (دام ظله) في المدينة المنورة، في موسم الحج: ١٤٣١هـ، وكان ذلك يوم الثلاثاء: ٢٤/ذو القعدة هـ- الموافق: ٢٠١٠/١١/٢م.

(٢) سنن أبي داود- ابن الأشعث السجستاني: ٢٢/١/ح٥٨.- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد- صهيب عبد الجبار: ٢٢٨/١٨.

(سورة آل عمران:﴿١٩٠﴾-﴿١٩٤﴾)

خلقنا للمعرفة:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَذا بَاطِلاً سُبحَانَكَ﴾ أيها الأحبة:

نحن لم نُخلق في هذه الدنيا عبثاً، وبلا غرض، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:﴿١٦﴾-﴿١٧﴾)، فلا بد أن نلتفت إلى هذا الغرض الذي خلقنا من أجله، ليكون ماثلاً امامنا دوماً، ولنكرّس حياتنا من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:﴿٥٦﴾).

وورد في تفسير الآية، عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (خرج الحسين بن علي (عليهما السلام) على أصحابه فقال: أيها الناس إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه)[1]، ومما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة (إِلهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلافِ الاثارِ، وَتَنَقُّلاتِ الأطْوارِ، أَنَّ مُرادَكَ مِنّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ لا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ)[2].

فالغرض من وجودنا هو التعرف إلى الله تبارك وتعالى، وعبادته بحقيقة العبادة، بأن يكون الله تبارك وتعالى كقطب الرحى الذي ندور حوله، وإلى هذا المعنى يُشير الطواف بالكعبة، وأن يكون تبارك وتعالى محور حياتنا في كل

---

(١) علل الشرائع- الشيخ الصدوق: ٩/١/ح١.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٢٥/٩٥.- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ٣٤٠.

حركاتنا، وكل سكناتنا، ومشاعرنا، وعواطفنا، ومواقفنا التي نتخذها في حياتنا.

المعرفة غير التصومع:

وهذا لا يعني أن نترهب، ونعتزل الدنيا في الصوامع والكهوف، بل بالعكس، فإن هذا الهدف يدفعك إلى أن تخوض الحياة بكل تفاصيلها، وتمارسها بشكل طبيعي؛ لتؤدي رسالتك، ولكن عليك أن توظف كل ممارساتك لهذا الهدف، لقد كان الأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، عباداً مخلصين لله تبارك وتعالى، ومعصومين عن الالتفات إلى غيره، ومع ذلك فقد كانوا يمارسون حياتهم الطبيعية كأي إنسان، فلا منافاة.

فالعمل، والكسب يمكن أن يجعله الإنسان لاكتناز الأموال، وزيادة أرصدته في البنوك للمباهاة، والتفاخر، ولايخرج حقوقه الشرعية، فيكون وبالاً عليه، ويمكن أن يجعله للتعفف مما في أيدي الناس، وللإنفاق في وجوه البر والإحسان، ومساعدة المحتاجين، والحج، والزيارة، وتزويج المؤمنين، ودعم المؤسسات الخيرية، فينال رضا الله تبارك وتعالى، ويحقق الهدف.

والأكل مثلاً يمكن أن يجعله لحفظ البدن الذي هو واجب، وللتقوي على العبادة، ونحوها من الأهداف الصحيحة.

والزواج الذي فيه إشباع للشهوة، والغريزة يمكن وضعه في هذا السياق، بأن يجعل غرضه إقامة سنة الله تبارك وتعالى، وصيانة النفس، والزوجة من الحرام، وإدخال السرور على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأمير المؤمنين (عليه السلام)، وتكثير نسمات الموحّدين، وبناء أسرة صالحة، وإدخال السرور على امرأة مؤمنة، ونحوها من النيات المباركة.

وهذا إنما يتحقق حينما يكون الإنسان دائم الذكر لربه، مستحضراً وجوده المقدس، والإنسان غير المعصوم لا يكون كذلك على الدوام، ولكن ليجعله هدفه الذي يسعى لتحقيقه، ولو أدركته غفلة، أو انساق وراء شهوة، فليعد فور تذكره إلى ربّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

أوثق العرى:

نحن أتباع أهل البيت (عليهم السلام)، متمسكون بأوثق العُرى الموصلة لمعرفة الله تبارك وتعالى الدالة على عبادته، وأعظم الوسائل لنيل رضاه، والضامن الأكيد لسلامة المسير إلى الله تبارك وتعالى، والصائنة من الانحراف عن الصراط المستقيم، ففي تتمة رواية علل الشرائع المتقدمة (فقال له رجل: يا ابن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته)[1].

لأن من لا يعرف إمام زمانه، ولا يأخذ عنه فإنه لا يعرف الله حق معرفته، ومن يعتقد أن ربه يتركه بلا إمام يهديه فقد ضل سواء السبيل، وقد ورد في الدعاء، كما في رواية الكافي، عن أحمد بن هلال، عن زرارة بن أعين قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): ادع الله بهذا الدعاء: « اللهمَّ عرَّفني نفسَك، فإنَّك إن لم تُعرِّفْني نفسَك لم أعرف نبيَّك، اللهمَّ عرِّفْني رسولَك، فإنَّك إنْ لم تُعرِّفْني رسولَك لم أعرفْ حجَّتَك، اللهمَّ عرِّفْني حجَّتَك، فإنَّك إنْ لم تُعرِّفْني حجَّتَك ضللتُ عن ديني» قال

(١) علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ٩/١/ح١.

أحمد بن الهلال: سمعت هذا الحديث منذ ست وخمسين سنة)[1].

وابتغوا إليه الوسيلة:

قد أمر الله تبارك وتعالى باتخاذ هذه الوسيلة لنيل رضاه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّه وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة:٣٥)، وهي ولاية أهل البيت (عليهم السلام)، ومودّتهم، كما دلت عليه الروايات، ويمكن استفادة هذا المعنى من القرآن الكريم بالجمع بين الآيتين الكريمتين ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:٥٧) وقوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣)، فالسبيل هي مودة أهل البيت (عليهم السلام)، وقد أمرت آية سورة المائدة باتخاذه وسيلة.

كل مخلوق مُيسر لما خلق له:

ومن لطف الله تعالى بعباده، وحكمته في تدبير شؤونهم، وتغطية كل مساحات الحياة أنه نوّع الطاعات، والقربات الموصلة إليه، وأعطى لعباده إمكانيات، ومؤهلات مختلفة، فبعض أُعطي العلم النافع فهو يتقرب إلى الله بإرشاد الناس، وتعليمهم معالم دينهم، وهدايتهم، وآخر أُعطي المال ليتقرب إلى الله بإنفاقه في وجوه البر، والإحسان، وآخر أُعطي أخلاقاً كريمة يعاشر بها الناس، فيحبّه الله تبارك وتعالى.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٣٤٢/١.- مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي: ٤١١.- كتاب الغيبة- النعماني: ١٦٨/١.

فهذا التنوع في القناعات، والاختلاف في أداء الأعمال الموصلة إلى الله تعالى رحمة بالعباد، كما في الحديث النبوي الشريف: (اختلاف أمتي رحمة)[1].

وهنا شقشقة أُريد أن أبوح بها؛ لأن مجتمعنا مبتلٍ بها في جميع البلدان، وليست خاصة ببلد - فقد بلغني أنها موجودة هنا في المملكة، وإيران، والبحرين، ولبنان، كما هي موجودة عندنا في العراق- وهي عدم التعاطي مع هذا التنوع بايجابية، بل بحساسية مفرطة، وسوء ظن تصل إلى حد التقاطع، وتبادل الاتهامات، والتسقيط، وربما التكفير في بعض الحالات والعياذ بالله، وهذه حالة مرفوضة، ولا مبرر لها من سيرة أهل البيت (عليهم السلام)، وتعاليمهم وتُوقع أصحابها في الكبائر، مع ما فيها من حرمان للأمة من طاقات فاعلة، وحركات مؤثرة.

لقد شبّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمته بالسفينة التي تتحرك بحركة واحدة نحو ساحل الأمان، ولو شاء أحد أن ينفرد برأيه، ويخرج من حركة الأمة، ويقلع خشبته من السفينة؛ فإن الأمة تغرق، فلا بد من حركة تكاملية لعناصر المجتمع، يتمم بعضهم دور بعض، ويُشكّل كل واحد المساحة التي يستطيع التحرك فيها، وليست حركة تقاطعية عِدائية.

أجارنا الله تعالى وإياكم من مضلات الفتن...

---

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ١٥٧.

الحمد لله رب العالمين

الفهرس

مقدمة وتعريف ٥
نور القرآن ٥
مميزات هذا التفسير ١٣
القبس /١﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سورة الفاتحة:١ ..... ١٩
ملحق: أمير المؤمنين: (عليه السلام) نقطة الباء في البسملة ومعركة التأويل ٣٦
القبس /٢﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ سورة البقرة:١٠٩ ..... ٤٣
موضوع القبس: سبب عداء الكفار للمسلمين ٤٣
القبس/٣﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ سورة البقرة:١٢٥ ..... ٤٩
القبس/٤﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ سورة البقرة:١٤٣ ..... ٥٧
موضوع القبس: الوسطية و الاعتدال في الإسلام ٥٧
القبس/٥﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ سورة البقرة:١٥٢ ..... ٦٥
القبس/٦﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ سورة البقرة:١٦٧ ..... ٧٢
موضوع القبس: لنحذر الحسرة يوم القيامة ٧٢
القبس/٧﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ سورة البقرة:١٧٧ ..... ٨٣
موضوع القبس: افهم حقائق الأمور جيّداً ٨٣
(البر والعلم والعبادة أمثلة) ٨٣

القبس/٨ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ سورة البقرة:١٩١..... ٩٦
القبس/٩﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ سورة البقرة:١٩٥..... ١٠٥
القبس/١٠﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ سورة البقرة:١٩٧..... ١٢٣
موضوع القبس: الذنوب أصولها وكيفية الاحتراز منها وكفاراتها..... ١٢٣
القبس/١١﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ سورة البقرة:٢١٧..... ١٦٠
موضوع القبس: المواجهة مستمرة لحروب أعداء الإسلام ١٦٠
ملحق: حقائق في الصراع بين الإسلام وأعدائه..... ١٦٥
القبس/١٢﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ سورة البقرة:٢٤٥..... ١٧٤
موضوع القبس: دعوة كريمة إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى من كل ما يتيسَّر ١٧٤
القبس/١٣﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ سورة البقرة:٢٥٦....١٨٦
موضوع القبس: الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف..... ١٨٦
القبس/١٤﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ سورة البقرة:٢٦٩..... ١٩٢
موضوع القبس: بيان معنى الحكمة وحقيقتها..... ١٩٢
القبس/١٥﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ سورة آل عمران:١٩ ..... ٢٠٧
القبس/١٦﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ سورة آل عمران:٣٨..... ٢١٦
موضوع القبس: الحث على تكثير النسل ٢١٦

القبس/١٧﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ سورة آل عمران:٧٩ ..... ٢٢٨
موضوع القبس: الغرض من بعثة الأنبياء هو صنع الإنسان الربّاني ٢٢٨
القبس /١٨﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ سورة آل عمران:١٠٣ ..... ٢٣٦
موضوع القبس: أساس وحدة المسلمين ٢٣٦
القبس/١٩﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سورة آل عمران:١٠٤ ..... ٢٤١
موضوع القبس: وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر(قرآنياً/١ ..... ٢٤١
القبس/٢٠﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ سورة آل عمران:١١٠ ..... ٢٤٩
موضوع القبس: وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرآنياً/٢ ..... ٢٤٩
القبس/٢١﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾سورة آل عمران:١٣٣ ..... ٢٥٧
ملحق: تعرضوا لنفحات ربكم ٢٦٦
القبس/٢٢﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾سورة آل عمران:١٤٠ ..... ٢٧٤
موضوع القبس: الشهادة كرامة إلهية ٢٧٤
القبس/٢٣﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ سورة آل عمران:١٤٤ ..... ٢٨٧
موضوع القبس: إنقلاب الأتباع عند غياب القائد ٢٨٧
ملحق: ماذا خسرت الأمة حينما ولّت أمرها من لا يستحق ٢٩٨

النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة ٣٠٤
القبس/٢٤ ..... ٣٢٨
﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾سورة آل عمران:١٤٧ ..... ٣٢٨
موضوع القبس: معنى الثبات ٣٢٨
ملحق: إدامة الآثار المعنوية للطاعات ٣٣٧
القبس/٢٥ ..... ٣٤٤
﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾سورة آل عمران:١٥٣ ..... ٣٤٤
موضوع القبس: كيف يكون الغم ثواباً ٣٤٤
القبس/٢٦ ..... ٣٥١
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾سورة آل عمران:١٥٩ ..... ٣٥١
موضوع القبس: الرحمة بالمؤمنين ٣٥١
القبس/٢٧ ..... ٣٥٥
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾سورة آل عمران:١٦٤ .... ٣٥٥
موضوع القبس: السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكّر الأصحاب بنعمة النبي(صلى الله عليه وآله) ... ٣٥٥
القبس/٢٨ ..... ٣٦٤
﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾سورة آل عمران:١٧٢ ..... ٣٦٤
موضوع القبس: الاستمرار بالعمل الرسالي رغم الجراح ٣٦٤
القبس/٢٩ ..... ٣٧٠

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾سورة آل عمران:١٩١..... ٣٧٠
موضوع القبس: ذكر الله تعالى عند الطاعة والمعصية..... ٣٧٠
القبس/٣٠..... ٣٧٤
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾سورة آل عمران:١٩١..... ٣٧٤
موضوع القبس: رفض العبثية في الحياة..... ٣٧٤
الفهرس ٣٨١